

الدكتور فاضل صالح السامرائي

عَلَى طَرِيقِ النَّفْسِ الْبَيْكَاغِيَّةِ

الْجُزْءُ الرَّابِعُ
سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ



دار الكتب

عَلَى طَرِيقِ
النَّفْسِ الْبَيِّنَاتِ
الْجُزْءُ الرَّابِعُ

(C) حقوق الطبع محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من المؤلف.

- الموضوع: تفسير
- العنوان: على طريق التفسير البياني ٤١
- تأليف: الدكتور فاضل صالح السامرائي

الطبعة الأولى

١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م

ISBN 978-614-415-267-6

ISBN 978-614-415-267-6



9 786144 152676

- الطباعة : مطابع يوسف بيضون - بيروت / التجليد: شركة فؤاد البعينو للتجليد - بيروت
- الورق: كرم / الطباعة: لوانان / التجليد: كرتونه
- القياس: 24×17 / عدد الصفحات: 1656 / الوزن: 3200 غ

بيروت - لبنان - ص.ب: 113/6318
برج أبي حيدر - شارع أبو شقرا
تلفاكس: +961 1 817857
+961 1 705701
جوال: +961 3 204459

دمشق - سورية - ص.ب: 311
حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
تلفاكس: +963 11 2225877
+963 11 2228450



website: www.ibn-katheer.com / e-mail: info@ibn-katheer.com



/daribnkatheer



@daribnkatheer



daribnkatheer



daribnkatheer

عَلَى طَرِيقِ
النَّفْسِ السَّامِيَةِ

تَأْلِيفُ
الدُّكْتُورِ فاضلِ صاحبِ السَّامَرِيِّ

الْجُزْءُ الرَّابِعُ
سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

ذَاكَ الْبُكَشِيرُ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ





سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن هذه السورة مرتبطة بخواتيم السورة التي قبلها وهي سورة (طه) من أكثر من وجه منها:

١ - أنه قال في خواتيم سورة طه:

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ﴾ (١٢٩)

وقال في أول سورة الأنبياء:

﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ (١)

ومما قيل في الأجل المسمى المذكور في آية طه أنه يوم القيامة^(١) وهو موعد الحساب.

٢ - قال سبحانه في خواتيم سورة طه:

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمًى﴾ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمًى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَنتَكَ ءَايَتُنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِي ﴿١٢٦﴾

أي أنتك آياتنا فأعرضت عنها.

(١) انظر روح المعاني ١٦ / ٢٨٠.



وقال سبحانه في أول سورة الأنبياء: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ (١)

فكلتا الآيتين في المعرضين عن آيات ربهم .

٣ - قال في أواخر سورة طه: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ

رَبِّكَ﴾ (١٢)

وقال في أول سورة الأنبياء: ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا

بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ﴾ (٣)

وقال فيها أيضًا: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَمٌ بَلِ افْتَرَيْنَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ (٥)

فأمره في طه أن يصبر على ما قالوه في الأنبياء .

٤ - وقال في أواخر طه:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ۖ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ (١٣٦)

وقال في أول الأنبياء:

﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ (٥)

فكلتا الآيتين في طلب آية .

جاء في (البحر المحيط): «مناسبة هذه السورة لما قبلها أنه لما ذكر:

﴿قُلْ كُلٌّ مَّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا﴾ [طه: ١٣٥] قال مشركو قريش: محمد يهددنا

بالمعاد والجزاء على الأعمال ، وليس يصح ، وإن صح ففيه بعد فأنزل

الله تعالى: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ (١).

* * *

(١) البحر المحيط ٦ / ٢٩٥ وانظر كتابنا (التناسب بين السورة في المفتاح والخواتيم)



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ ﴿١﴾

* * *

يحتمل أن يكون أصل التعبير (اقترب حساب الناس) ثم (اقترب الحساب للناس) بذكر اللام التي تفيد الاختصاص والاستحقاق.

ثم قدم الجار والمجرور للاهتمام والتهويل وهو المهم فقال: (اقترب للناس الحساب) ، ثم أضيف (الحساب) إليهم ليكون مختصاً بهم ، وفيه تهديد أكبر فقال: ﴿أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾.

ثم إن ﴿أَقْتَرَبَ﴾ يفيد المبالغة في القرب ، فإن (افتعل) أدل على المبالغة من (فعل) ، والأصل (قرب).

وقيل: إن اللام متعلقة بـ (اقترب) ، واللام بمعنى (إلى) أو معنى (من) ، والمعنى (اقترب من الناس حسابهم) أو (اقترب إلى الناس حسابهم). وقد ذكر هذين الاحتمالين صاحب (الكشاف) فقال: «هذه اللام لا تخلو من أن تكون صلة لـ (اقترب) ، أو تأكيداً لإضافة الحساب إليهم ، كقولك: (أزف للحي رحيلهم) ، الأصل: أزف رحيل الحي ، ثم أزف للحي الرحيل ، ثم أزف للحي رحيلهم... ومنه قولهم: (لا أبالك) لأن اللام مؤكدة لمعنى الإضافة... والمراد اقتراب الساعة ، وإذا اقتربت الساعة فقد اقترب ما يكون فيها من الحساب والثواب والعقاب



وغير ذلك . ونحوه : ﴿وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ [الأنبياء : ٩٧] ^(١) .

ومنع قسم من النحاة أن يكون (للناس) متعلقاً بالحساب ؛ لأن (الحساب) مصدر ولا يتقدم معموله عليه . جاء في (البحر المحيط) : «و(للناس) متعلق باقتراب . . . وأما جعله اللام تأكيداً لإضافة الحساب إليهم مع تقدم اللام ودخولها على الاسم الظاهر فلا نعلم أحداً يقول ذلك ، وأيضاً فيحتاج إلى ما يتعلق به ، ولا يمكن تعليقها بـ (حسابهم) لأنه مصدر موصول ولا يتقدم معموله عليه» ^(٢) .

وذهب بعضهم إلى إجازة ذلك ، جاء في (شرح الرضي على الكافية) : «وأنا لا أرى منعاً من تقدم معموله عليه إذا كان ظرفاً أو شبهه نحو قولك : (اللهم ارزقني من عدوك البراءة وإليك الفرار) ، قال تعالى : ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ [النور : ٢] ، وقال : ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَى﴾ [الصفات : ١٠٢] . . . ومثله في كلامهم كثير ، وتقدير الفعل في مثله تكلف» ^(٣) .

ونحوه قوله : ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوْلاً﴾ [الكهف : ١٠٨] ، وقولهم : (اللهم اجعل لنا من أمرنا فرجاً ومخرجاً) ، وجعل الظرف متعلقاً بمحذوف حالاً من المصدر تكلف ^(٤) .

إن تقديم الجار والمجرور (للناس) احتمال معنيين :

الأول : أنه بمعنى اقترب من الناس أو إليهم فيكون متعلقاً بالفعل (اقترب) . وعليه الأكثرون .

والمعنى الآخر : أن يكون متعلقاً بالحساب ، أي اقترب الحساب

(١) الكشف ٢ / ٣٢٠ .

(٢) البحر المحيط ٦ / ٢٩٥ - ٢٩٦ .

(٣) شرح الرضي على الكافية ٣ / ٤٠٦ .

(٤) حاشية الخضري على شرح ابن عقيل ٢ / ٢٢ .



للناس ، أي حساب الناس . كما أجازته جماعة من النحاة .

فأفاد التقديم المعنيين واحتملهما ، بخلاف ما لو أخر الجار والمجرور فقال : (اقترب الحساب للناس) .

ثم إن تقديم (للناس) سوّغ ذكر الضمير في الحساب فقال : (حسابهم) ، ولو أخر الجار والمجرور فقال : (اقترب حساب الناس) أو : الحساب للناس لم يكن للضمير موضع .

فذكر في التعبير : الناس مع ضميرهم ، وهذا يفيد ضرباً من التأكيد .

وفي إسناد الاقتراب إلى الحساب تهويل وتفخيم ، فكأن الحساب يحث السير والسعي للوصول إليهم ، فهو استعارة تمثيلية ، فكأن الحساب شخص مغير معجل الإغارة للوصول إلى الناس .

جاء في (تفسير أبي السعود) : «وفي إسناد الاقتراب المنبئ عن التوجه نحوهم إلى الحساب مع إمكان العكس بأن يعتبر التوجه والإعراض من جهتهم نحوه من تفخيم شأنه وتهويل أمره ما لا يخفى لما فيه من تصويره بصورة شيء مقبل عليهم لا يزال يطلبهم ويصييهم لا محالة» ^(١) .

وجاء في (التحرير والتنوير) : «الاقتراب مبالغة في القرب . . .

وفي إسناد الاقتراب إلى الحساب استعارة تمثيلية ، شبه حال إضلال الحساب لهم بحالة شخص يسعى ليقرب من ديار ناس .

ففيه تشبيه هيئة الحساب المعقولة بهيئة محسوسة وهي هيئة المغير والمعجل في الإغارة على القوم يلح في السير تكلفاً للقرب من ديارهم وهم غافلون عن تطلب الحساب إياهم كما يكون قوم غارّين معرضين

(١) تفسير أبي السعود ٣ / ٦٨٢ .



عن اقتراب العدو منهم»^(١).

﴿لِلنَّاسِ﴾

قيل: إن المقصود بالناس مشركو مكة ، وقيل: المشركون مطلقاً ، وقيل: هو عام في منكري البعث^(٢) ، وقيل: إن المراد بالناس العموم^(٣) . والذي يبدو أن المقصود بالناس كل من اتصف بالغفلة والإعراض . وإطلاق لفظ الناس على هؤلاء من باب المجاز المرسل والعلاقة الكلية ، فقد ذكر الكل وأراد قسمًا منهم .

جاء في (الكشاف): «وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن المراد بالناس المشركون . وهذا من إطلاق اسم الجنس على بعضه للدليل القائم وهو ما يتلوه من صفات المشركين»^(٤) .

﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾

وصفهم بالغفلة والإعراض ، وقيل: إن هذين الوصفين ظاهرهما التنافي ، فإن الغافل غير المعرض ، فإن المعرض عن الشيء إنما يكون إذا كان ذاكرًا له .

وقيل: إنهما وصفان باعتبار حالين مختلفين ، فإنهم غافلون فإذا ذكرتهم أعرضوا . جاء في (الكشاف): «وصفهم بالغفلة مع الإعراض ، على معنى أنهم غافلون عن حسابهم ساهون لا يتفكرون في عاقبتهم . . . وإذا قرعت لهم العصا ونبهوا عن سنة الغفلة وفتنوا لذلك بما يتلى عليهم

(١) التحرير والتنوير ١٧ / ٨ - ٩ .

(٢) انظر الكشاف ٢ / ٣٢٠ ، البحر المحيط ٦ / ٢٩٥ .

(٣) فتح القدير ٣ / ٣٨٤ .

(٤) الكشاف ٢ / ٣٢٠ .



من الآيات والنذر أعرضوا وسدوا أسماعهم ونفروا»^(١).

وجاء في (البحر المحيط): «وأخبر عنهم بخبرين ظاهرهما التنافي لأن الغفلة عن الشيء والإعراض عنه متنافيان ، لكن يجمع بينهما باختلاف حالين . أخبر عنهم أولاً أنهم لا يتفكرون في عاقبة أمرهم بل هم غافلون عما يؤول إليه أمرهم .

ثم أخبر عنهم ثانياً أنهم إذا نبهوا من سنة الغفلة وذكروا بما يؤول إليه أمر المحسن والمسيء أعرضوا عنه ولم يبالوا بذلك»^(٢).

وقال: (في غفلة) بذكر (في) الظرفية، ولم يقل: (غافلون)، للدلالة على أنهم ساقطون في الغفلة وأن الغفلة محيطية بهم من كل الجهات وهم مغمورون فيها. جاء في (التحرير والتنوير): «ودلت (في) على الظرفية المجازية التي هي شدة تمكن الوصف منهم ، أي وهم غافلون أشد الغفلة حتى كأنهم منغمسون فيها أو مظروفون في محيطها»^(٣).

ولم يرد نحو هذا التعبير في القرآن الكريم إلا في اليوم الآخر .

قال تعالى: ﴿وَأَنْذَرُهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ [مريم: ٣٩].

وقال: ﴿وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَوَّلْنَ أَقْدًا كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٧].

وقال: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾

[ق: ٢٢].

(١) الكشف ٢ / ٣٢٠.

(٢) البحر المحيط ٦ / ٢٩٦.

(٣) التحرير والتنوير ١٧ / ١٠.



وآية الأنبياء هذه .

وذلك أشد الغفلة .

وجاء بالإعراض بالصيغة الاسمية فقال : ﴿ مُعْرِضُونَ ﴾ للدلالة على الثبات والدوام .

والوصف بالإعراض الثابت الدائم مناسب لهذه الغفلة العظيمة الغامرة .
وفي الآية مبالغات عديدة منها :

أنه قال : ﴿ أَقْتَرَبَ ﴾ ولم يقل : (قرب) وهو مبالغة في القرب .

وقال : (للناس) فأطلق الكل على الجزء وهم المشركون أو المتصفون بهذين الوصفين وهو مبالغة .

وقدم الجار والمجرور للاهتمام والتهويل ، هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى أنه أفاد التوسع في المعنى ، فقد يحتمل أن يكون ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ متعلقاً بـ ﴿ أَقْتَرَبَ ﴾ ، ويحتمل أن يكون متعلقاً بالحساب ، فأفاد معنيين وهو توسع في المعنى .

وأضاف الحساب إلى الناس فقال : ﴿ حِسَابُهُمْ ﴾ تهويلاً وإنذاراً شديداً ، ولم يقل : (اقترب للناس الحساب) .

وقال : ﴿ فِي غَفْلَةٍ ﴾ ولم يقل : (غافلون) للدلالة على تمكن الغفلة منهم وأنهم ساقطون فيها كالساقط في اللجة .

وقال : ﴿ مُعْرِضُونَ ﴾ بالاسم للدلالة على الثبات والدوام .

وجمع بين الغفلة والإعراض . فهم في غفلة فإذا ذُكِّروا أعرضوا .



﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ تُحْدِثُ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾

ذكر من مظاهر إعراضهم أنه ما يأتيهم شيء من القرآن يذكرهم إلا استمعوه وهم في لعب ولهو غير ملتفتين إلى شيء من ذلك .

وقال: ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ ﴾ فنفاه بـ(ما) للدلالة على شأنهم في الحال . ولم يقل (لا يأتيهم) فينفيه بـ (لا) التي تدل على نفي المضارع في المستقبل غالبًا ، وإنما ذكر حالتهم آنذاك ، وذلك أن (ما) النافية إذا دخلت على المضارع أفاد الحال .

وقال: ﴿ يَأْتِيهِمْ ﴾ للدلالة على تجدد الإتيان واستمراره ، ولم يقل: (ما أتاهم) التي قد تفيد حالة من حالات الماضي .

وقال: ﴿ مِّن ذِكْرٍ ﴾ بـ(من) الاستغراقية التي تفيد التوكيد والاستغراق ، فهم يعرضون ويلهون عن كل ذكر يأتيهم من ربهم وليس عن ذكر دون ذكر .

قال: ﴿ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ وهذا أسوأ شيء ، فإن الذكر إنما هو من ربهم الذي هو خالقهم ومربيهم ورازقهم ومتولي أمرهم . وهذا أسوأ إعراض . فإنه لو كان اللهو والإعراض عن الذكر من جهة أخرى لكان أقل سوءًا ونكرًا ، فكيف وقد أتاهم الذكر من ربهم؟!

ثم قال: ﴿ تُحْدِثُ ﴾ أي جديد ينزل إليهم بعد ذكر سابق . فهم يعرضون عن كل ذكر ينزل على ما فيه من فنون الموعظة والتذكير .

ثم قال: ﴿ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ ﴾ ولم يقل: (سمعوه) مجرد السماع من دون معرفة بما فيه ، وإنما استمعوا الموعظة وأدركوا مغزاها ومع ذلك استمعوها وهم يلعبون لاهين عابثين غير عابئين بها ولا ملتفتين إليها بل استمعوها لاهين ساخرين .

جاء في (الكشاف): «قرر إعراضهم عن تنبيه المنبه وإيقاظ الموقظ



بأن الله يجدد لهم الذكر وقتًا فوقتًا ، ويحدث لهم الآية بعد الآية والسورة بعد السورة ليكرر على أسماعهم التنبيه والموعظة لعلمهم يتعظون ، فما يزيدهم استماع الآي والسور وما فيها من فنون المواعظ والبصائر التي هي أحق الحق وأجدد الجد إلا لعبًا وتلهيًا واستسحارًا .

والذكر : هو الطائفة النازلة من القرآن» (١) .

وقال ههنا : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾

فقال : (من ربهم) .

وقال في الشعراء : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّحْمَنِ مُّحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُّعْرِضِينَ ﴾

فقال : (من الرحمن)

وذلك أنه ذكر في سياق آية الأنبياء صفات أشد سوءًا مما ذكره في الشعراء مما يبعدهم عن الرحمة .

فقد ذكر في الشعراء أنهم معرضون عن الذكر ، وقال : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ فذكر أنه ستأتيهم الأنباء ولم يقل سيأتيهم العذاب .

في حين قال في سورة الأنبياء إنهم في غفلة وإنهم معرضون ، وإنهم يستمعون الذكر وهم يلعبون ، لاهية قلوبهم ، وإنهم قالوا عن رسولهم ليس إلا بشرًا ، وإن ماجاء به سحر ، وإنه أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر ، وإنهم أرادوا آية كما أرسل الأولون .

فكانوا أبعد عن الرحمة .



وقال أيضًا: ﴿ مَا آمَنْتَ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿٦﴾ .

وقال: ﴿ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴾ ﴿٩﴾ .

وقال: ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ ﴿١١﴾

وقال: ﴿ فَمَا زَلَّ تِلْكَ دَعْوَهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيدِينَ ﴾ ﴿١٥﴾

وقال: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ ﴾ ﴿١٨﴾

كل هذا لا يناسب الرحمة لأنه في مقام الإهلاك .

وأما في الشعراء فقد قال: ﴿ لَعَلَّكَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ أَكْبَرُ ﴾ ﴿٢﴾

فإن الله أرحم بك من ذلك .

وقال: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَاتِهِمْ أَنْبَتُوا مَا كَانُوا بِهٖ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ ﴿١﴾ فذكر أنهم

تأتيهم الأنبياء ولم يذكر العقوبة .

ثم ذكر من مظاهر رحمته في الأرض فقال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَأْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ ﴿٧﴾

ثم كرر قوله: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ ثماني مرات في السورة .

ثم قال: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ ﴿١٤﴾ فذكر العزيز الرحيم تسع

مرات . فناسب ذلك ذكر اسمه (الرحمن) .

فناسب ذكر (الرب) في آية الأنبياء ، وذكر الرحمن في آية الشعراء .

جاء في (ملاك التأويل) في سبب الاختلاف بين هاتين الآيتين: «أن

اسمه سبحانه (الرحمن) يغلب وروده حيث يراد الإشارة إلى العفو والإحسان والرفق بالعباد والتلطف والأنيس . . .

وأما اسمه الرب فيعم وروده في طرفي الترغيب والترهيب . . . ولما



تقدم قبل آية الأنبياء من الأخبار ما طيّه وعيد وترهيب مع تلطفه سبحانه بهم بتذكيرهم لم يكن ليناسب ذلك ورود اسمه الرحمن .

ألا ترى أن قوله تعالى : ﴿ أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾ أشد تخويفاً للمخاطبين . . .

وأما آية الشعراء فمبنية على تأنيس النبي ﷺ وإعلامه أن توقف قومه عن الإيمان إنما هو بقدرته تعالى ولو شاء لأراهم آية تبهرهم كنتق الجبل فوق بني إسرائيل . وإلى هذه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ إِنْ شَأْ نُزِّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّ أَعْتَقُوهُمْ لَهَا خَصِيعِينَ ﴾ [الشعراء : ٤] ثم رجع الكلام إلى تعنيف المكذبين . فلما كان بناء الآية على التأنيس والتلطف بنبينا ﷺ وإعلامه بأن تأخير العذاب عنهم إنما هو إبقاء منه تعالى ليستجيب من قدر له الإيمان منهم . فأشار إلى هذا وناسب اسمه الرحمن فقال تعالى : ﴿ وَمَا يَأْنِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مَنْ أَرْحَمَنِ مُحَدِّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ فقد وضح ورود كل من الاسمين في موضعه على ما يجب ويناسب^(١) .

وجاء في (كشف المعاني) لابن جماعة أنه «لما تقدم هنا ﴿ أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾ وذكر إعراضهم وغفلتهم وهو وعيد وتخويف فناسب ذكر الرب المالك ليوم القيامة المتولي ذلك الحساب .

وفي الشعراء تقدم ﴿ إِنْ شَأْ نُزِّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ ﴾ لكن لم يفعل ذلك لعموم رحمته للمؤمنين والكافرين لم يشأ ذلك ، ويقوي ذلك تكرير قوله تعالى في السورة : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾^(٢) .

* * *

(١) ملاك التأويل ٢ / ٦٩٢ - ٦٩٤ .

(٢) كشف المعاني ٢٥٤ .



﴿لَا هِيَ قُلُوبُهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ
أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾
﴿لَا هِيَ قُلُوبُهُمْ﴾

«اللاهية من (لها عنه) إذا ذهل وغفل»^(١).

أسند اللهو وهو الذهول والغفلة إلى القلوب ؛ لأن القلوب هي آلة
الفقه والعلم ، وهي آلة التدبر والهدى ، وربنا يسند ذلك إليها أو ينفيه
عنها . قال تعالى : ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف : ١٧٩].

وقال : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [الحج : ٤٦].

وقال : ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ أَمْرَ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد : ٢٤].

فإذا غفلت غفل صاحبها ، وإذا عقلت عقل صاحبها ، فوصف
قلوبهم بالغفلة الثابتة فقال : (لاهية) بالاسم .

والوصف بالاسم هنا مناسب لوصفهم بالغفلة التي تغمرهم
والإعراض الثابت في قوله : ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ .

﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾

قوله : ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾ فيه مبالغة في الإسرار والإخفاء ، ذلك أن
النجوى إنما تكون في السر ، فإذا قلت : (تناجى فلان وفلان) فمعنى ذلك
أنهما أخفيا حديثهما ، فإذا قلت : (أسرّا النجوى) أفاد ذلك المبالغة في
الإخفاء .

فالإسرار يفيد الإخفاء عن غير الذي تسر إليه الحديث .

والتناجى يفيد الإخفاء أيضًا . فإذا قلت : (أسرّ النجوى) فقد بالغت
في الإخفاء .



جاء في (الكشاف): «فإن قلت: النجوى وهي اسم من التناجي لا تكون إلا خفية فما معنى قوله: ﴿وَأَسْرُوا﴾؟

قلت: معناه: وبالغوا في إخفائها... أو جعلوها بحيث لا يفطن أحد لتناجيتهم ولا يعلم أنهم متناجون»^(١).

إن قوله: ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يحتمل أوجهًا إعرابية متعددة ، منها أن ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بدل من الواو في ﴿أَسْرُوا﴾ ، فقد أسند الإسرار إليهم على وجه العموم ثم بين الذين أسروا فقال: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ .

وهذا نظير ذكر الناس على العموم في قوله: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ ثم بين المقصود بهؤلاء الناس فيما بعد . وهو تناظر لطيف .

ويحتمل أن التعبير مبني على التقديم والتأخير ، فقوله: ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾ جملة خبر مقدم ، و﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ مبتدأ مؤخر ، فيكون من باب تقديم الخبر لغرض الاهتمام .

ويحتمل أن يكون ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ منصوبًا على الذم أو على إضمار (أعني). وكل هذه الأوجه على اختلاف التقديرات تفيد الاهتمام والعناية كل بحسب ما يدل عليه .

وقيل: إنما هو على لغة (أكلوني البراغيث) أي على لغة من يجعل هذه الضمائر حروفًا تدل على الفاعل فيقولون: أقبلوا الرجال ، وأقبلوا الرجال ، وأقبلن النسوة .

والأولى تخريجها على لغة سائر العرب وما في ذلك من دلائل معنوية .

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٠ وانظر البحر المحيط ٦ / ٢٩٦ - ٢٩٧ .



جاء في (الكشاف): «أبدل ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ من واو ﴿وَأَسْرُوا﴾ إشعاراً بأنهم الموسومون بالظلم الفاحش فيما أسروا به ، أو جاء على لغة من قال: (أكلوني البراغيث) ، أو هو منصوب المحل على الذم ، أو هو مبتدأ خبره ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾ قدم عليه .

والمعنى: وهؤلاء أسروا النجوى ، فوضع المظهر موضع المضمير تسجيلاً على فعلهم بأنه ظلم»^(١) .

﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾

أنكروا أن يرسل الله بشراً مثلهم ، فإنه لا بد - فيما يرون - أن يكون الرسول من الله ملكاً وهذه شبهة كثير من المجتمعات البشرية ، فقد ذكر ربنا عن مجموعة من المجتمعات البشرية أنهم قالوا لرسولهم: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠] .

وقال في قوم نوح إنهم قالوا في رسولهم: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤] .

وقال في قوم بعد قوم نوح في رسولهم: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣ - ٣٤] .

وكذلك من بعدهم .

وأخبر ربنا أن هذه الشبهة منعت الناس من الإيمان فقال: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤] .

وكذلك هي شبهة كفار قريش ، ولذا أمر ربنا رسوله في أكثر من

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٠ - ٣٢١ ، وانظر البحر المحيط ٦ / ٢٩٦ - ٢٩٧ .



موضع أن يقول لهم إنه بشر مثلهم فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾
[الكهف: ١١٠ ، فصلت: ٦].

جاء في (الكشاف): «اعتقدوا أن رسول الله ﷺ لا يكون إلا ملكاً ، وأن كل من ادعى الرسالة من البشر وجاء بالمعجزة هو ساحر ومعجزته سحر ، فلذلك قالوا على سبيل الإنكار: أفتحضرون السحر وأنتم تشاهدون وتعاينون أنه سحر»^(١).

«والسحر عنوا ما ظهر على يديه من المعجزات»^(٢).

وجملة ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ تحتل أن تكون بدلاً من النجوى ، أي أسروا هذا القول.

وتحتل أن تكون مفعولاً به لقول محذوف ، أي وأسروا النجوى قائلين: ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾.

جاء في (الكشاف): «هذا الكلام كله في محل النصب بدلاً من النجوى ، أي وأسروا هذا الحديث. ويجوز أن يتعلق بـ (قالوا) مضمراً»^(٣).
وذكرت أوجه أخرى^(٤).

قد تقول: لقد قال ههنا: ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾.

وقال في سورة (طه): ﴿فَنَنْزِعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾^(١٦) قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسَحْرٌ يَرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا﴾ [طه: ٦٢ - ٦٣].

(١) الكشاف ٢ / ٣٢١.

(٢) البحر المحيط ٦ / ٢٩٧.

(٣) الكشاف ٢ / ٣٢١ ، تفسير أبي السعود ٣ / ٦٨٤.

(٤) انظر روح المعاني ١٧ / ٨.

فذكر القول إضافة إلى الإسرار فقال: ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾ ١٢ ﴿قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسَّحِرٌ مِّنْ لَّا نَدْرِي﴾ ولم يذكر ذلك في آية الأنبياء فما الفرق؟

فنقول: إن ذكر القول مع ذكر النجوى أكد وأهم ؛ لأنه ذكر القول مع ما فيه معنى القول . فإن النجوى معناها القول ، ثم ذكر القول إضافة إلى ذلك ، فكانه قد كرر اللفظ فكان أكد .

وذلك أن الموقف في (طه) أشد ، فإن السياق فيها إنما هو في موسى وفرعون وما حصل بينهما من المناظرة والمشاادة بعدما رأوا الآيات وكذبوها وزعموا أنها سحر ، وأن موسى وأخاه ساحران .

وتحدوه بأنهم سيأتونه بسحر مثله . ثم إن فرعون جمع كيده ﴿فَنَزَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾ ١٢ ﴿قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسَّحِرٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَ بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ ١٣ ﴿فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتَوْا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾ ١٤ .

فالموقف في (طه) موقف تحدّ ومواعدة وامتحان ومغالبة ، فكان الموقف أشد مما في الأنبياء الذي ليس فيه شيء من ذلك .
فناسب ذكر القول إضافة إلى ما في معناه في آية (طه) دون آية الأنبياء .

* * *

﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ٤١

جاء في (الكشاف): «فإن قلت: هلا قيل: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ﴾ لقوله: ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾؟

قلت: القول عام يشمل السر والجهر فكان في العلم به العلم بالسر وزيادة، فكان أكد في بيان الاطلاع على نجواهم من أن يقول: يعلم السر .

كما أن قوله: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ﴾ أكد من أن يقول: (يعلم سرهم) ، ثم



بين ذلك بأنه السميع العليم لذاته فكيف تخفى عليه خافية؟»^(١).

قد تقول: لقد قال سبحانه في سورة الفرقان: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الفرقان: ٦].

فقال في آية الأنبياء: ﴿فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ بإفراد السماء.

وقال في آية الفرقان: ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بالجمع فلم ذاك؟

والجواب: إن القول أعم من السر، فهو يشمل السر وزيادة كما ذكر صاحب الكشاف، فإن القول يكون سرًا وجهراً، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة: ٨].

وإن السماء أعم من السماوات^(٢).

فناسب العموم العموم والخصوص الخصوص.

وقد تقول: ولم قال في آية الأنبياء ﴿يَعْلَمُ الْقَوْلَ﴾.

وقال في آية الفرقان: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ﴾؟

والجواب أنه ذكر النجوى وما قالوه فيها في آية الأنبياء، والنجوى قول، فناسب ذلك أن يقول: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ﴾.

وليس في آية الفرقان مثل ذلك، وإنما هي في سياق آخر فذكر السر. فقد قال قبل آية الفرقان: ﴿وَقَالُوا أَأَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكُتِبَتْهَا فِيهِ نُمُلَّ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾، فقالوا إنه أساطير الأولين اكتتبها، أي كتبت له وأملت عليه، وهذا مما فعل في السر، فناسب ذكر السر.

جاء في (الكشاف) أن أسلوب آية الأنبياء خلاف أسلوب آية الفرقان

(١) الكشاف ٢ / ٣٢١ وانظر البحر المحيط ٦ / ٢٩٧، روح المعاني ١٢ / ٣٢٦.

(٢) انظر كتابنا (التعبير القرآني) ٥٢ - ٥٣.



«من قبل أنه قدم ههنا أنهم أسروا النجوى ، فكأنه أراد أن يقول : إن ربي يعلم ما أسروه ، فوضع القول موضع ذلك للمبالغة .

وتمّ قصد وصف ذاته بأن أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض ، فهو كقوله : ﴿ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ ﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ ﴾ ^(١) .

لقد ختم هذه الآية - أعني آية الأنبياء - بقوله : ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ بذكر صفتي السمع والعلم ، ذلك أنه ذكر ما يسمع وما يعلم . فإن التناجي قول ، والقول مما يسمع ، وذكر الإسرار وهو مما يعلم ، فناسب ختم الآية بهذين الوصفين الجليلين .

وعرفهما للحصر ، فهو الكامل في هذين الوصفين دون غيره ، فليس ثمة ذات أخرى تتصف بهما على نحو ما يتصف به سبحانه .

* * *

﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْنِثْ آيَةً كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴾

«أضربوا عن قولهم هو سحر إلى أنه تخاليط أحلام ، ثم إلى أنه كلام مفترى من عنده ، ثم إلى أنه قول شاعر ، وهكذا الباطل لجلج ، والمبطل متحير رجاء غير ثابت على قول واحد» ^(٢)

«وهذه الأقوال الظاهرة أنها صدرت من قائلين متفقين انتقلوا من قول إلى قول ، أو مختلفين قال كل منهم مقالة» ^(٣) .

وقوله : ﴿ فَلْيَأْنِثْ آيَةً كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴾ «جواب شرط محذوف ،

(١) الكشف ٢ / ٣٢١ .

(٢) الكشف ٢ / ٣٢١ .

(٣) البحر المحيط ٦ / ٢٩٧ .



أي إن لم يكن كما قلنا فليأتنا بآية كما أرسل الأولون»^(١).
وهذه الأقوال جمعت القول في طبيعة الرسول وفيما جاء به وفي صفاته .

ففي طبيعة الرسول ذكر أنهم قالوا إنه بشر مثلهم .
وفيما جاء به قالوا إنه سحر وإنه أضغاث أحلام .
وفي صفاته قالوا إنه افتراه وإنه شاعر .

* * *

﴿ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾

لما طلبوا أن يأتيهم بآية كما أرسل الأولون قال سبحانه: إن القرى التي أوتيت الآيات لم يؤمنوا ، فأهلكها ربنا ، أفهؤلاء يؤمنون؟ أي إنهم لا يؤمنون .

وفحوى ذلك أنه إن لم يؤمنوا فسيهلكهم كما أهلك الأولين . فأمسك عنهم الآيات ليستبقئهم فيؤمن منهم من يؤمن ويمكّن لهم في الأرض ويستخلفهم إلى قيام الساعة .

جاء في (الكشاف): «فيه أنهم أعتى من الذين اقترحوا على أنبيائهم الآيات وعاهدوا أنهم يؤمنون عندها ، فلما جاءتهم نكثوا وخالفوا فأهلكهم الله . فلو أعطيناهم ما يقترحون لكانوا أنكث وأنكث»^(٢) .

وجاء في (البحر المحيط): «ولكن حكم الله تعالى بإبقائهم ليؤمن من آمن ويخرج منهم مؤمنين»^(٣) .

(١) فتح القدير ٣ / ٣٨٥ .

(٢) الكشاف ٢ / ٣٢١ .

(٣) البحر المحيط ٦ / ٢٩٧ .



وجاء في (التحرير والتنوير): «وإنما أمسك الله الآيات والخوارق عن مشركي مكة لأنه أراد استبقاءهم ليكون منهم مؤمنون وتكون ذرياتهم حملة هذا الدين في العالم.

ولو أرسلت عليهم الآيات البينة لكانت سنة الله أن يعقبا عذاب الاستئصال للذين لا يؤمنون بها»^(١).

والمراد بإهلاك القرية إهلاك أهلها.

جاء في (روح المعاني): «أَهْلَكْنَاهَا» صفة قرية. والمراد أهلكتناها بإهلاك أهلها لعدم إيمانهم بعد مجيء ما اقترحوه من الآيات»^(٢).

لقد قال سبحانه: ﴿ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ ﴾ ولم يقل: (من قبلهم) ذلك أن (من) تفيد ابتداء الغاية^(٣) أي من قبلهم القرييين فمن قبلهم.

وأما ﴿ قَبْلَهُمْ ﴾ فتفيد القبلية غير المقيدة فقد تكون قرية أو بعيدة.

ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِشَرٍّ مِّنْ قَبْلِكَ أَلْحُدَّ ﴾.

فجاء بـ (من) لأن ذلك يشمل جميع من قبله ابتداء من الأقرب فمن قبلهم ، فكلهم ماتوا ولم يخلد أحد منهم.

فقال: (قبلهم) ولم يقل: (من قبلهم) لأنه لم يحصل ذلك في الزمن القريب منهم ، ذلك أن أقرب رسول منهم هو عيسى بن مريم ، وبين الرسالتين أكثر من ستمائة عام ، وهو زمن بعيد ، ولا نعلم كم من الزمن ممن هو قبل عيسى حصل ذاك فلم يذكر (من).

وقال: ﴿ مِّنْ قَرْيَةٍ ﴾ بإدخال (من) الاستغرافية على القرية ، فأفاد ذلك

(١) التحرير والتنوير ١٧ / ١٧ .

(٢) روح المعاني ١٧ / ١٢ .

(٣) انظر كتابنا (معاني النحو) ٢ / ١٩٣ وما بعدها .

استغراق جميع القرى التي لم تؤمن .

قد تقول: لقد قال ههنا: ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ فجعل الإهلاك للقرية . في حين قال في موطن آخر: ﴿أَهْلَكْنَهُمْ﴾ فجعل الإهلاك لأهلها ، قال تعالى في سورة الكهف: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ [٥٩] فما السبب؟

فنقول: لما قال: ﴿لَمَّا ظَلَمُوا﴾ فأسند الظلم إلى أهلها قال: ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ ، ألا ترى إلى قوله سبحانه: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ [الحج: ٤٥] لما نسب الظلم إليها فقال: ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ قال: ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾؟ .

ومن اللطائف في نحو هذا التعبير قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد: ١٣] فقال: ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ ولم يقل: (أهلكنها) ، ذلك أنه لما قال: ﴿هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ﴾ ويعني بالقرية التي أخرجته مكة قال: ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ ولم يقل: (أهلكنها) تعظيماً لها لثلا يظن أنه سينالها الإهلاك كما فعل بالقرى العاتية . فجعل الإهلاك لأهلها ، وليس ببعيد على الله أن يهلك العتاة من أهل هذه القرية كما فعل بغيرهم ويأتي بمن هو خير منهم .

ألا ترى أنه نسب الظلم إلى القرى في أكثر من موضع فقال: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ [الحج: ٤٥] .

وقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ آمَلَتْ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ [الحج: ٤٨] .

وقال: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ [الأنبياء: ١١] إلا مكة فإنه لم ينسب الظلم إليها ، وإنما نسبه إلى أهلها تعظيماً لها أن ينسب إليها الظلم وتكريماً فقال: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ [النساء: ٧٥] .



وهو من لطيف مراعاة المقام .

* * *

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

رد على قولهم: ﴿ هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ بهذه الآية ، فذكر أن الرسل قبل سيدنا محمد كلهم بشر يوحي إليهم وليسوا ملائكة . وإن كنتم لا تعلمون ذلك فاسألوا أهل الذكر ، أي أهل الكتاب حتى يعلموكم .

جاء في (الكشاف): «أمرهم أن يستعلموا أهل الذكر وهم أهل الكتاب حتى يعلموهم أن رسل الله الموحى إليهم كانوا بشرًا ولم يكونوا ملائكة كما اعتقدوا»^(١) .

وجاء في (البحر المحيط): «ولما تقدم من قولهم: ﴿ هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ وأن الرسول لا يكون إلا من عند الله من جنس البشر قال تعالى رادًا عليهم: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا ﴾ أي بشرًا ، ولم يكونوا ملائكة كما اعتقدوا . ثم أحالهم على أهل الذكر فإنهم وإن كانوا مشابهين للكفار ساعين في إخماد نور الله لا يقدرّون على إنكار إرسال البشر .

وقوله: ﴿ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ من حيث إن قريشًا لم يكن لها كتاب سابق ولا أثارة من علم»^(٢) .

قد تقول: لقد قال في أكثر من موضع: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا ﴾ بذكر (من) ، وفي آية الأنبياء هذه لم يذكر (من) .

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٢ .

(٢) البحر المحيط ٦ / ٢٩٨ وانظر روح المعاني ١٧ / ١٢ .

فقد قال تعالى في سورة يوسف: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيْ اِلَيْهِمْ مِنْ اَهْلِ الْفُرْقَيْنِ اَفَلَمْ يَسِيْرُوْا فِي الْاَرْضِ فَيَنْظُرُوْا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْاٰخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِيْنَ اتَّقَوْا اَفَلَا تَعْقِلُوْنَ﴾ ﴿١٠٩﴾ بذكر (من).

وقال في النحل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيْ اِلَيْهِمْ فَسْتَلَوْا اَهْلَ الذِّكْرِ اِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُوْنَ﴾ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا اِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ اِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُوْنَ﴾ ﴿٤٤﴾ بذكر (من) أيضًا. فما الفرق؟

فنقول: إن السياق في كل موضع يوضح السبب:

فقد ذكر كثير من النحاة أن (من) في نحو هذا التعبير تدل على ابتداء الغاية ، وذهب قسم آخر إلى أنها تفيد التوكيد^(١).

ومقتضى ابتداء الغاية على ما ذكر بعضهم في نحو هذا التعبير أنه يفيد استغراق الزمن المتقدم ابتداء من ابتداء الغاية إلى ما قبله ، وأن (من) تفيد توكيد ما دخلت عليه^(٢).

ثم إن السياق في آتي يوسف والنحل يختلف عنه في آية الأنبياء ، فما كان في يوسف والنحل إنما هو في سياق العقائد.

فقد قال في سياق آية يوسف: ﴿وَكَاٰنَ مِنْ ءَايَةِ فِي السَّمَٰوٰتِ وَالْاَرْضِ يَمْرُوْنَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُوْنَ﴾ ﴿١٠٩﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِٱللّٰهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُوْنَ﴾ ﴿١١٠﴾.

فذكر كثرة الآيات التي يمرون عليها في السماوات والأرض وهم معرضون عنها. وهذه أعم وأكثر بكثير من كون (الرسل بشرًا) ، فهذه

(١) انظر لسان العرب (من) ، المغني ١ / ٣٢٥-٣٢٦ ، التصريح ١ / ٣٤٢.

(٢) انظر ملاك التأويل ١ / ٦٧٨ ، درة التنزيل ٢٤١.



مسألة واحدة وتلك آيات كثيرة. ثم ذكر معتقداتهم في الإيمان بالله مع شركهم به.

ثم قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١١٩).

فقد حذرهم أن يصيبهم مثل ما أصاب أهل القرى الذين يمرون عليهم من العقوبة ويستمر في الكلام في نحو هذا. كل هذا ليس متعلقاً بكون الرسل بشرًا أو ملائكة.

فالأمر أكد وأعم وأشمل ، فجاء بـ (من) التي قد تفيد التوكيد والعموم.

وكذلك السياق في سورة النحل فإنه في العقائد والبيئات والزبر وتحذير المعاندين بالعقوبات. فقد قال في سياق آية النحل: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ (٣١).

فذكر استغراق بعث الرسل للأمم كلها ودعوتهم إلى عبادة الله واجتناب الطاغوت ، وليس الكلام على كون الرسل بشرًا أو ملائكة ، إلى أن قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَتَسْلُوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكُّوْنَ﴾ (٤٤).

وطلب منهم استعلام أهل الكتاب عن البيئات والزبر ، وإنه أنزل الذكر إليه ليبين للناس ما نزل إليهم. وليس له علاقة بكون الرسل بشرًا أو ملائكة. فهو أعم وأشمل من ذلك. وحذر الذين يمكرون السيئات أن



يخسف الله بهم الأرض أو يعذبهم .

وهو نظير ما مر في سورة يوسف . فجاء بـ (من) الدالة على العموم والتوكيد والشمول .

وأما آية الأنبياء فهي في أمر واحد وهو ما يتعلق بإثبات بشرية الرسل ، قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ .

فما في يوسف والنحل أعم وأشمل .

ونظير آية الأنبياء هذه ما جاء في سورة الفرقان وذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ ﴿٢٠﴾ .

فلم يذكر (من) في الموضعين لتشابههما .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه ليست كل الأمم ينكرون بشرية الرسل ، فإن أهل الكتاب لا ينكرون ذلك ، ولذلك أحالهم على أهل الذكر للاستفسار ، بخلاف الإيمان بما جاءت به الرسل ، فإن عموم التكذيب إنما هو في ذلك .

فما في آيتي يوسف والنحل أعم من هذه الناحية أيضًا .

فإن المكذبين بما جاءت به الرسل أكثر من المكذبين بكون الرسل بشرًا .

فما جاء بـ (من) أكثر .

فناسب ذكر (من) من هذه الناحية أيضًا .



ثم إن آية الأنبياء مناسبة لما قبلها وهو قوله: ﴿مَاءَ أَمْنٍ قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ ﴿٦﴾.

فكلتا الآيتين من دون (من).

فناسب ذلك من هذه الناحية أيضًا.

ثم لننظر في الآيات من ناحية أخرى:

فقد قال في آية يوسف: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾.

فذكر (أهل القرى) ذلك أنه قال في الآية: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ وهم يمرون على القرى في سيرهم في الأرض ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا سَوَاءً أَفْكَمَ يَكُونُوا يُرْوْنَهَا﴾ [الفرقان: ٤٠] فناسب ذكر القرى.

وقال في آية النحل: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ.

ذلك أنه قال بعد ذلك: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكُّوْنَ﴾ ﴿٤٤﴾.

فالتناسب ظاهر.

جاء في (درة التنزيل): «قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ [يوسف: ١٠٩].

وقال في سورة النحل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ.

وقال في سورة الأنبياء: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ ﴿٨﴾.



للسائل أن يسأل فيقول: هل بين قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ﴾ فرق؟ ولأي معنى خص موضع بحذف (من) وموضع بإثباتها؟

الجواب: أن يقال: إن (من) لا ابتداء الغاية. و(قبلك) اسم للزمان الذي تقدم زمانك. فإذا قال: (وما أرسلنا من قبلك) فكأنه قال: وما أرسلنا من ابتداء الزمان الذي تقدم زمانك، فيخص الزمان الذي يقع عليه قبل تحديه. ويستوعب بذكر طرفيه ابتداءه وانتهاءه.

وإذا قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ﴾ فمعناه: ما فعلنا في الزمان الذي تقدم زمانك...

فأما قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ فإنما لم يؤكد بـ (من) لأن المعتمد بالخبر إنما هو الحال التي للمرسلين، وهي أنهم يأكلون الطعام وليسوا من الملائكة الذين طلب الكفار أن يبعثوا إليهم وأخبر الله تعالى به عنهم في قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾^(١).

وجاء في (ملاك التأويل) في هذه الآيات التي ذكرها صاحب الدرة: «أن آية يوسف قد تقدمها قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ﴾، وقوله: ﴿وَسُبِّحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وقوة السياق في هذه الآي يدل على القسم ويعطيه، فناسب ذلك زيادة (من) المقتضية الاستغراق.

وكذلك قوله في سورة النحل: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبُوِّثَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جَزَآءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ [النحل: ٤١] يؤكد ذلك

(١) درة التنزيل وغرة التأويل ٢٤٠-٢٤٢.



المعنى . فناسبه زيادة (من) لاستغراق ما تقدم من الزمان .

أما قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ ﴾ فتقدم قبلها إنكار الكفار كون الرسل من البشر في قوله: ﴿ هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ واقتراحهم الآيات في قولهم: ﴿ فَلْيَأْنِئْنَا بِثَايَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴾ ، فلما انطوى هذا الكلام على قضيتين من اقتراحهم الآيات وإنكارهم كون الرسل من البشر ، وقد تبين لهم حال المقترحين في قوله تعالى: ﴿ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ﴾ فلما تقدم هذا أتبع ببيان الطرف الآخر وهو التعريف بأن من تقدم من الرسل إنما كانوا رجالاً من البشر مختصين بتخصيصه سبحانه ولم يكونوا ملائكة ، فقل لنبينا محمد ﷺ: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ ﴾ . فقل هنا (قبلك) كما قيل في نظيرتها ﴿ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ ﴾ فلم تدخل هنا (من) كما لم تدخل في النظير الآخر لإحراز التناسب والتحام الجملة المنطوية على طرفي مقصدهم من الاقتراح وإنكار كون الرسل من البشر^(١) .

* * *

﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴾

أي لم نجعلهم أجساداً لا تأكل الطعام ، وإنما جعلناهم بشراً يأكلون ويشربون ويموتون كسائر البشر .

وهو رد على قولهم مستنكرين: ﴿ هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ وقولهم في موضع آخر: ﴿ مَا لَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ ﴾ [الفرقان: ٧] .
جاء في (الكشاف): ﴿ لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ﴾ صفة لجسداً ، والمعنى: وما جعلنا الأنبياء عليهم السلام قبله ذوي جسد غير طاعمين .



ووحده الجسد لإرادة الجنس ، كأنه قال : ذوي ضرب من الأجساد .

وهذا رد لقولهم : ﴿ مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ ﴾ [الفرقان : ٧٠] ^(١) .

ونفى الجملتين بـ (ما) دون (لم) ذلك أن (ما) كثيراً ما تكون ردّاً على كلام أو ما نزل هذه المنزلة ، تقول : (لقد قال فلان كذا وكذا) فيقال لك : (ما قال ذلك) . قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [المائدة : ١١٦] .

فكان جوابه : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ﴾ [المائدة : ١١٧] ^(٢) .

جاء في (الفروق اللغوية) : «(ما) جواب عن الدعوى ، تقول : قلت كذا ، ويكون الجواب : ما قلت» ^(٣) .

ومن ناحية أخرى أن (ما) أكد من (لم) ، فإنها تقع جواباً لقسم ، بخلاف (لم) ، قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ رَيْنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ٢٣] ، وقال : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا ﴾ [التوبة : ٧٤] .

* * *

﴿ ثُمَّ صَدَقْنَهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴾

هذه إشارة إلى أنه سبحانه سيصدق رسوله ما وعده من النصر والظفر وإهلاك أعدائه كما فعل مع الرسل قبله .

جاء في (البحر المحيط) : «ذكر تعالى سيرته مع أنبيائه فكذلك يصدق

(١) الكشف ٢ / ٣٢٢ ، وانظر البحر المحيط ٦ / ٢٩٨ - ٢٩٩ ، روح المعاني ١٣ / ١٧ .

(٢) انظر معاني النحو ٤ / ١٦٧ .

(٣) الفروق اللغوية ٣٣٤ .



نبه محمداً ﷺ وأصحابه ما وعدهم به من النصر وظهور الكلمة ، فهذه عدة للمؤمنين ووعيد للكافرين» ^(١).

وجاء بأداة التراخي (ثم) إشارة «إلى أنهم طال بلاؤهم بهم وصبرهم عليهم ، ثم أحل بهم سطوته وأراهم عظمتهم . ولذا قال مسبباً عن ذلك : (فأنجيناهم) أي الرسول بعظمتنا» ^(٢).

«والإتيان بصيغة المستقبل في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ نَّشَأْ ﴾ احتباك ، والتقدير : فأنجيناهم ومن شئنا وننجي رسولنا ومن نشاء منكم . وهو تأميل لهم أن يؤمنوا لأن من المكذبين يوم نزول هذه الآية من آمنوا فيما بعد إلى يوم فتح مكة .

وهذا من لطف الله بعباده في ترغيبهم في الإيمان . ولذلك لم يقل : (ونهلك المسرفين) بل عاد إلى صيغة الماضي الذي هو حكاية لما حل بالأمم السالفة . . .

والمسرفون : المفرطون في التكذيب بالإصرار والاستمرار عليه حتى حل بهم العذاب» ^(٣).

* * *

﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

الذكر : الشرف والصيت والثناء ، والذكر : الكتاب الذي فيه تفصيل الدين ووضع الملل ، والذكر : الموعظة ، والتذكير : الوعظ ^(٤).

(١) البحر المحيط ٦ / ٢٩٩ .

(٢) نظم الدرر ١٢ / ٣٩٢ .

(٣) التحرير والتنوير ١٧ / ٢١ .

(٤) انظر لسان العرب (ذكر) ، تاج العروس (ذكر) .



والمعنى: لقد أنزلنا إليكم كتابًا فيه شرفكم وصيتكم وفيه موعظتكم وهداكم. فجمع فيه الهدى والموعظة والصيت والشرف والثناء عليهم.

أفلا تعقلون عظمة هذا الكتاب ونفعه لكم؟ وهل هناك عاقل يرفض ما فيه من خير كثير؟! وماذا يريد الإنسان أكثر من ذلك؟! وجاء بـ (لقد) الدالة على القسم ليؤكد هذا الأمر.

جاء في (الكشاف): «(ذكركم) شرفكم وصيتكم، كما قال: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] أو موعظتكم، أو فيه مكارم الأخلاق التي كنتم تطلبون بها الثناء أو حسن الذكر، كحسن الجوار والوفاء بالعهد وصدق الحديث وأداء الأمانة والسخاء وما أشبه ذلك»^(١).

* * *

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَنْوِلُنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوُهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿١٥﴾

* * *

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ ﴿١١﴾

القصم: أفضع الكسر وهو الكسر الذي يبين تلاؤم الأجزاء ويفرقها بالكلية.

والتعبير بالقصم يدل على غضب شديد.

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٢ وانظر البحر المحيط ٦ / ٢٩٩ ، تفسير أبي السعود ٣ / ٦٨٩ ، روح المعاني ١٧ / ١٤ - ١٥ .



و(كم) خبرية وهي تدل على الكثير .

ونسب الظلم إلى القرية والمقصود أهلها لإرادة الشمول والعموم .

جاء في (الكشاف): ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ ﴾ واردة عن غضب شديد ومنادية على سحق عظيم لأن القصم أفضع الكسر ، وهو الكسر الذي يبين تلاؤم الأجزاء ، بخلاف الفصم .

وأراد بالقرية أهلها ، ولذلك وصفها بالظلم .

وقال: ﴿ قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ لأن المعنى: أهلكنا قوما وأنشأنا قوماً آخرين^(١) .

وجاء في (روح المعاني): «وفي لفظ القصم الذي هو عبارة عن الكسر بتفريق الأجزاء وإذهاب التمامها بالكلية ، كما يشعر به الإتيان بالقاف الشديدة من الدلالة على قوة الغضب وشدة السخط ما لا يخفى»^(٢) .

قد تقول: لقد قال في موضع آخر من القرآن الكريم: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ لَكُمُ وَارْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ [الأنعام: ٦] .

فذكر القرية في الأنبياء ، وذكر القرن في الأنعام .

وذكر القصم في الأنبياء ، وذكر الإهلاك في الأنعام .

وقال في الأنبياء: ﴿ وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا ﴾

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٢ .

(٢) روح المعاني ١٧ / ١٥ .



وقال في الأنعام: ﴿وَأَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾

فما دلالة ذلك في كل من الموطنين؟

فنقول:

١ - القرن أهل زمن واحد ، والجيل الواحد ، وقيل : هو مائة سنة ، وقيل : ثمانون ، وقيل غير ذلك^(١).

أما القرية فمعروفة .

والقرن إنما تكون فيه قرى كثيرة . فالقرن الواحد يشمل كثيرًا من القرى ، فقد تكون عشرات القرى في زمن واحد . فالقرى أكثر عددًا من القرن .

ثم إنه وصف القرن بأوصاف تخصصهم قد لا تكون في القرية ، فقد قال فيه: ﴿مَكَثَتْهُمْ فِي الْأَرْضِ مَالَةً تُمَكِّنُ لَكُمْ﴾ . وقد تكون القرية غير ممكنة في الأرض كما وصف .

وذكر أنه أرسل السماء عليهم مدرارًا وجعل الأنهار تجري من تحتهم ، وليست كل القرى كذلك .

٢ - قال في آية الأنبياء: ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ .

وقال في آية الأنعام: ﴿وَأَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾

فقال بعد إهلاك القرى إنه أنشأ قوماً آخرين .

وأما القرن فيليه قرن آخر فناسب ذكر القرن بعد إهلاك القرن قبله .

٣ - قال في آية الأنبياء: ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا﴾ .

(١) انظر لسان العرب (قرن) ، تاج العروس (قرن) ، المصباح المنير (قرن).



وقال آية الأنعام: ﴿وَأَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ .

ذلك أنه بعد إهلاك القرى قد يتأخر الزمن لمجيء قوم بعدهم ، فقد تبقى القرى خالية خاوية من دون أن يأتي بعد هلاكها قوم .

أما القرن فيليه القرن الآخر بلا فاصل ، فجاء بـ (من) التي تفيد الابتداء .

٤ - قوله : (قصمنا) في آية الأنبياء مناسب لقوله : ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ ذلك أن الظلم يستدعي شدة العقوبة .

وقوله : ﴿أَهْلَكْنَا﴾ مناسب لقوله : ﴿يَذُوبُهُمْ﴾ فإن الذنوب قد تكون كبيرة وقد تكون دون ذلك .

فناسب ذكر القصم وهو أفضح الكسر والمنبئ عن السخط الشديد ذكر الظلم .

وناسب ذكر الإهلاك الذي قد لا يبلغ مبلغ القصم قوله : ﴿يَذُوبُهُمْ﴾ .
ثم إن القصم إهلاك خاص فناسب ذكر الظلم ، وهو أخص من عموم الذنب .

وإن الإهلاك عام فناسب ذكر الذنوب وهي عامة .

فناسب كل تعبير موضعه .

وقد تقول : لكنه سبحانه قد يذكر الظلم ولا يذكر القصم وإنما يذكر الإهلاك كما قال تعالى في سورة الحج : ﴿فَكَأَيُّ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَبْنَؤُا مَّعَطَلَةٌ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ .

فنقول : القصم كما ذكرنا ينبئ عن شدة العقوبة وشدة السخط ، ولو نظرنا في سياق كل من الآيتين في الحج والأنبياء لاتضح الفرق .



فإنه قال في آية الحج: ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبُرُّ مَعْطَلَةٌ وَقَصْرٌ مَشِيدٌ﴾ (٤٥).

وقال في سياق آية الأنبياء: ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ (١٧) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُلُونَ﴾ (١٣) قَالُوا يَبُولْنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (١٤) فَمَا زِلْتَ تِلْكَ دَعْوَتُهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ (١٥).

فذكر أنهم أترفوا وأنهم نادوا بالويل وأقروا بالظلم ﴿يَبُولْنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ وأنه سبحانه جعلهم حصيداً خامدين.

فالفرق ظاهر.

فناسب كل تعبير موضعه.

* * *

﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ (١٧)

الركض: ضرب الدابة بالرجل ، يقال: (ركض الدابة) أي ضربها برجله لتسرع.

ومعنى الآية أنهم لما أحسوا العذاب ركضوا دوابهم هاربين من القرية. ويحتمل أنهم جروا على أرجلهم مشبهين من يركض الدابة لسرعة عدوهم.

و(إذا) فجائية ، أي هربوا عند إحساسهم بالعذاب من دون تأخر أو انتظار. جاء في (الكشاف): «والركض: ضرب الدابة بالرجل ، ومنه قوله تعالى: ﴿أَرْكُضْ بِرَجْلِكَ﴾ [ص: ٤٢]. فيجوز أن يركبوا دوابهم يركضونها هاربين منهزمين من قريتهم لما أدركتهم مقدمة العذاب ويجوز أن شبهوا في سرعة عدوهم على أرجلهم بالراكبين الراكضين لدوابهم» (١).



وجاء في (البحر المحيط): «والظاهر أنهم لما أدركتهم مقدمة العذاب ركبوا دوابهم يركضونها هاربين منهزمين. قيل: ويجوز أن شبهوا في سرعة عدوهم على أرجلهم بالراكبين الراكضين لدوابهم، فهم يركضون الأرض بأرجلهم كما قال: ﴿أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾»^(١).

* * *

﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُشْأَلُونَ﴾

من المحتمل أنه قيل لهم ذلك والقول محذوف، أو أن ذلك قول بلسان الحال، أي حري بهم أن يقال لهم ذلك. جاء في (تفسير أبي السعود): «أي قيل لهم بلسان الحال أو بلسان المقال»^(٢).

والهروب من مساكنهم وما هم فيه من ترف ورفاه وسعة عيش فجأة من دون تأخر يدل على شدة ما نزل بهم.

﴿لَعَلَّكُمْ تُشْأَلُونَ﴾ عما نزل بكم وما جرى لأموالكم ومساكنكم وماذا تأمرون وبم تشيرون علينا وماذا نفعل. وهذا تهكم بهم.

جاء في (الكشاف): «فإن قلت: من القائل؟

قلت: يحتمل أن يكون بعض الملائكة أو من ثم من المؤمنين أو يجعلوا خلقاء بأن يقال لهم ذلك وإن لم يقل.

﴿وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ من العيش الرفاه والحال الناعمة، والإتراف: إبطار النعمة وهي الترفة.

﴿لَعَلَّكُمْ تُشْأَلُونَ﴾ تهكم بهم وتوبيخ، أي ارجعوا إلى نعيمكم

(١) البحر المحيط ٦ / ٣٠٠.

(٢) تفسير أبي السعود ٣ / ٦٩٠.



ومساكنكم لعلكم تسألون غدا عما جرى عليكم ونزل بأموالكم ومساكنكم فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة»^(١).

وجاء في (روح المعاني): «لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ» تقصدون للسؤال والتشاور والتدبير في المهمات والنوازل ، أو تسألون عما جرى عليكم ونزل بأموالكم فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة ، أو يسألكم حشمكم وعبيدكم فيقولوا لكم: بم تأمرون وماذا ترسمون وكيف نأتي ونذر كما كنتم من قبل»^(٢).

* * *

﴿قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾^(١٤) فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَتُهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَبِيدِينَ﴾^(١٥)

أي نادوا بالويل وهو الهلاك. وذكروا علة الهلاك وهي الظلم. وأطلقوا الظلم ولم يخصصوه بشيء للدلالة على عموم الظلم وأن ظلمهم كان عامًا لا ينحصر بشيء.

وجاء بالاسم للدلالة على اتصافهم بالظلم على جهة الثبات والدوام وليس على جهة الحدوث ، فاستحقوا ما نزل بهم من العذاب.

﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَتُهُمْ﴾ أي ظلوا يرددون هذا القول ويدعون بالويل حتى جعلهم ربنا كالزراع المحصود ، خامدين كالنار الهامدة.

وقال: ﴿حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ﴾ ولم يقل: (حتى صاروا) أو (حتى أصبحوا) أي إن ذلك من فعل ربنا بهم عقوبة لهم.

جاء في (الكشاف): «(تلك) إشارة إلى (يا ويلنا) لأنها دعوى.

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٢.

(٢) روح المعاني ١٧ / ١٦.



كأنه قيل : فما زالت تلك الدعوى دعواهم .

والدعوى بمعنى الدعوة ، قال تعالى : ﴿ دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ وَتَجِئْتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ [يونس : ١٠] ﴿ وَآخِرُ دَعْوَانَهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

فإن قلت : لم سميت (دعوى)؟

قلت : لأن المولود كأنه يدعو الويل فيقول : تعال يا ويل فهذا وقتك . . . (حصيداً) الحصيد : الزرع المحصود ، أي جعلناهم مثل الحصيد ، شبههم به في استئصالهم واصطلامهم^(١) .

و«(خامدين) أي موتى دون أرواح مشبهين بالنار إذا طفئت»^(٢) .

وقوله : ﴿ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَانَهُمْ ﴾ «أي فما زالوا يرددون تلك الكلمة»^(٣) .



﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ ﴾ (١٦) ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ آلًا تَتَّخِذُهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَعَلِينَ ﴾ (١٧)

لما أثبت للناس اللهو واللعب في أول السورة وذمهم بذلك في قوله تعالى : ﴿ مَا يَأْنِيهِمْ مِّنْ ذِكْرِ مِّنْ رَبِّهِمْ تُحَدِّثُ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ (٢) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴿ نفى عن نفسه ذلك في هاتين الآيتين ، بل نفى عنه ذلك منذ أول الخلق إلى الأبد ، فإنه لم يفعل شيئاً ولا يفعل شيئاً إلا عن حكمة ، وقد أظهرت شيئاً من ذلك آيات السورة من أولها إلى آخرها .

(١) الكشف ٢ / ٣٢٢ .

(٢) البحر المحيط ٦ / ٣٠١ .

(٣) تفسير أبي السعود ٣ / ٦٩٠ .

فقد قال ههنا: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ﴾ وهذا أول الخلق.

وقال في خواتيم السورة: ﴿وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ [الأنبياء: ٩٧] ، وقال: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ﴾ (١٠٤).

وكما قال ذلك في مواضع عدة من القرآن الكريم من نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥].

وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا﴾ [ص: ٢٧].

وقال بعد الآية: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

جاء في (نظم الدرر): «ولما ذمهم باللعب وبين أنه يفعل في إهلاك الظلم وإنجاء العدل فعل الجادّ بإحقاق الحق بالانتقام لأهله وإزهاق الباطل باجتثائه من أصله . . . عطف عليه قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا﴾ أي بعظمتنا التي تقتضي الجد ولا بد . . .

ولما نفى عنه اللعب أتبعه دليله فقال: ﴿لَوْ أَرَدْنَا . . .﴾» (١).

وجاء في (الكشاف): «أي وما سويها هذا السقف المرفوع وهذا المهاد الموضوع وما بينهما من أصناف الخلائق . . . للهو واللعب ، وإنما سويناها للفوائد الدينية والحكم الربانية ، لتكون مطارح افتكار واعتبار واستدلال ونظر لعبادنا مع ما يتعلق لهم بها من المنافع التي لا تعد . . .

ثم بين أن السبب في ترك اتخاذ اللهو واللعب وانتفائه عن أفعالي هو



أن الحكمة صارفة عنه وإلا فأنا قادر على اتخاذها إن كنت فاعلاً» (١).

وقال: (خلقنا) بإسناد الخلق إلى ضمير العظمة ، ولم يرد (خلقت) في نحو هذا التعبير في القرآن العظيم .

قد تقول: لقد قال ههنا: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنِ﴾

وقال في سورة الدخان: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنِ﴾ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ .

وفي التعبيرين تشابه واختلاف .

من ذلك إفراد السماء في آية الأنبياء وجمعها في الدخان ، وذكر اللهو في سياق الأنبياء في قوله: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا﴾ ولم يذكر ذلك في الدخان . وغير ذلك من الاختلاف . ولكل من ذلك سببه المناسب .

١ - فقد نفى عن نفسه سبحانه اللعب واللهو في آيتي الأنبياء ، فقد قال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنِ﴾ فنفى عنه اللعب .

ثم قال: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَأَتَّخِذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا﴾ فنفى عنه اللهو ، وذلك أنه أثبت في أول السورة للناس اللعب واللهو فقال: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ تُحَدِّثُ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ (٢) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴿٣﴾ .

وأما في الدخان فقد أثبت لهم اللعب فقال: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ (٤) .

فنفى عنه سبحانه اللعب .

٢ - أثبت في الدخان لهم الشك فقال: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ (٥) ونقيض الشك العلم فنفى عنهم العلم فقال: ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ . ذلك أن الشاك ليس عنده علم يفضي إلى اليقين فنفى عنهم ذاك .

٣ - أفرد السماء في سورة الأنبياء فقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ﴾ وذلك مناسب لما ورد في أول السورة ، فقد قال سبحانه: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

وجمعها في سورة الدخان فقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ﴾ وهو مناسب لما ورد في أول السورة ، فقد قال: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُتُمْ مُوقِنِينَ﴾ [الدخان : ٧].

فناسبت كل آية مفتتح سورتها .

٤ - إن الكلام في سورة الأنبياء مبني على العموم ، فقد قال: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾.

فذكر الناس على العموم .

وقال: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ والسماء أعم من السماوات .

ذكر الأمم على العموم فقال: ﴿مَاءَ أَمْنَتَ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾.

فجاء ب (من) الاستغرافية .

وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾ فذكر الرسل قبله .

وقال: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ فجاء ب (كم) الخبرية الدالة على التكثير .

أما في الدخان فقد ذكر ذلك على سبيل الخصوص .

فقد ذكر قوم فرعون فقال: ﴿وَلَقَدْ قَتَلْنَا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾.

ثم ذكر كفار قريش فقال: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءَ لَيَقُولُونَ﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ.



وذكر قوم تبع والذين من قبلهم فقال: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ (٣٧).

فذكر القرى على العموم في الأنبياء.

وذكر قوماً مخصوصين في الدخان.

فناسب العموم العموم وهو (السماء).

وناسب الخصوص الخصوص وهو (السموات).

فإن السماء قد تأتي أعم من السماوات كما ذكرنا في أكثر من مناسبة.

٥ - ذكر الأنبياء في سورة الأنبياء على العموم.

ثم ذكر من أسمائهم ما هو أعم وأكثر مما هو في سورة الدخان. فقد قال في سورة الأنبياء: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (٢٥).

وقال: ﴿هَذَا ذِكْرٌ مِّنْ مَّعَىٰ وَذِكْرٌ مِّنْ قَبْلِي﴾ (٢٤).

وهذا يعم جميع الأنبياء بلا استثناء.

وذكر من الأنبياء موسى وهرون فقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَآءَ﴾ (٤٨).

وذكر إبراهيم فقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ (٥١).

ولوطاً فقال: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ (٧١).

﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ (٧٢).

وإسحاق ويعقوب (٧٢)، ونوحاً (٧٦)، وداود وسليمان (٧٨)،

وأيوب (٨٣)، وإسماعيل وإدريس وذا الكفل (٨٥)، وذا النون (٨٧)،

وزكريا (٨٩)، ويحيى (٩٠).



في حين لم يذكر في الدخان اسم رسول وإنما ذكر قوم فرعون بشيء من التفصيل ، وأشار إلى قوم تبع والذين من قبلهم .
فلما كان الكلام في الأنبياء على العموم ذكر السماء التي تفيد العموم .
فناسب العموم العموم من كل وجه .

* * *

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ ﴾ (١٨)
لما نفى سبحانه عن نفسه اللهو واللعب أضرب عن اتخاذهما فأخبر أنه يقذف بالحق على الباطل .

وأصل القذف : الرمي الشديد بجسم صلب كالحجارة والحصى ونحو ذلك . جاء في (روح المعاني) : «وأصل القذف الرمي البعيد كما قال الراغب وهو مستلزم لصلابة الرمي» (١) .

فكان الحق جرم صلب شديد والباطل جسم رخو وقد قذف به على الباطل فحطمه .

وجاء بـ (إذا) الفجائية للدلالة على سرعة زهوقه واضمحلاله .
وقال : ﴿ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ بالاسم ولم يقل : (فإذا هو يزهد) للدلالة على الثبات وللدلالة على سرعة زهوقه ، فكان الأمر حاصل وثابت ، ولم يدع له فرصة لبقائه ومكثه .

وقد ذكر ربنا في السورة أمثلة لما قذف به من الحق على الباطل ، فقد ذكر في أكثر من موطن أنه أهلك الظالمين والمسرفين ومن استحق العقوبة فقذف الحق على الباطل فدمغه .

(١) روح المعاني ١٧ / ٢٠ وانظر مفردات الراغب (قذف) .



قال تعالى: ﴿ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٦)

فذكر أنه أهلك القرى بسبب عدم إيمانها .

وقال: ﴿ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴾ (٩) .

وقال: ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً ﴾ (١١)

وقال: ﴿ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴾ (١٥)

وذكر قذف الحق على الباطل بالحجة والبرهان فقال: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (٢٢)

وقال: ﴿ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ (٢٤)

فناسب ذلك قوله: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ .

جاء في (الكشاف): «(بل) إضراب عن اتخاذ اللهو واللعب وتنزيه منه لذاته . . . بل من عادتنا وموجب حكمتنا واستغنائنا عن القبيح أن نغلب اللعب بالجد وندحض الباطل بالحق .

واستعار لذلك القذف والدمغ تصويرًا لإبطاله وإهداره ومحقه ، فجعله كأنه جرم صلب كالصخرة مثلا قذف به على جرم رخو أجوف فدمغه» (١) .

وجاء في (تفسير أبي السعود): «وقد استعير لإيراد الحق على الباطل القذف الذي هو الرمي الشديد بالجرم الصلب كالصخرة ، ولمحقه للباطل الدمغ الذي هو كسر الشيء الرخو الأجوف وهو الدماغ بحيث يشق غشائه المؤدي إلى زهوق الروح تصويرًا له بذلك . . .



وفي (إذا) الفجائية والجملة الاسمية من الدلالة على كمال المسارعة في الذهاب والبطلان ما لا يخفى فكأنه زاهق من الأصل»^(١).

﴿وَلَكُمْ أَوْلَىٰ مِمَّا نَصِفُونَ﴾

هو تهديد ووعيد بالهلاك لأهل الكفر بسبب ما يصفونه به سبحانه من أمور لا تجوز ولا تليق بشأنه.

و(من) في (مما) تعليلية.

و(ما) في (ما تصفون) تحتل الموصولة ، أي بالذي يصفونه به سبحانه ، وتحتل المصدرية ، أي بوصفهم له سبحانه بما لا يليق .

جاء في (روح المعاني): «﴿مِمَّا نَصِفُونَ﴾ : و(ما) إما مصدرية أو موصولة أو موصوفة ، أي ومستقر لكم الويل والهلاك من أجل وصفكم له تعالى بما لا يليق بشأنه الجليل تعالى شأنه ، أو بالذي تصفونه ، أو بشيء تصفونه به من الولد ونحوه»^(٢).

* * *

﴿وَلَهُمْ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾^(١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ^(٢٠)

ذكر قبل هذه الآية أنه خلق السماء والأرض وما بينهما فذلك يعني أنها ملكه ، وذلك قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ﴾

وذكر في هذه الآية أن له من فيهما وذلك قوله: ﴿وَلَهُمْ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

(١) تفسير أبي السعود ٣ / ٦٩٢ .

(٢) روح المعاني ١٧ / ٢٠ وانظر تفسير أبي السعود ٣ / ٦٩٢ .



فالسماوات والأرض وما بينهما ومن فيهما ملكه .

وذكر في أوائل السورة أنه يعلم القول فيهما ما أسروه وما جهروا به فقال : ﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

وذكر أن من عنده من الملائكة يعبدونه لا يكلون ولا يملّون ، وأنهم يسبحون الليل والنهار لا يقطعون عن التسبيح .

جاء في (الكشاف) : «أي تسبيحهم متصل دائم في جميع أوقاتهم لا يتخلله فترة بفرغ أو شغل آخر» ^(١) .

قد تقول : لقد قال هنا : ﴿ وَلَهُمْ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَغِيرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ ^(١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ ^(٢٠) .

وقال في سورة فصلت : ﴿ وَمَنْ أَيْتِيهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا يَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِتَاءَهُ تَعْبُدُونَ ﴾ ^(٣٧) فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿٣٨﴾ .

وقال في سورة الأعراف : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَغِيرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ ^(٢٠) .

فقال في الأنبياء : ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَغِيرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴾ .

وقال في فصلت : ﴿ فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ ﴾ .

وقال في الأعراف : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَغِيرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴾ .

فقال في الأنبياء : ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ ﴾ بذكر (من) .

وقال في فصلت والأعراف (الذين عند ربك) بذكر (الذين) .



وفي تعبير آخر:

قال في الأنبياء: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾.

وقال في فصلت: ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾.

وقال في الأعراف: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُ﴾.

فأطلق التسييح في الأنبياء ، وقيده بحرف الجر في فصلت ، وقيده بالمفعول به في الأعراف.

فما سر هذا الاختلاف؟

والجواب أن كل تعبير مناسب لسياقه وما أريد له من معان.

وذلك أن آية الأنبياء أعم من الموضعين الآخرين من جهات عدة منها:

١ - أنه قال في آية الأنبياء: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ﴾

وقال في فصلت: ﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾

وقال في الأعراف: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾

و(من) أعم من (الذين) لأنه اسم موصول مشترك ، و(الذين) مختص. ف(من) يطلق على الواحد والمثنى والجمع ، المذكر والمؤنث ، بخلاف (الذين) فإنه خاص بجماعة الذكور.

هذا إضافة إلى أنه مناسب لما تقدم في الآية من قوله: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ، فناسب عموم من في السماوات والأرض عموم من عنده ، وناسب ذكر (من) في الموضعين.

أما في فصلت فقد خاطب الناس أو جماعة منهم بقوله: ﴿لَا تَسْجُدُوا



لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ .

ولا شك أن قوله: ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أعم من هؤلاء . فجاء بالاسم الموصول المختص مناسبة للخصوص .

وكذلك ما ورد في الأعراف ، فإن قبل الآية قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ .

ولا شك أن ما ورد في الأنبياء أعم بكثير من المخاطبين في الأعراف . فجاء بالاسم الموصول المختص في الأعراف مناسبة للخصوص . وهذا من لطيف المناسبات .

٢ - وقال في الأنبياء: ﴿يُسَبِّحُونَ﴾

وقال في فصلت: ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ﴾

وقال في الأعراف: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُ﴾

و(يسبحون) أعم من (يسبحون له) و(يسبحونه) ؛ لأنه غير مقيد ، فهو يشملهما ويشمل غيرهما من أنواع التسبيح من نحو: (سبح اسمه) و(سبح باسمه) و(سبح بحمده) وغير ذلك من أنواع التسبيح .

٣ - قال في الأنبياء: ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ أي لا يكلّون ولا يتعبون ، فدل ذلك على دوام العبادة وعدم انقطاعها .

ولم يقل مثل ذلك في الموضعين الآخرين .

ولا شك أن ما في آية الأنبياء أعم وأدوم .

٤ - قال في الأنبياء: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي على الدوام لا ينقطعون .

وقال في فصلت: ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي في هذين الوقتين .
فما في الأنبياء أدوم .

ولم يذكر في الأعراف وقتاً للتسبيح ولا للسجود وإنما ذكر الحدث
فقال: ﴿يُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ .

وهذا لا يدل على الدوام والاستمرار . فإنك إذا قلت : (أحمد يصلي)
أو يقرأ القرآن فإن ذلك لا يدل على الاستمرار فيهما وأنه لا يقطع ذلك في
وقت من الأوقات .

أما في الأنبياء فتنصيص على الدوام وعدم الانقطاع . فهو أعم .

٥ - قال في الأنبياء: ﴿لَا يَفْتُرُونَ﴾ فلا تحصل فترة منهم .

أي لا يسكنون .

ولم يقل مثل ذلك في الموضعين الآخرين ، فدل على دوام التسبيح .
وكل تعبير مناسب للسياق الذي ورد فيه .

فإن التخصيص في فصلت مناسب لما تقدمه وهو قوله: ﴿لَا تَسْجُدُوا
لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ
تَعْبُدُونَ﴾ .

فهو طلب أمر مخصص وهو السجود لله .

وكذلك التخصيص في الأعراف فإنه مناسب لما تقدمه وهو قوله:
﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٢٠٣) وأذكر ربك في
نفسك تضرعاً وخيفةً ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من
الغافلين (٢٠٤) .

فهو طلب أمر مخصص وهو الاستماع للقرآن عند قراءته ، وطلب
الذكر من الرسول على الخصوص . ولا شك أن هذا أخص بكثير من عبادة



الملائكة المطلقة المستمرة وتسبيحهم الذي لا يفتر ولا ينقطع .

وأما آية الأنبياء فلم يتقدمها شيء من ذلك ، وإنما تقدمها قوله سبحانه : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ (١٨) .

والحق عام والباطل عام .

فناسب العموم في آية الأنبياء ما تقدمها .

وناسب كل تعبير السياق الذي ورد فيه .

* * *

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا إِلَهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ﴾ (٢١)

أنكر عليهم في هذه الآية اتخاذ آلهة من الأرض ، ثم أنكر عليهم اتخاذ آلهة من دون الله على العموم في آية بعدها فقال : ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ إِلَهَةً ﴾ (٢٤) .

فأنكر اتخاذ الآلهة على العموم من الأرض أو من غيرها .

فهو إنكار على متخذي الآلهة من دون الله سواء اتخذوها من الأرض أم من غيرها .

وذكر الآلهة في الأرض لأن كفار قريش وهم الذين أنزل عليهم القرآن كانوا يعبدون الأصنام وهي حجارة .

وقد تقول : ولماذا لم يقل : (أم اتخذوا من دون الله آلهة من الأرض) فيقول : (من دون الله) كما قال في آيات أخرى من نحو قوله تعالى : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴾ [مريم : ٨١] .

وقوله : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ إِلَهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [الفرقان : ٣] وكما قال في آية بعدها : ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ إِلَهَةً ﴾ ؟



فنقول: لما قال: ﴿ءَالِهَةٌ مِّنَ الْأَرْضِ﴾ دل ذلك على أنها من دون الله .

ثم إن قوله: ﴿ءَالِهَةٌ مِّنَ الْأَرْضِ﴾ مناسب لما ورد في السورة من إهلاك القرى الظالمة على الأرض وأهلها من نحو قوله تعالى: ﴿مَاءَ أَمْنَتَ قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ وقوله: ﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ ، وقوله: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ فماذا فعلت الآلهة وإله السماء يدمر قرى الأرض وساكنيها من الظالمين الذين يعبدون هذه الآلهة؟!

ومناسب لما ورد في السورة من اتخاذ قوم إبراهيم آلهة من الأرض فحطمها إبراهيم وجعلها جذاذاً ، فماذا فعلت هذه الآلهة المضحكة؟!

ومناسب لما ورد في السورة من قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ .

فماذا تفعل هذه الآلهة في الأرض وإله السماء ينقص ما هم عليه حتى أتى عليهم كلهم وما هم عليه؟!

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه ذكر في الآية شيئاً واحداً لهذه الآلهة وهو قوله: ﴿هُمْ يُنْشِرُونَ﴾ ، فلما كان الأمر جزئياً ذكر جزءاً من الآلهة وهو الآلهة من الأرض .

في حين قال في آية بعدها: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ .

فلم يقل: (من الأرض) بل ذكر اتخاذ الآلهة على العموم ، وذلك أن ما ذكره في الآية الثانية أمر عام غير مقيد بشيء .

فناسب العموم العموم ، وناسب الخصوص الخصوص .

وقوله: ﴿هُمْ يُنْشِرُونَ﴾ أي يبعثون الموتى من قبورهم .

وذكر الإنشار مناسب لقوله في أول السورة: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ



حِسَابُهُمْ ﴿٣٥﴾ ، ومناسب لقوله سبحانه في السورة: ﴿وَالْيَنَّا تُرْجَعُونَ﴾ ﴿٣٥﴾ ، وقوله: ﴿كُلُّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ ﴿١٦﴾ ، ولما ذكره في آخر السورة من الرجوع إلى الله والحساب والجزاء .

وهو تهكم بهم فإنهم لا يؤمنون بالحشر مع أنهم يؤمنون بالله كما ذكر الله عنهم في أكثر من موضع من نحو قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ [البجائية: ٣٢] ، وآيات أخرى .

جاء في الكشف: «هذه أم المنقطعة الكائنة بمعنى: بل والهمزة ، قد أذنت بالإضراب عما قبلها والإنكار لما بعدها . . .

فإن قلت: كيف أنكر عليهم اتخاذ آلهة تنشر وما كانوا يدعون ذلك لآلهتهم؟ وكيف وهم أبعد شيء عن هذه الدعوى ، وذلك أنهم كانوا - مع إقرارهم لله عز وجل بأنه خالق السماوات والأرض ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] ، وبأنه القادر على المقدورات كلها وعلى النشأة الأولى - منكرين البعث ، ويقولون: من يحيي العظام وهي رميم؟ . . .

قلت: الأمر كما ذكرت ، ولكنهم بادعائهم لها الإلهية يلزمهم أن يدعوا لها الإنشار ؛ لأنه لا يستحق هذا الاسم إلا القادر على كل مقدور ، والإنشار من جملة المقدورات .

وفيه باب من التهكم بهم والتوبيخ والتجهيل . . . ومعنى نسبتها إلى الأرض: الإيذان بأنها الأصنام التي تعبد في الأرض» ^(١) .

* * *



﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهُةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (٢٦)

أي لو كان في السماوات والأرض آلهة غير الله لفسدتا. و(إلا) هنا وصفية بمعنى غير.

قد تقول: لقد قال في هذه الآية: ﴿فَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ فذكر (رب العرش).

وقال في موطن آخر: ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠].

وفي موضع آخر يقول: ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١] ، الصافات: ١٥٩].

وفي موضع آخر يقول: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠].

وقال في موضع آخر: ﴿سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الزخرف: ٨٢].

فما السر في ذلك؟

فنقول: إن كل تعبير مناسب للموضع الذي ورد فيه.

أما قوله في آية الأنبياء: ﴿فَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَرْشِ﴾ فإنه ذكر رب العرش لما تقدم من ذكر الذين عنده أنهم يسبحون الليل والنهار وهم الملائكة فناسب ذكر العرش.

وأما قوله: ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ فإنه يقول ذلك إذا ذكر أمراً واحداً كأن يذكر قول المشركين باتخاذ الولد ، فإذا ذكر معه الشرك أضاف إلى ذلك قوله (تعالى) ، فيضيف تنزيهاً آخر إلى ما ذكر.

فالشئ الواحد يذكر له تنزيهاً ، فإذا زاد عليه ذكر تنزيهاً آخر.



هذا إضافة إلى ذكر صفات أخرى تناسب المقام.

وإيضاح ذلك:

أنه سبحانه قال في سورة الصافات: ﴿فَاسْتَفْتِهِمَ الرِّبَّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ
الْبُسُوتُ ۚ... أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ
لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾... وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَابًا وَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٣﴾
سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٥٤﴾.﴾

فقال: ﴿سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ لما ذكر شيئاً واحداً وهو اتخاذ الولد.

وقال في الأنعام: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ
عِلْمٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٠٠﴾.﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَفَنَّى يَكُونُ لَهُ
وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾.﴾

فقال: ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى﴾ لما ذكر أمرين:

الشرك وذلك قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾.

واتخاذ الولد وذلك قوله: ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ... أَفَنَّى يَكُونُ لَهُ
وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾.

وقال في المؤمنون: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ
كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾.﴾

فقال: ﴿سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾.

وقال بعدها: ﴿فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وذلك أنه ذكر أمرين:

اتخاذ الولد وهو قوله: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ﴾.



ونفي الشرك وهو قوله: ﴿وَمَا كَانَتْ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ .

وأما قوله في الصفات: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ فهو مناسب للسياق الذي وردت فيه الآية وذلك قوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٧٦) **إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ** (١٧٧) **وَأَنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ** (١٧٨) **فَنُوحٍ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ** (١٧٩) **وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ** (١٨٠) **أَفِعْدَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ** (١٨١) **فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحِنِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ** (١٨٢) **وَنُوحٍ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ** (١٨٣) **وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ** (١٨٤) **سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ** (١٨٥) **وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ** (١٨٦) .

فالسباق - كما هو ظاهر - في نصر المؤمنين وإنزال العذاب بالكافرين وذلك من مقتضيات العزة.

فإن العزيز هو الذي ينصر ويغلب فناسب ذلك أن يقول: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ .

وقال: (سبحان ربك) بإضافة الرب إليه ؛ لأنه المتفضل عليه وهاديه وهو الذي أرسله برسالته وقد وعده بالنصر وذلك قوله: ﴿فَنُوحٍ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٩) **وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ** (١٨٠) . . .

فناسب أن يقول: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ (١٨٦)

وأما قوله في الزخرف: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ فهو مناسب لما ورد في سياقه .

فقد قال في الزخرف: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ (٨١) **سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ** (٨٢) **فَذَرَهُمْ يَخْضِبُونَ وَيُلْبَسُونَ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ** (٨٣) **وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ** (٨٤) **وَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** (٨٥)

فذكر اتخاذ الولد وهو قوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ .



ثم قال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ ﴾ فذكر أنه الإله فيهما .
ثم قال : ﴿ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا . . . ﴾ فذكر أن
له ملكهما .

وقدم الجار والمجرور (له) للحصر ، فإنه له وحده ملك السماوات
والأرض حصراً لا يشاركه في ذلك أحد .

وقال في الآية : ﴿ سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ فذكر أنه ربهما . فجمع
السياق الدلالة على الربوبية والألوهية والملك فناسب أن يذكر أنه رب
العرش فإن العرش للملك .

إضافة إلى ما ذكر بعد ذلك من صفات الكمال .



﴿ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾

لما ذكر سبحانه أنه خلق السماء والأرض وما بينهما ، وذكر أن له من
في السماوات والأرض ، وأن له القوة والعزة فأهلك القرى الظالمة
وبطش بها ، وأنه يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فلا تكون أفعاله إلا
حقاً ولا تصدر إلا عن حكمة ، وأنه الإله في السماوات والأرض لا
شريك له علم أنه لا يسأل عما يفعل وإنما هو الذي يسأل غيره ، فكل من
عداه عبد له مملوك وكلهم مسؤولون أمامه . فلا يسأل لأنه الإله وأنه
الخالق وأنه الملك وأنه المالك وأنه القوي العزيز وأن أفعاله كلها لا تصدر
إلا عن حكمة ، وإن كل واحدة من هذه الصفات لا يسأل من اتصف بها
عما يفعل فكيف إذا اجتمعت؟! !

ثم إن هذه الآية مناسبة لما افتتحت به السورة وهو قوله : ﴿ أَقْتَرَبَ



لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ فالناس مسؤولون أمامه وقد اقترب حسابهم .

ومناسبة للآية قبلها وهي قوله : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهِةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾

فهو الإله في السماوات والأرض لا شريك له ، والإله لا يسأل عما يفعل .

وهو (رب العرش) ، ورب العرش لا يسأل ؛ لأن رب العرش هو الملك ، والملك لا يُسأل عما يفعل وإنما هو الذي يسأل غيره . وقوله : (سبحان الله) يعني أنه المنزه في أفعاله وصفاته ، والمنزه لا يسأل عما يفعل لأنه الكامل في ذلك .

جاء في (البحر المحيط) : «ثم وصف نفسه بكمال القدرة ونهاية الحكم فقال : ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ ، إذ له أن يفعل في ملكه ما يشاء ، وفعله على أقصى درجات الحكمة فلا اعتراض عليه ولا تعقب عليه . ولما كانت عادة الملوك أنهم لا يسألون عما يصدر من أفعالهم مع إمكان الخطأ فيها كان ملك الملوك أحق بالأسأل» (١) .

* * *

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلَهِةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ ﴿٢٥﴾

أنكر عليهم قبل هذه الآية اتخاذ آلهة من الأرض ، وأنكر في هذه الآية اتخاذ الآلهة من دون الله على العموم . وقد أقام البرهان على فساد القول



باتخاذ الآلهة فقال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهِةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾.

وطلب منهم أن يأتوا ببرهان على صحة قولهم باتخاذ الآلهة فقال لهم: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ سواء كان من جهة العقل أم النقل.

أما هو سبحانه فقد ذكر الحجة العقلية وهي قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهِةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ ، ثم تحداهم بالبرهان النقلي وهو الكتب المنزلة على الرسل سواء ما أنزل عليه أو ما أنزل على من قبله فقال لهم: ﴿هَذَا ذِكْرٌ مِّن مَّعِيَ﴾ وهو ما أنزل إليه ، و﴿وَذِكْرٌ مِّن قَبْلِي﴾ وهو ما أنزل إلى من قبله من الأنبياء فإنها كلها تدعو إلى توحيد الله والنهي عن الشرك.

ثم أضرب فبين أن أكثرهم لا يعلمون الحق ولذلك هم معرضون عنه .

ثم ذكر في الآية التي تلي هذه الآية ماذا في ذكر من قبله وماذا أوحى إلى رسله فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (٢٥).

جاء في (الكشاف): «كرر ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلَهِةً﴾ استفظاعاً لشأنهم واستعظاماً لكفرهم ، أي وصفتهم الله تعالى بأن له شريكاً فهاتوا برهانكم على ذلك: إما من جهة العقل ، وإما من جهة الوحي ، فإنكم لا تجدون كتاباً من كتب الأولين إلا وتوحيد الله وتنزيهه عن الأنداد مدعو إليه ، والإشراك به منهى عنه متوعد عليه . أي (هذا) الوحي الوارد في معنى توحيد الله ونفي الشركاء عنه كما ورد عليّ فقد ورد على جميع الأنبياء .

فهو ذكر ، أي عظة للذين معي ، يعني أمته ، وذكر للذين من قبلي ، يريد أُمم الأنبياء عليهم السلام» (١).

* * *



﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾

هذه الآية وقعت في سياق ما قبلها من أي التوحيد وإبطال الشرك من مثل قوله سبحانه: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِنْ الْأَرْضِ هُمْ يُشْرُونَ﴾.

وقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَ اللَّهِ لَفَسَدَتَا﴾.

وقوله: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾.

ثم قال: ﴿هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي﴾ فذكر في هذه الآية ، أعني ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ...﴾ ماذا أوحى إليه في ذكر من قبله .

فذكر أن كل رسول أرسله ربنا سبحانه أوحى إليه ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾.

فبين أنه أوحى إليه بالتوحيد والأمر بعبادته سبحانه .

وقال: ﴿مِنْ رَسُولٍ﴾ فجاء بـ (من) الدالة على الاستغراق ، فدل ذلك على أن كل رسول أوحى إليه هذا الأمر بلا استثناء ، فلم يستثن رسولا من ذلك .

وقال: ﴿إِلَّا نُوحِيَ﴾ بالمضارع ، ولم يقل: (أوحينا) لحكاية الحال وذلك يدل على الاهتمام بما أوحى إليه .

جاء في (تفسير أبي السعود): «وأيّ ما كان فصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية استحضاراً لصورة الوحي»^(١).

بل إن التعبير في الآية كله دل على الاهتمام والتوكيد .

فالحصر في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ﴾ يفيد



التوكيد ، وهو أكد من نحو قولنا : (وأوحينا إلى الرسل قبلك أنه لا إله إلا أنا).

والنفي بـ (ما) في (ما أرسلنا) يفيد التوكيد ؛ لأن (ما) تكون جواباً للقسم ، وهي أكد من (لم).

وقال : (من قبلك) فجاء بـ (من) ، وهو أكد مما لو قال : (وما أرسلنا قبلك) ، فـ (من) تفيد الابتداء فاستغرقت كل من كان قبله .

وقد مر شيء من ذلك فيما ذكرنا .

وقال : (من رسول) فأدخل (من) الاستغرافية المؤكدة على المجرور فاستغرق ذلك جميع الرسل مع التوكيد كما ذكرنا قبل قليل .

وقال : (نوحى) بالمضارع لحكاية الحال وذلك يدل على الاهتمام كما ذكرنا .

وقال : (أرسلنا) و(نوحى) بالإسناد إلى ضمير التعظيم .

ووردت قراءتان متواترتان في (نوحى) هما (نوحى) و(يوحى) بالبناء للمجهول^(١) فجمعت معنيين وصيغتين .

وقال : (أنه) بإدخال (أن) على ضمير الشأن الدال على التعظيم والاهتمام ، ولم يقل : (أن لا إله إلا أنا) بحذف ضمير الشأن . ومن المعلوم أن الذكر أكد من الحذف .

إنه لم يقل كما قال في غير هذا الموطن (أن لا إله إلا هو) وذلك نحو قوله تعالى في سورة هود : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١٢) فَإِلَهُمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴾ (١٤) .

(١) انظر البحر المحيط ٢ / ٣٠٦ وروح المعاني ١٧ / ٣٢ .



فقال: ﴿وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ ولم يقل: (وأنه) كما قال في آية الأنبياء .
وكما قال في سورة الأنبياء في موضع آخر: ﴿وَذَا التُّونِ إِذْ ذَهَبَ
مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ
إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٧) .

وذلك أن آية هود في سياق الدلالة على أن القرآن ليس مفترى وإنما
هو من عند الله . في حين أن السياق في آية الأنبياء إنما هو في سياق
التوحيد ونفي الشرك .

فلما كان السياق في التوحيد أكد وعظم بذكر ضمير الشأن .

كما أن آية الأنبياء الأخرى ليست في سياق التوحيد ، وإنما هي في
سياق التسبيح والدعاء والإقرار بما فعل من خلاف الأولى فقال: ﴿أَنْ لَا
إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾ ولم يقل (أنه) .

وكل تعبير مناسب في سياقه الذي ورد فيه .

وقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ كله مؤكد .

وقوله: (فاعبدون) أمر بعبادة الله وهي الغاية التي خلق لها الثقلان كما
قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] .

﴿فَاعْبُدُونِ﴾ :

إن قوله: (فاعبدون) أمر للجمع مع أن الموحى إليه واحد ، فلم يقل:
(إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدني) ذلك أن الأمر له ولمن أرسل
إليهم على الأظهر . جاء في (البحر المحيط) في قوله: (فاعبدون):
«ويحتمل أن يكون الأمر له ولأمته»^(١) .

(١) البحر المحيط ٦ / ٣٠٦ وانظر روح المعاني ١٧ / ٣٢ .



قد تقول: لقد قال في سورة النحل: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ (٢١).

فأمر في هذه الآية بالتقوى فقال: ﴿فَاتَّقُونِ﴾.

وأمر في آية الأنبياء بالعبادة فقال: ﴿فَاعْبُدُونِ﴾.

فما سر الاختلاف في ذلك؟

فنقول: إنه قال في آية النحل (أن أنذروا) ، والإنذار يقتضي اتقاء ما أنذروا به . فالنذير يخوفهم من أمر عليهم أن يتقوه ، فناسب ذلك قوله: (فاتقون).

وأما آية الأنبياء فإنها في توحيد الله وعبادته ، وهي في سياق إفراده بالعبادة والتوحيد وذلك نحو قوله سبحانه: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾.

وقوله: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِنَ الْأَرْضِ﴾ ، وقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ ، وقوله: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾.

وقال في موضع آخر من السورة: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (١٧) ، وتكرر ذكر العبادة في السورة.

وناسبت آية النحل - إضافة إلى ما ورد فيها من ذكر الإنذار - ختام ما ورد في السورة وهو قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ (١٢٨).

كما تكرر ذكر الاتقاء في أكثر من موضع في السورة وذلك نحو قوله: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ نَتَّقُونُ﴾ (٥٢) ، وقوله: ﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ (٢١) وغيرها.

فناسب كل تعبير ما ورد فيه من أكثر من جهة.

وقد تقول: لقد قال في سورة الإسراء: ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ (٧٧).



فقال : (قبلك) ولم يقل : (من قبلك) كما قال في آية الأنبياء فما سبب ذلك ؟

والجواب أنه قال قبل آية الإسراء : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٧٦) ، ثم قال : ﴿ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ (٧٧) .

والعقوبة التي ذكرها في قوله : ﴿ لَا يَلْبَثُونَ خِلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ إنما حصلت قبل الرسول بزمان طويل ، فإنها لم تحصل لقوم عيسى ، وإنما حصلت لفرعون ومن معه حين اتبع موسى بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم ، وحصلت للأقوام القديمة كعاد وئمود وغيرهم من الأقوام في الأزمان السحيقة .

إن هذا الأمر لم يحصل ابتداء من زمن الرسالة قبل بعثة الرسول ، وإنما حصل قبل ذلك بما لا يعلمه إلا الله ، فلم يقل : (من قبلك) بـ (من) التي تفيد ابتداء الغاية ، وإنما قال : (قبلك) وهو ما يدل على عموم الزمن قبله فقد يكون ذلك قريباً أو بعيداً .

فناسب كل تعبير سياقه الذي ورد فيه والله أعلم .

* * *

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴾ (٢٦) لَا يَسْخِفُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِنَ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ (٢٨) وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ (٢٩)

نزه سبحانه نفسه عن اتخاذ الولد ، ذلك أن من الكفار من قال : (ولد الله) كما ذكر ذلك عنهم في سورة الصافات فقال : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ

لَيَقُولُونَ ﴿١٥٦﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٧﴾ .

ومنهم من قال: إن الملائكة بنات الله ، فرد عليهم سبحانه بقوله: ﴿الْكُفْرُ الْذِكْرُ وَلَهُ الْأُنْثَى﴾ ﴿٢٦﴾ تِلْكَ إِذْ أَوَسَّيْتُهُ ضَيْزَى ﴿٢٧﴾ [النجم: ٢١ - ٢٢].

وقال: ﴿أَفَأَصْفَكُمْ رَبُّكُمْ بِالْإِنِّينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْتِثًا﴾ [الإسراء: ٤٠].

وقال في آية الأنبياء هذه: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ وقد قيل: إن هذه الآية «نزلت في خزاعة حيث قالوا: الملائكة بنات الله. نزه ذاته عن ذلك ، ثم أخبر عنهم بأنهم عباد والعبودية تنافي الولادة» ^(١). وقيل: إن بعض العرب من غير خزاعة قالوا ذلك أيضًا ^(٢).

فذكر أن الملائكة هم عباد الله .

ثم وصف هؤلاء العباد بأنهم مكرمون مصطفىون ؛ لأن من العباد من ليس بمكرم كما ذكر سبحانه عن قسم من عباده الضالين فقال: ﴿ءَأَنْتُمْ أَضَلُّلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ [الفرقان: ١٧].

ثم ذكر أن هؤلاء العباد المكرمين لا ينطقون بشيء قبله سبحانه ، فهم لا يتقدمونه بقول . وإنه سبحانه إذا أمر بشيء فإنهم يعملون بأمره . وقدم الجار والمجرور فقال: ﴿بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ للدلالة على أنهم لا يعملون بأمر غيره وإنما يعملون بأمره خاصة .

جاء في (نظم الدرر): «(وهم بأمره) أي خاصة إذا أمرهم (يعملون) لا بغيره لأنهم في غاية المراقبة له ، فجمعوا في الطاعة بين القول والفعل وذلك غاية الطاعة» ^(٣).

(١) الكشف ٢ / ٣٢٦ وانظر البحر المحيط ٦ / ٣٠٧ .

(٢) انظر روح المعاني ١٧ / ٣٢ .

(٣) نظم الدرر ١٢ / ٤٠٨ - ٤٠٩ .



وجاء في (تفسير أبي السعود) في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ ، «بيان لتبعيتهم له تعالى في الأعمال إثر بيان تبعيتهم له في الأقوال. فإن نفي سبقهم له تعالى بالقول عبارة عن تبعيتهم له تعالى فيه. كأنه قيل هم بأمره يقولون وبأمره يعملون لا بغير أمره أصلاً. فالقصر المستفاد من تقديم الجار والمجرور معتبر بالنسبة إلى غير أمره لا إلى أمر غيره»^(١).

ولئلا يظن أنهم قد يتركون شيئاً من أمره ذكر أنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، أي ما تقدم من أفعالهم وأقوالهم وما تأخر ، وما عملوا وما لم يعملوا بعد^(٢).

ثم ذكر أنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضاه الله ، فهم لا يسبقونه بقول ولا يشفعون إلا لمن علموا أن الله يرتضي ذلك .

ثم ذكر أنهم في خوف منه ومراقبة له سبحانه لا يأمنون مكره.

وقال: (مشفقون) ولم يقل: (يشفقون) ليدل على أن ذلك وصفهم الدائم الثابت .

ومع هذا الثناء عليهم فذلك لا يمنع من أن يعذبهم إذا تجاوزوا الحد فقال: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ . وهذا لا يخصصهم وحدهم بل يشمل كل ظالم فقال: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ .

وقد مر قبل هذه الآية ذكر لعقوبات الظالمين من نحو قوله: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾^(١١).

(١) تفسير أبي السعود ٣ / ٦٩٧ .

(٢) انظر البحر المحيط ٦ / ٣٠٧ .



وقوله: ﴿قَالُوا يَنْوِيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيدِينَ ﴿١٥﴾ .

جاء في (الكشاف): «(لا يسبقونه)... والمعنى أنهم يتبعون قوله ولا يقولون شيئاً حتى يقوله ، فلا يسبق قولهم قوله... أي لا يتقدمون قوله بقولهم... وكما أن قولهم تابع لقوله فعملهم أيضاً كذلك مبني على أمره ، لا يعملون عملاً ما لم يؤمروا به...»

ومن تحفظهم أنهم لا يجسرون أن يشفعوا إلا لمن ارتضاه الله وأهله للشفاعة في ازدياد الثواب العظيم. ثم إنهم مع هذا كله من خشية الله (مشفقون) أي متوقعون من أمانة ضعيفة ، كائنون على حذر ورقبة لا يأمنون مكر الله...»

وبعد أن وصف كرامتهم عليه وقرب منزلتهم عنده وأثنى عليهم... فاجأ بالوعيد الشديد ، وأنذر بعذاب جهنم من أشرك منهم إن كان ذلك على سبيل الفرض والتمثيل» ^(١).

وجاء في (تفسير أبي السعود): «(مشفقون) مرتعدون. وأصل الخشية الخوف مع التعظيم ولذلك خص بها العلماء. والإشفاق الخوف مع الاعتناء.

فعند تعديته بـ (من) يكون معنى الخوف فيه أظهر ، وعند تعديته بـ (على) ينعكس الأمر» ^(٢).

وجاء في (روح المعاني): «﴿مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾» وفرق بين الخشية والإشفاق بأن الأول خوف مشوب بتعظيم ومهابة ولذلك خص به

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٦.

(٢) تفسير أبي السعود ٣ / ٦٩٧.

العلماء في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ ^(١).

وفي (التحرير والتنوير): «الإشفاق توقع المكروه والحذر منه» ^(٢).

لقد جاء نحو هذا التعبير في عدة مواضع من القرآن الكريم ، غير أنه لم يكن التعقيب واحداً ، بل ذكر في كل موضع نوعاً من التعقيب والتبيين يختلف عما ذكر في المواضع الأخرى .

وأول موضع ورد فيه نحو هذا التعبير ما جاء في سورة البقرة وهو قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَؤْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ ^(١١٥) وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَكُمْ قَدِينُونَ ^(١١٦) بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ^(١١٧) .

فرد عليهم بأن له ما في السماوات والأرض وأنهم كلهم خاضعون له ، وأنه أبدع السماوات والأرض وأوجدتهما وأنه على كل شيء قدير ، فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ، فلا يحتاج إلى الولد ، فهو الغني المستغني المقتدر فلماذا يتخذ ولداً؟

فرد عليهم بغناه وقدرته ، غير أنه لم يذكر فظاعة هذه الكلمة ولا ماذا ستكون عاقبة الذين يقولون بهذا القول .

ثم ورد نحو هذا التعبير في سورة يونس فقال: ﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمِنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ ^(٦٦) قَالَُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ^(٦٨) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا

(١) روح المعاني ١٧ / ٣٣ .

(٢) التحرير والتنوير ١٧ / ٥٢ .



يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ .

فذكر قبل الآية أن له من في السماوات ومن في الأرض فلماذا يتخذ الولد؟

ثم ذكر أنه الغني ، ولم يقل : (إنه غني) بل ذكر أنه الغني ولا غني غيره ، فإن له ما في السماوات وما في الأرض ، فكرر (ما) .

ففي آية البقرة لما لم يذكر أنه الغني لم يكرر (ما) ، وإنما قال : ﴿ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ .

ولما قال في آية يونس : ﴿ هُوَ الْعَزِيزُ ﴾ كَرَّرَ (ما) فقال : ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ للتوكيد والتوسع في ذكر الغنى .

ثم رد على القائلين بهذا القول بأنهم ليس عندهم سلطان بهذا وأنهم يقولون على الله ما لا يعلمون .

وألمح إلى أن هذا من الافتراء على الله ، وأنه سيعاقب الكافرين ، وهذه إشارة إلى أن القول بهذا إنما هو كفر .

ولم يرد مثل ذلك في البقرة . وهي مرحلة بعد الذكر الأول .

ثم ذكر القائلين بهذا في سورة الكهف وأنه ينذرهم فليحذروا فقال : ﴿ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ ﴿٤﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ .

فإنه بعد أن ذكر القائلين في موضعين ناسب أن ينذرهم بعد ذلك فقال : ﴿ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ ﴿٤﴾ .

فتدرج في القول فلم يذكر في يونس أنه سيعذب القائلين بهذا بصورة مباشرة ، وإنما قال : ﴿ إِنَّكَ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾



فذكر عموم الافتراء على الله ، وليس ذلك خاصًا بهذا القول .

وأما في آية الكهف فإنه أنذر الذين يقولون هذا القول بصورة مباشرة ، وأنه نفى العلم عنهم وعن آبائهم ، ثم عظم هذه المقالة وأنها كبيرة فقال : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ .

وصرح بأن هؤلاء لم يقولوا إلا الكذب .

ولم يذكر غناه فاكتفى بما مر من ذلك ، وإنما ذكر أمرًا آخر وهو الإنذار المباشر وعظم هذه المقالة وكذبها .

ثم قال في سورة مريم : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۚ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ۝٨٩ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۝٩١ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۝٩٣ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝٩٤ وَكُلُّهُمْ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ۝٩٥ ﴾ .

فإنه قبل هذا الموطن ذكر كذب هذا القول وأن هذه الكلمة كبيرة ، أما ههنا فقد فصل في هذا القول وذكر أنه عظيم ثقیل تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً .

ولم يذكر نحو هذا فيما سبق ، وإنما ألمح إلى أنه كذب ، ثم صرح بأنه كذب ، وذكر قبل هذه السورة أن هذه الكلمة كبرت تخرج من أفواههم .

أما ههنا فأنت تلاحظ أنه عظم هذه المقالة في السماوات والأرض والجبال وفضّعها ، وأن كل من في السماوات والأرض إن هم إلا عبيد له .

ومن الملاحظ في هذه الآية أنه ذكر اسمه (الرحمن) ولم يذكر لفظ الجلالة (الله) كما في الآيات السابقة . ولعل ذلك لأنه لم يذكر تهديداً لمن قال هذا القول .



ثم إن سورة مريم تردد فيها اسم الرحمن كثيرًا ، وهي أكثر سورة تردد فيها هذا الاسم الجليل . فناسب ذلك من جهة أخرى .

ثم ذكر في سورة الأنبياء نحو ذلك فقال : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ ۞ .

فذكر صفة هؤلاء الذين قالوا فيهم إنهم اتخذهم الرحمن ولدًا فذكر أنهم عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون كما ذكرنا .

ولم يعد ما ذكره في المواطن السابقة ، بل ذكر شيئًا آخر وهو صفة الملائكة هؤلاء . وهو أمر لم يذكره في المواطن الأخرى .

وقد ذكر ههنا اسمه (الرحمن) كما في آية مريم ، ولعل سبب ذلك أنه لم يذكر تهديدًا لمن قال هذا القول ، وهو المناسب لاسمه الرحمن .

ومن الملاحظ في هذه الآيات أنه إذا ذكر اسمه (الله) فهو إما يذكر غناه أو يذكر إنذارًا لمن قال هذا القول أو يذكرهما معًا .

ففي سياق آية البقرة قال : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴿١١٥﴾ ۞ .

وقال : ﴿ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَلْبُتُونَ ۞ ﴾ وأنه بديع السماوات والأرض .

ثم إنه لم يرد في سورة البقرة اسمه (الرحمن) إلا في موضع واحد وهو قوله : ﴿ وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١١٦﴾ ۞ .

بخلاف اسم (الله) الذي تردد فيها كثيرًا كثيرًا .



وفي آية يونس ذكر غناه وأشار إلى التهديد والإنذار فقال: ﴿هُوَ الْغَنِيُّ
لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ .

ثم ذكر عاقبة هؤلاء الكفرة فقال: ﴿إِنَّا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ
الشَّدِيدَ يَمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ .

وأذّر في آية الكهف من قال بهذا القول فقال: ﴿وَنُذِرَ الَّذِينَ قَالُوا
أُخْذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ .

ولم يذكر تهديداً أو غنى مع اسمه (الرحمن) في آيتي مريم والأنبياء .
فلم يكرر ما ورد من هذا الأمر وإنما ذكر في كل موطن أمراً يتناسب مع
المقام والسياق والتدرج في شأن المقالة والقائلين .

* * *

﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتْ رَتْقًا فَفَنَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَاهُ
الْمَاءَ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٠)

أي ألم يتفكروا أولم يعلموا أن السماوات والأرض كانتا مرتوقيتين أي
لاصقة إحداهما بالأخرى ففصلنا الأرض عن السماوات؟

وقال: (رتقاً) دون (مرتوقيتين) لأن (رتقاً) مصدر ، والمصدر يخبر به
عن المفرد وغيره كما يقال: رجل عدل ورجال عدل . ورجل صوم وامرأة
صوم ورجال صوم .

وأخبر به عنهما للمبالغة .

والرؤية قلبية ، أي: ألم يعلموا^(١) ؟ .

قد تقول: لعلهم لم يكونوا يعلمون ذلك .

(١) انظر الكشف ٢ / ٣٢٦ - ٣٢٧ ، روح المعاني ١٧ / ٣٤ .



ف نقول : إن ذلك يقال لمن يعلم أو لإعلام من لم يكن يعلم . كما تقول لصاحبك : (ألم تعلم أن فلانًا حصل على جائزة؟) وهو لا يعلم ذاك وإنما أردت إخباره ، وهذا جارٍ كثير في اللغة .

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ﴾ [الحج : ١٨] .

وقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَفَّتٍ كُلُّ قَدِّ عِلْمَ صَلَاتِهِمْ وَسَبِّحَهُ ﴾ [النور : ٤١] .

وقال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفَتُوا ظِلَالَهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ [النحل : ٤٨] .

وقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ﴾ [البقرة : ٢٥٨] .

وهو إنما يخبره بذلك .

ونحو هذا كثير في القرآن الكريم .

﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ .

أي «صيرنا كل شيء حي بسبب من الماء لا بد له منه» ^(١) ، فالماء هو سبب الحياة .

فبدأ بذكر الحالة الأولى لوجود الكون وهي أن السماوات والأرض كانتا ملتحمتين لاصقة إحداهما بالأخرى ففصلهما .

ثم ذكر أصل الحياة وما يسبق الحياة ، ثم جعل الأشياء حية بسبب الماء .



فذكر حالتين متناظرتين :

ما يسبق هذا الكون المشاهد .

وما يسبق وجود الأحياء .

وهو تناظر جميل .

ولما ذكر في أول الآية الذين كفروا فقال : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾
ختمها بدعوتهم إلى الإيمان فقال : ﴿ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

وجاء بالفاء الدالة على السبب في قوله : ﴿ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي ألا يكون
ذلك سبباً لايمانهم ؟!

* * *

﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ
يَهْتَدُونَ ﴾ (٣١)

الرواسي من الجبال : الثوابت الرواسخ^(١) .

ومن لطائف التعبير القرآني أنه لا يعبر بالرواسي في أحداث القيامة ،
بل يعبر عنها بالجبال وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ سُفَّتْ ﴾
[المرسلات : ١٠] ، وقوله : ﴿ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾
[الحاقة : ١٤] .

وذلك لأنها لم تعد رواسي . وإنما خص التعبير بـ (الرواسي) في
الحياة الدنيا ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ
بِكُمْ وَاتَّهَرَأَ ﴾ [النحل : ١٥] .

وقوله : ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا ﴾ [فصلت : ١٠] .

(١) انظر لسان العرب (رسا) .



وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رُوسًا شَهِخَتْ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٧].

أما التعبير بالجبال فهو عام ، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَكَاوُوا يَنْجُتُونَ مِنَ الْجِبَالِ يَوْمَ تَأْمِينُ﴾ [الحجر: ٨٢].

وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ [النحل: ٨١].
﴿أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾.

أي لثلاث تميد وتضطرب^(١).

ومن لطائف التعبير في القرآن أن نفي الميد يجعله مع لفظ (الرواسي) دون غيرها فلم يجعله مع لفظ الجبال ، ذلك أن معنى الرواسي - كما ذكرنا - هو الثوابت الرواسخ ، فهي تثبت الأرض لثلاث تميد.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾.

الفج: الطريق الواسع بين جبلين ، وقيل: هو الطريق الواسع في الجبل^(٢) ، وقيل: هو الطريق الواضح الواسع^(٣).

والسبيل: الطريق الذي فيه سهولة^(٤).

وجمع بين الفجاج والسبل لإفادة معنى السعة والسهولة واليسر وذلك من تمام النعمة.

جاء في (روح المعاني): «(فجاجًا) جمع فج ، قال الراغب: هو شقة يكتنفها جبلان. وقال الزجاج: كل مخترق بين جبلين فهو فج. وقال بعضهم: هو مطلق الواسع سواء كان طريقًا بين جبلين أم لا...»

(١) انظر الكشاف ٢ / ٣٢٧.

(٢) انظر لسان العرب (فجج).

(٣) المصباح المنير (الفج) ، وانظر الكشاف ٢ / ٣٢٧.

(٤) انظر مفردات الراغب (سبل).

وقوله سبحانه: (سبلاً) بدل منه . فيدل ضمناً على أنه تعالى خلقها ووسعها للسابلة مع ما فيه من التأكيد ؛ لأن البدل كال تكرار وعلى نية تكرار العامل ، والمبدل منه ليس في حكم السقوط مطلقاً

[وقيل:] إن (سبلاً) عطف بيان وهو سائغ في النكرات حيث قال: هو تفسير للفجاج وبيان أن تلك الفجاج نافذة، فقد يكون الفج غير نافذ^(١) .

قد تقول: لقد قدم الفجاج على السبل ههنا ، وقدم السبل على الفجاج في سورة نوح فقال: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ۖ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ۚ﴾ .

فنقول: لما ذكر الرواسي في آية الأنبياء ناسب تقديم الفجاج على السبل ؛ لأن الفج هو الطريق في الجبل كما ذكرنا .

ولما قال (بساطاً) في سورة نوح قدم السبل وهي الطرق الميسرة السهلة^(٢) .

﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾

أي يهتدون في سيرهم أو يهتدون إلى الإيمان بالله ، فإن هذه من الآيات التي تهدي إلى الإيمان .

وكلا الأمرين مطلوب ، فإن الجبال من وسائل الهداية في السير ، قال تعالى: ﴿وَالْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوًسًا أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥ وَعَلَّمَنَّا بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٥ - ١٦] .

وهي من الآيات الدالة على توحيده وقدرته سبحانه . قال تعالى:

(١) روح المعاني ١٧ / ٣٨ .

(٢) انظر التعبير القرآني ٦٣ .



﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْآيِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ (١٧) ﴿ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾ (١٨) ﴿ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ [الغاشية: ١٧ - ١٩].

وقال: ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرعد: ٣].

وقال: ﴿ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بِلَا أَكْثَرُ لَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [النمل: ٦١].

جاء في (التحرير والتنوير): «وجملة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ مستأنفة إنشاء رجاء اهتداء المشركين إلى وحدانية الله ، فإن هذه الدلائل مشاهدة لهم واضحة الدلالة .

ويجوز أن يراد بالاهتداء الاهتداء في السير ، أي جعلنا سبلاً واضحة غير محجوبة بالضيق إرادة اهتدائهم في سيرهم فتكون هذه منة أخرى» (١).

* * *

﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ (٢٢)

ذكر في آية سابقة أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقهما .

ثم بدأ بما يتعلق بالأرض وأهلها ، فذكر أنه جعل من الماء كل شيء حي .

ثم ذكر أنه جعل في الأرض رواسي لثلا تميد بأهلها وجعل فيها فجاً سبلاً لعلهم يهتدون .

ثم انتقل في هذه الآية إلى ذكر السماء فقال:

(١) التحرير والتنوير ١٧ / ٥٧ .

﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا ﴾ أي محفوظًا من الوقوع على الأرض ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَسِكَ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحج : ٦٥] .

ومحفوظًا من الشياطين كما قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴾ ﴿ ١٦ ﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿ ١٧ ﴾ إِلَّا مِنْ أَسْرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُبِينٌ ﴾ [الحجر : ١٦ - ١٨] .

وجعل فيها ما يحفظها كما ذكر سبحانه : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكُوْكَبِ ﴾ ﴿ ٦ ﴾ وَحَفِظْنَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴾ [الصفات : ٦ - ٧] .

فهي سقف محفوظ بأمر الله سبحانه من كل ما يمنع من الحفظ .

وهم عن آياتها وما أودع الله فيها من دلائل من شمس وقمر ونجوم وأحوال معرضون لا يتدبرون فيها .

جاء في (الكشاف) : « (محفوظاً) حفظه بالإمساك بقدرته من أن يقع على الأرض ويتزلزل ، أو بالشهب عن تسمع الشياطين على سكانه من الملائكة .

(عن آياتها) أي عما وضع الله فيها من الأدلة والعبر بالشمس والقمر وسائر النيرات ومساييرها وطلوعها وغروبها » ^(١) .

وجاء في (التفسير الكبير) للفخر الرازي : « قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ عما وضع الله تعالى فيها من الأدلة والعبر في حركاتها وكيفية حركاتها وجهات حركاتها ومطالعها ومغاربها واتصالات بعضها ببعض وانفصالاتها على الحساب القويم والترتيب العجيب الدال على

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٧ وانظر تفسير أبي السعود ٣ / ٧٠٠ .



الحكمة البالغة والقدرة الباهرة»^(١).

* * *

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾^(٢٢)

لما قال في الآية السابقة: ﴿وَهُمْ عَنْ عَائِنِهَا مُعْرِضُونَ﴾ ذكر شيئاً من آياتها في هذه الآية ، فذكر الليل والنهار وآيتيهما وهما الشمس والقمر . فالشمس آية النهار ، والقمر آية الليل .

وقدم الليل على النهار لسبقه ، وقدم الشمس على القمر لسبقها . فالليل أسبق في الوجود من النهار ، والشمس أسبق في الوجود من القمر .

لقد قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ﴾ أي هو لا غيره ، فإن هذا التعبير يفيد القصر .

وقال: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ فجاء بضمير الجمع للإشارة إلى كل ما يسبح في فلكه في السماء فنون (كل) ، والتنوين في (كل) يفيد العموم ، ولو أضاف أو بين بمن فقال: (وكل منهما) لتخصص الكلام بهما .

جاء في (التحرير والتنوير): «وضمير (يسبحون) عائد إلى عموم آيات السماء وخصوص الشمس والقمر»^(٢).

وقال: (يسبحون) بضمير العقلاء ، ولم يقل: (يسبحن) أو (تسبح) لأن السباحة من أفعال الآدميين . وهذه الآية نظير قوله سبحانه في سورة يس: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠] .

(١) التفسير الكبير ٢٢ / ١٤٠ .

(٢) التحرير والتنوير ١٧ / ٦٠ .



وقوله: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

جاء في (نظم الدرر): «ولما ذكر السماء ذكر ما ينشأ عنها فقال: (وهو) أي لا غيره ﴿الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ ثم أتبعهما آتيهما فقال: (والشمس) التي هي آية النهار وبها وجوده. (والقمر) الذي هو آية الليل»^(١).

وجاء في (الكشاف): «(كل) التنوين فيه عوض من المضاف إليه ، أي كلهم ﴿فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾. والضمير للشمس والقمر ، والمراد بهما جنس الطوالع كل يوم وليلة ، جعلوها متكاثرة لتكاثر مطالعها... وإنما جعل الضمير واو العقلاء للوصف بفعلهم وهو السباحة»^(٢).

وجاء في (البحر المحيط): «وجاء (يسبحون) بواو الجمع العاقل. فأما الجمع فقليل ثم معطوف محذوف وهو (والنجوم) ولذلك عاد الضمير مجموعاً ، ولو لم يكن ثم معطوف محذوف لكان (يسبحان) مثني...»

وأما كونه ضمير من يعقل ولم يكن التركيب (يسبحن) فقال الفراء: لما كانت السباحة من أفعال الأدميين جاء ما أسند إليهما مجموعاً جمع من يعقل كقوله: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾»^(٣).

* * *

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِلشَّرِّ مِن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ (٢١) كُلُّ نَفْسٍ ذَاقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (٢٥)

وذلك من حكمته سبحانه الذي جعل من الماء كل شيء حي ، وجعل

(١) نظم الدرر ١٢ / ٤١٦ .

(٢) الكشاف ٢ / ٣٢٧ .

(٣) البحر المحيط ٦ / ٣١٠ . وانظر روح المعاني ١٧ / ٣٩ .



في الأرض رواسي أن تميد بهم ، وخلق الليل والنهار والشمس والقمر .
والليل يمضي ولا يعود إلى يوم القيامة ويأتي بعده ليل آخر .
والنهار يمضي ولا يعود إلى يوم القيامة ويأتي بعده نهار آخر .
والبشر يموت ولا يعود إلى يوم القيامة فيبعثه الله ويحاسبه .
فلم يجعل لبشر من قبله الخلد .

ونفى الفعل بـ (ما) ولم ينفعه بـ (لم) لأن (ما) أكد من (لم) .
وإذا تربصوا بك ريب المنون فمت أفهم خالدون في الدنيا؟
وقال: ﴿ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴾ ولم يقل: (فهم خالدون) وذلك للحصر ،
أي: أفهم الخالدون دون غيرهم من البشر الذين قضى الله أن لم يجعل
لأحد منهم الخلد .

لقد قال ههنا: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِشَرٍّ مِّنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ ﴾ فقال: (الخلد) ولم
يقُل: (الخلود) ، فإن القرآن الكريم يستعمل (الخلد) كثيرًا ، واستعمل
(الخلود) في موطن واحد وذلك قوله سبحانه: ﴿ مَن خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ
بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ [٣٣] ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴾ [ق: ٣٣ - ٣٤] .

واستعمل (الخلد) فيما عدا ذلك وذلك نحو قوله سبحانه: ﴿ ثُمَّ قِيلَ
لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ ﴾ [يونس: ٥٢] .

وقوله: ﴿ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ هُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ ﴾ [فصلت: ٢٨] .
وقوله: ﴿ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ ﴾
[الفرقان: ١٥] .

فاستعمل (الخلد) لمن هم أقل عددًا ممن ذكر في آية (ق) .
فقد قال في (ق): ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴾ ويوم الخلود ليس خاصًا بمؤمن أو
كافر ، بل كلهم يشملهم ذلك اليوم فهو يوم الخلود للجميع سواء كان من



أهل الجنة أم من أهل النار .

قد تقول : ولكن الكلام على المتقين فقد قال سبحانه في سياق الآية : ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۚ ﴾ . . . أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴾ ۚ .

فنقول : لم يقل : (تلك دار الخلود) أو (جنة الخلود) في إشارة إلى الجنة ، وإنما قال : ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴾ ، وهو وإن بشرهم بالخلود في خطابه لهم غير أن التعبير بيوم الخلود لا يخصهم وحدهم . فيوم الخلود ليس خاصًا بصنف دون صنف وإنما هو عام لكل المكلفين .

هذا إضافة إلى أنه ورد في السياق ذكر أهل النار وأهل الجنة . وأما (الخلد) فلم يستعملها إلا مخصصة بصنف دون آخرين . فقد قال : ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ ﴾ ، وقال : ﴿ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ ﴾ وهذا خاص بالكافرين .

وقال : ﴿ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ ﴾ وهذا خاص بالمؤمنين .

فاستعمل (الخلود) التي هي أكثر حروفاً من (الخلد) لمن هم أكثر عددًا . ف (خلود) أربعة أحرف ، و (خلد) ثلاثة أحرف .

فناسب بين القلة والكثرة في بناء المفردة والمكلفين .

وكذلك الأمر في آية الأنبياء هذه وهي قوله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِلشَّرِّ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ ﴾ ، فالبشر هنا يعني واحداً من الناس ، وحتى إذا قصد بها مجموعة من الناس فهم قلة بالنسبة إلى مجموع البشر . وهذا من لطائف التعبير .

لقد قال : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِلشَّرِّ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ فأسند الجعل لنفسه سبحانه فهو الذي قضى بذلك وقدره .

ثم بين ذلك بقوله : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾



فلا تنجو نفس من الموت بل لا بد أن تذوقه .

﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾

«أي نخبركم بما يجب فيه الصبر من البلايا ، وبما يجب فيه الشكر من النعم ، وإلينا مرجعكم فنجازيكم على حسب ما يوجد منكم . . . و(فتنة) مصدر مؤكد لـ (نبلوكم) من غير لفظه»^(١) .

ويحتمل أيضاً أن تكون (فتنة) مفعولاً لأجله ، أي (لنفتنكم) ، كما يحتمل أن تكون حالاً أي : فاتنين لكم ، بمعنى : مختبرين لكم ، كما يحتمل أن تكون مفعولاً مطلقاً مؤكداً من غير لفظ الفعل كما ذكر صاحب الكشف .

وجاء بالمصدر ليحتمل المعاني الثلاثة : المصدر المؤكد والمفعول له والحال وهو من التوسع في المعنى .

و«قدم الشر لأن الابتلاء به أكثر . . . وعن ابن عباس : الخير والشر هنا عام في الغنى والفقر ، والصحة والمرض ، والطاعة والمعصية ، والهدى والضلال . . .

والظاهر أن المراد من الخير والشر هنا كل ما صح أن يكون فتنة وابتلاء . . .

وانتصب (فتنة) على أنه مفعول له ، أو مصدر في موضع الحال ، أو مصدر من معنى نبلوكم . . .

﴿وَالْإِنَّا تُرْجَعُونَ﴾ فنجازيكم على ما صدر منكم في حالة الابتلاء من الصبر والشكر وفي غير الابتلاء»^(٢) .

(١) الكشف ٢ / ٣٢٨ .

(٢) البحر المحيط ٦ / ٣١١ وانظر روح المعاني ١٧ / ٤٧ .



«وأكد فعل البلاء بمصدر من معناه مقرون بالهاء تعظيماً له فقال: (فتنة) أي كما يفتن الذهب إذا أريدت تصفيته بمخالطة النار له»^(١).

﴿وَالْيَنَّا تُرْجَعُونَ﴾ أي لا إلى غيرنا فنحاسبكم ونجزيكُم على ما قدمتم. وهذا التعقيب مناسب لمفتتح السورة وهو قوله: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾.

ولما ذكره في آخر السورة من عاقبة الكافرين والمؤمنين. قد تقول: لقد قال ههنا: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَالْيَنَّا تُرْجَعُونَ﴾.

وقال في سورة العنكبوت: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ ﴿٥٧﴾. فلم يقل في آية العنكبوت: (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) كما قال في آية الأنبياء.

وقال في آية الأنبياء: ﴿وَالْيَنَّا تُرْجَعُونَ﴾ بالواو. وقال في آية العنكبوت: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ بضم. فلم ذاك؟

أما إنه لم يقل في آية العنكبوت: (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) فقد قيل: إنه «لما تقدم أول سورة العنكبوت ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [الآيتان: ٢ - ٣] أغنى ذلك عن (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) في آية العنكبوت فحذف منها»^(٢).

(١) نظم الدرر ١٢ / ٤١٨.

(٢) حاشية البرهان للكرمانى ذات الرقم ١١ ص ٢٤٠.



وهو توجيه مقبول .

وأما قوله في آية الأنبياء : ﴿ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾

وقوله في آية العنكبوت : ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾

فلأن آية الأنبياء - والله أعلم - هي في الرجوع إلى الله عند الموت أو في القيامة .

وأما آية العنكبوت فهي فيما بعد ذلك وهو دخول الجنة أو النار .

يدلك على ذلك سياق آيات العنكبوت ، فهو في ذكر من يدخل النار ومن يدخل الجنة . قال تعالى : ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ (٥٤) يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَعْبادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ .

فجاء بـ (ثم) التي تفيد التراخي .

وليس السياق كذلك في آية الأنبياء .

وقد ذكرنا آنفاً أن هذه الآية مناسبة لما ورد في أول السورة من ذكر للحساب وهو قوله : ﴿ أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾ . والحساب قبل القضاء بدخول الجنة أو النار .

جاء في (البرهان) للكرماني : « قوله : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ وفي العنكبوت : ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ لأن (ثم) للتراخي ، والرجوع هو الرجوع إلى الجنة أو النار ، وذلك في القيامة .

وخصت هذه السورة بالواو لما حيل بين الكلامين بقوله : ﴿ وَنَبْلُوكُم



بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةٌ ﴿١﴾ . وإنما ذكرنا لما لم يتقدم ذكرهما . فقام مقام التراخي وناب الواو منابه» ^(١) .

* * *

﴿وَإِذَا رَأَاكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ ^(٣٦)

(إذا) ظرف زمان تجردت للظرفية وليس فيها معنى الشرط ، بدليل عدم اقتران جوابها بالفاء ، نظير قوله : ﴿وَإِذَا نُتِلَى عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانُ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَوْنَا بِآبَاءِنَا﴾ [الجاثية : ٢٥] .

و(هزوا) مصدر بمعنى اسم المفعول ، أي مهزوءا بك ، وذلك للمبالغة .

لقد نفى الفعل (يتخذونك) بإن دون (ما) ذلك أن النفي بـ (إن) أقوى من النفي بـ (ما) .

ولم يقل : (وإذا رآك الذين كفروا اتخذوك مهزوءا بك) وإنما قال : ﴿إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ فجاء بـ (إن) و(إلا) للقصر ، أي لم يعاملوه بمعاملة أخرى غير الاستهزاء ، فقصروا معاملتهم له على الاستهزاء ^(٢) ، وذلك للمبالغة في ذلك .

وقال : (هزوا) بالمصدر للمبالغة كما ذكرنا .

فكانت المبالغة بالقصر ، والنفي بـ (إن) ، وبالمصدر دون الوصف .

وجاء بالفعل المضارع (يتخذونك) للدلالة على تكرار الاستهزاء .

(١) البرهان ٢٤٠ .

(٢) انظر تفسير أبي السعود ٣ / ٧٠١ .



وحذف القول ، أي : قائلين أو يقولون : ﴿ أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ
ءَالِهَتَكُمْ ﴾ .

وقولهم : ﴿ أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ ﴾ استهزاء به ، أي يعيبها
ويذكرها بسوء ، وتعظيم لآلهتهم التي لا ينبغي لأحد أن يعيبها بل ينبغي
أن يعظمها - فيما يرون - .

والغريب أنهم بذكر الرحمن الذي خلقهم وأفاض عليهم بالنعمة
كافرون وأنهم يعظمون آلهة اتخذوها لا تضر ولا تنفع ولا تعقل ولا تنطق
ولا تسمع ولا تبصر .

وقوله : ﴿ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ ﴾ يحتمل أن يكون المقصود به ذكر الله بما
يجب أن يذكر ، كما يحتمل أن يكون المقصود بذكر الرحمن القرآن ،
وقد سماه الله ذكراً في أول السورة فقال : ﴿ مَا يَأْنِيهِمْ مِّنْ ذِكْرِ مِّن رَّبِّهِمْ
مُحَدِّثٍ إِلَّا أَسْمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ .

وقال في الشعراء : ﴿ وَمَا يَأْنِيهِمْ مِّنْ ذِكْرِ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحَدِّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ
مُعْرِضِينَ ﴾ .

وكلاهما مقصود ، فهم كافرون بالرحمن وبالقرآن الذي هو ذكر من
الرحمن .

جاء في (الكشاف) : «الذكر يكون بخير وبخلافه ، فإذا دلت الحال
على أحدهما أطلق ولم يقيد ، كقولك للرجل : (سمعت فلاناً يذكرك) ،
فإن كان الذاكر صديقاً فهو ثناء ، وإن كان عدواً فذم ، ومنه قوله تعالى :
﴿ سَمِعْنَا قَوْلَ يَذْكُرُهُمْ ﴾ ، وقوله : ﴿ أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ ﴾ . . .
وأما ذكر الله وما يجب أن يذكر به من الوحداية فهم به كافرون لا يصدقون
به أصلاً ، فهم أحق بأن يتخذوا هزواً منك . . .



وقيل: (بذكر الرحمن): بما أنزل عليك من القرآن»^(١).

والضمير الثاني في قوله: ﴿وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾
توكيد للأول.

جاء في (تفسير أبي السعود): «والضمير الثاني تأكيد لفظي للأول
فوقع الفصل بين العامل ومعموله بالمؤكد وبين المؤكد والمؤكد
بالمعمول»^(٢).

وجاء في (نظم الدرر): «وكرر الضمير تعظيمًا بما أتوا به من القباحة
فقال: (هم)»^(٣).

قد تقول: لقد قال ههنا: ﴿وَإِذْ أَرَأَيْتَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾.
فختم الآية بقوله: ﴿وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾.

وقال في سورة الفرقان: ﴿وَإِذْ أَرَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي
بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾.

فختم الآية بقوله: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ ، فما توجيه
ذلك؟

فنقول: إن السياق في الأنبياء في ذكر الرحمن سبحانه وما أفاض من
الخلق والنعم ، فقد قال سبحانه: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ
عِبَادٌ مُكْرَمُونَ...﴾.

واستمر في ذكر ما فعله سبحانه من نحو قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ

(١) الكشف ٢ / ٣٢٨.

(٢) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٠١.

(٣) نظم الدرر ١٢ / ٤٢٠.

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كَانَا رَتَقًا فَفَنَقْنَهُمَا وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَتَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿١٠٠﴾

وبعد الآية قال: ﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ فالسياق فيما أفاض ربنا من الخلق والنعم ، فناسب ختم الآية بذكر الرحمن .

في حين كان السياق في الفرقان في الكلام على الرسول ، فقد قال سبحانه بعد آية الفرقان: ﴿ إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ ﴿١٢﴾ . وتقدم الكلام على الرسول فقد قال سبحانه: ﴿ وَيَوْمَ يَعْصُ الزَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيِّنُنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ ﴿٢٧﴾ . وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٧﴾ ﴿١٠٠﴾

ثم قال: ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴾ ﴿٤١﴾ إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴿١٠٠﴾ فناسب ختم الآية بذكر الرسول .

جاء في (ملاك التأويل) في بيان المناسبة لخاتمة كل من الآيتين «أنه لما تقدم في سورة الأنبياء قوله تعالى: ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنْ الْأَرْضِ هُمْ يُبَشِّرُونَ ﴾ ﴿٢١﴾ ، وقوله: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ ﴿٢٤﴾ وقوله: ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا إِلَهًا ﴾ ﴿٢٤﴾ ، فتكرر ذكر مرتكبهم في اتخاذهم معبودات لا تغني عنهم ، ناسبه قولهم: ﴿ أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ﴾ .

أما آية الفرقان فقد تقدمها قوله: ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ فأنكروا كون الرسول من البشر ، فجرى مع



ذلك وناسبه قولهم: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ ﴿٤١﴾ تعجبًا واستبعادًا أن يكون الرسل من البشر. وقد رد ذلك عليهم بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ فوضح التناسب فيها ، والله أعلم» ^(١).

* * *

﴿خُلِقَ الْإِنْسَنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ ﴿٣٧﴾

لما كان الإنسان مطبوعًا على العجلة معتادًا لها قال سبحانه: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ كأنه مخلوق منها على سبيل المبالغة. والإنسان من صفاته العجلة كما قال سبحانه: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١] .

جاء في (تفسير أبي السعود): «جعل لفرط استعجاله وقلة صبره كأنه مخلوق منه . . . إيدانًا بغاية لزومه له وعدم انفكاكه عنه» ^(٢).

وبنى الفعل (خلق) للمجهول لأن هذه الصفة غير محمودة فلم يرد أن يسندها إليه سبحانه، والخالق معلوم. وهذا كثير جارٍ في القرآن الكريم ^(٣).

ونحو ذلك قوله سبحانه: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨] ، وقوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ١٩ - ٢١] .

في حين قال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] لما كان ذلك

(١) ملاك التأويل ٢ / ٦٩٥ .

(٢) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٠١ وانظر نظم الدرر ١٢ / ٤٢٠ ، البحر المحيط ٣١٢ / ٦ .

(٣) انظر كتابنا (التعبير القرآني) - تفسير سورة التين .



من مظاهر نعمته عليه .

قال سبحانه في سورة المؤمنون: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ ۝١٢ ﴾ إلى أن قال: ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۝١٣ ﴾ .

وقال: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝١٤ ﴾ [الحجر: ٢٦] ثم ذكر أنه أسجد له ملائكته أجمعين فقال: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۝٢٩ ﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿ ٣٠ ﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ ۝٣١ ﴾ .

وهذا تكريم لآدم فقال: (خلقت).

﴿ سَأُورِيكُمْ ءَايَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ۝٣٢ ﴾ .

وآياته هي آيات الوعيد التي ستحل بهم في الدنيا ، وعذاب الآخرة الذي وعدهم به .

وقيل: هي أدلة التوحيد التي تدل على صدق الرسول .

جاء في (البحر المحيط): «أي آيات الوعيد ، فلا تستعجلون في رؤيتكم العذاب الذي تستعجلون به . . .

والآيات هنا قيل: الهلاك المعجل في الدنيا والعذاب في الآخرة ، أي يأتيكم في وقته .

وقيل: أدلة التوحيد وصدق الرسول»^(١) .

﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ۝٣٢ ﴾ فإنها ليست في مصلحتكم ، وإذا وقعت تمنيتم أنها لم تقع ، سواء ما كان في الدنيا أم ما يكون في الآخرة .

* * *

(١) البحر المحيط ٦ / ٣١٢-٣١٣ وانظر روح المعاني ١٧ / ٤٩ .



﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾

يقولون ذلك استهزاء بما وعدهم رسولهم^(١).

وقال: (يقولون) ولم يقل: (قالوا) للدلالة على تكرار القول منهم.

وقال: (هذا الوعد) بحرف الإشارة للقريب، ولم يقل: (ذلك) للدلالة على أنهم يقولون ذلك حين يعدمهم ولا يدعون ذلك فيقولونه بعد حين.

وقوله: ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ يدل على أن المسلمين كانوا يعدونهم بما أنزل الله كما يعدمهم رسولهم فقالوا: ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ بالجمع، ولم يقولوا: (إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) فيجعلون الخطاب للرسول وحده.

في حين قال في الرسل الآخرين: ﴿ فَأَنَّا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ فجعلوا الخطاب للرسول فهو الذي كان يعدمهم، وذلك في عاد قوم هود (انظر الأعراف ٧٠، الأحقاف ٢٢)، وقوم نوح (انظر هود ٣٢)، وقوم صالح إذ قالوا لرسولهم: ﴿ يَصْلِحْ أَمْرَنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٧].

في حين ورد قوله سبحانه: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في ستة مواضع كلها في خطاب أصحاب الرسول وذلك في يونس ٤٨، والأنبياء ٣٨، والنمل ٧١، وسبأ ٢٩، ويس ٤٨، والملك ٢٥.

مما يدل على أن المسلمين كانوا يبلّغون ما أرسل به رسولهم.

(١) انظر البحر المحيط ٦ / ٣١٣، روح المعاني ١٧ / ٤٩.



وهذه إشارة إلى أن المسلمين ما كانوا يقعدون عن الدعوة إلى الله سبحانه وتبليغ ما أنزل إليهم .

* * *

﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ ^(٣٩) بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾

جواب (لو) محذوف للتهويل والتعظيم ولتذهب النفس كل مذهب ^(١) ، ولأن الكلمات لا تفي ببيان كيف تكون حالهم هناك .

و(حين) مفعول (يعلم) أي لو يعلمون ذلك الوقت ، ولا يصح أن يكون ظرفاً ، فإنه لا يصح أن يكون المعنى (لو يعلمون في ذلك الوقت) فإنهم في ذلك الوقت يكونون قد علموه وذاقوه .

وقال : (لو يعلم) ولم يقل : (لو علم) لأن عدم العلم مستمر .

جاء في (روح المعاني) : « وإيثار صيغة المضارع في الشرط وإن كان المعنى على الماضي لإفادة استمرار عدم العلم » ^(٢) .

وذكر الاسم الموصول وهو (الذين كفروا) ولم يذكر ضميرهم كما كان في الآية السابقة وهو قوله : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ليبين علة استحقاق العذاب وهو الكفر وليدل على أن الذين استعجلوا هم الكفار .

جاء في (روح المعاني) : « ووضع الموصول موضع الضمير للتنبيه بما

(١) انظر التحرير والتنوير ١٧ / ٧٠ ، البحر المحيط ٦ / ٣١٣ .

(٢) روح المعاني ١٧ / ٤٩ .



في حيز الصلة على علة استعجالهم»^(١).

وقوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي لا من آلهتهم التي كانوا يعظمونها ولا من غيرهم بل يتركون للعذاب.

وقدم الوجوه على النار في قوله: ﴿لَا يَكْفُوتُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ﴾ وذلك لأنها أهم، فإنهم هم المعذبون والكلام عليهم والوجوه وجوههم، فإنه ليس المهم كف النار ولكن المهم أن يكون الكف عن وجوههم هم.

قدم الوجوه على الظهور؛ لأن الوجه أكرم والعذاب عليها أشد، قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَتَّقِ بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الزمر: ٢٤].

جاء في (الكشاف): «جواب (لو) محذوف، و(حين) مفعول به لـ (يعلم)، أي لو يعلمون الوقت الذي يستعلمون عنه بقولهم: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ وهو وقت صعب شديد تحيط بهم فيه النار من وراء وقدام فلا يقدرّون على دفعها ومنعها من أنفسهم، ولا يجدون ناصراً ينصرهم لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال، ولكن جهلهم به هو الذي هوّنه عندهم.

ويجوز أن يكون (يعلم) متروكاً بلا تعدية، بمعنى: لو كان معهم علم ولم يكونوا جاهلين لما كانوا مستعجلين. و(حين) منصوب بمضمر، أي حين لا يكفون عن وجوههم النار يعلمون أنهم كانوا على الباطل»^(٢).

قد تقول: لقد قال في هذه الآية إنهم لا يكفون النار عن وجوههم ولا عن ظهورهم، فذكر الوجوه والظهور.

وقال في العنكبوت: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ

(١) روح المعاني ١٧ / ٤٩.

(٢) الكشاف ٢ / ٣٢٩.



وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ .

فذكر أنهم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، فما اللمسة البيانية في ذكر ما ذكر في كل موضع؟

فنقول: إنه قال في الأنبياء: ﴿وَإِذَا رَأََاكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ .

فقال: ﴿وَإِذَا رَأََاكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

والرؤية إنما تكون إذا استقبلوا المرئي بوجوههم فإن الرؤية إنما تكون بالعين ، والعين إنما هي في الوجه .

وقوله: ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ إنما تكون عند استقبالهم له بأوجهم أو عند إداره عنهم .

والإدبار إنما هو تولية الظهر فقال: ﴿لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمْ أَنْ تَارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾ ، وذلك يشمل الإقبال والإدبار .

في حين قال في العنكبوت: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿٥٦﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٧﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٨﴾ .

فقال: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ ، والإحاطة عامة تشمل الأمام والخلف والجوانب .

ثم ذكر أن العذاب يغشاهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، أي يغطيهم ، والغشاء: الغطاء ، فلم يترك جهة من الجهات إلا شملها العذاب .

فالعذاب في العنكبوت دخل فيه ما ذكر في الأنبياء وزيادة . فإنه لما



قال: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ دخل في ذلك الخلف والأمام والجوانب - كما ذكرنا - ، ثم ذكر أنه يغطي الفوق والأسفل فكانت الإحاطة بالعذاب شاملة ، وهي أشمل وأعم مما ذكر في الأنبياء .

وهذا مناسب لاستعجالهم بالعذاب ووصفهم بالكفر على جهة الثبوت ، فقد ذكر استعجالهم بالعذاب مرتين فقال: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ ثم قال: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ .

ولم يذكر في الأنبياء الاستعجال بالعذاب ، وإنما قال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ولم يذكر أنه وعدٌ بالعذاب ، وإنما قال: ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ .

ثم ذكر وصفهم بالكفر على جهة الثبوت فقال: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ فذكر وصفهم بالكفر على جهة الثبوت فجاء بالصيغة الاسمية في قوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ . في حين ذكر اتصافهم به في الأنبياء بالصيغة الفعلية فقال: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ، والفعل يدل على الحدوث كما هو معلوم ، فكان العذاب في العنكبوت أعم من عدة جهات .

فقد ذكر الوجوه والظهور في الأنبياء .

في حين ذكر الإحاطة في العنكبوت ، والإحاطة أعم من الوجوه والظهور ، فإن الوجه جزء من الأمام ، والظهر جزء من الخلف ، في حين أن الإحاطة تشمل الأمام كله ، والخلف كله ، وتشمل الجانبين .

وذكر الفوق فقال: (من فوقهم) ولم يقل: (فوقهم) ليدل على أن العذاب يغشاهم أي يغطيهم من فوقهم من دون فاصل ، وكذلك قوله: (من تحت أرجلهم) .



ثم قال: ﴿وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ والذوق يكون بالملامسة . فكان العذاب في العنكبوت أعم وأشد .
وكل مناسب لموضعه الذي ورد فيه .

* * *

﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾

أي بل تأتيهم النار أو الساعة فجأة فتحيرهم وتغلبهم فلا يستطيعون ردها . لقد قال: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ ولم يقل: (فلا يردونها) لئلا يفهم أنهم قد يكون باستطاعتهم ذلك ولكنهم لا يفعلون ، وإنما قال: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ فنفي الاستطاعة .

﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أي لا يمهلون فيستريحوا .

وجاء بالحال مصدرًا فقال: (بغته) أي مباغته لهم للمبالغة .

وجاء بالفاء فقال: (فتبتهتهم) للدلالة على السبب والتعقيب من دون مهلة ، ولم يقل: (وتبتهتهم) .

ثم قال: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ فجاء بالفاء الدالة على السبب والتعقيب .

وقال: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ ولم يقل: (فلا يردونها) لما ذكرت .

وقال: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ ولم يقل: (فلا يستطيعون أن يردوها) أي في المستقبل ؛ لأن (أن) تصرف المضارع إلى الاستقبال ، وإنما جاء بالاسم للدلالة على أنهم لا يستطيعون ردها على كل حال وفي جميع الأزمنة .

ثم قال: ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ فلا يمهلون ، وهو مناسب للمجيء بالفاء



الدالة على التعقيب من دون مهلة .

جاء في (الكشاف): «يقال للمغلوب في المحاجة: مبهوت ، ومنه ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]»^(١) .

وجاء في (البحر المحيط): «﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْةٌ﴾ أي تفجؤهم . . . والظاهر أن الضمير في (تأتيهم) عائد على النار ، وقيل : على الساعة التي تصيرهم إلى العذاب ، وقيل : على العقوبة»^(٢) .

وجاء في (تفسير أبي السعود): «(فتبتهم) أي تغلبهم أو تحيرهم . . . ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أي يمهلون ليستريحوا طرفة عين . وفيه تذكير لإمهالهم في الدنيا»^(٣) .

* * *

﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزَأَ رِيسُلِي مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾^(٤)

قيل في الفرق بين الاستهزاء والسخرية: «إن الإنسان يستهزأ به من غير أن يسبق منه فعل يستهزأ به من أجله .

والسخر يدل على فعل يسبق من المسخور منه»^(٤) .

والملاحظ في التعبير القرآني أن الاستهزاء يستعمله فيما هو أعم من السخرية . فإن السخرية لم يستعملها القرآن إلا مع الأشخاص .

قال تعالى : ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ [هود: ٣٨] .

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٩ .

(٢) البحر المحيط ٦ / ٣١٤ .

(٣) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٠٣ .

(٤) الفروق اللغوية ٢٦٨ .



وقال: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩].
 وقال: ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨].
 وقال: ﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ [الحجرات: ١١].
 وقال: ﴿زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْيَوْمَ أَلْيَوْمَ الَّذِينَ يَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البقرة: ٢١٢].

أما الاستهزاء فهو عام يكون من الأشخاص وغيرهم.
 قال تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ [المائدة: ٥٨].
 وقال: ﴿أَيُّ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [التوبة: ٦٥].
 وقال: ﴿ثُمَّ كَانَ عَقِبَةُ الَّذِينَ أُسْتُوا أَلْسُوًا أَلْسُوًا أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الروم: ١٠].
 وقال: ﴿إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠].

وقال: ﴿وَاتَّخَذُوا ءَايَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا﴾ [الكهف: ٥٦].
 وقال: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِذَا يَتَخَذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ [الفرقان: ٤١].
 لقد ذكر في آية الأنبياء هذه الاستهزاء والسخرية فقال: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ ، ثم قال: ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ﴾ .

والذي يبدو أن معنى الآية أن الكفار استهزؤوا بهم وبما جاؤوا به وسخروا منهم ومن عملهم ، فجمع بين الاستهزاء والسخرية فحاق بالذين سخروا من الرسل ما كانوا يستهزئون به ومما كانوا يذكرونهم به من الآيات والعذاب وما جاءت به رسلكم .

وهو عدة للرسول وإنذار للمستهزئين أن يصيبهم مثل ما أصاب

الأولين. جاء في (تفسير أبي السعود): «تسلياً لرسول الله ﷺ عن استهزائهم به عليه السلام في ضمن الاستعجال وعدة ضمنية بأنه يصيبهم مثل ما أصاب المستهزئين بالرسول السالفة عليهم الصلاة والسلام»^(١).

وجاء في (روح المعاني): «وقيل: إن المراد من الذي كانوا يستهزئون هو العذاب الذي كان الرسول يخوفونهم إياه»^(٢).

وقدم الجار والمجرور (بالذين سخروا) على فاعل (حاق) وهو ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ لأن المعنى يقتضي ذاك، فلا يصح أن يقال: (لقد استهزئ برسول من قبلك فحاق ما كانوا به يستهزئون بالذين سخروا منهم) أو هو ضعيف، لأن الضمير في (كانوا) عند ذاك لا يعود على مذكور متقدم؛ لأنه لم يتقدم ذكر للمستهزئين، فإن الفعل مبني للمجهول، بخلاف قوله: ﴿فَحاَقَ بِالَّذِينَ سَخَرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ فإن الضمير في (كانوا) يعود على المتقدم وهو (الذين سخروا منهم).

وجاء في (تفسير أبي السعود): «وتقديمه على فاعله الذي هو قوله تعالى: (ما كانوا به) للمسارعة إلى بيان لحوق الشر بهم»^(٣).

وبنى الفعل (استهزئ) للمجهول لأنه لا يتعلق غرض بذكر الفاعل، فإن العقوبة تتعلق بالاستهزاء أيًا كان فاعله. إذ لو ذكر الفاعل لربما أفهم أن العقوبة إنما حصلت لأن الفاعل هم هؤلاء المذكورون، ولو كان غيرهم لم تكن العقوبة كذلك أو أنهم لم يعاقبوا.

جاء في (نظم الدرر): «ولما كان المخوف نفس الاستهزاء لا كونه من

(١) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٠٣.

(٢) روح المعاني ٧ / ١٠٢.

(٣) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٠٣ - ٧٠٤.



معين بنى للمفعول قوله: ﴿أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ﴾ أي كثيرين^(١).

* * *

﴿قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾^(٤٢)

بعد أن ذكر استهزاءهم واستبعادهم لما وعدهم به رسوله أمر سبحانه رسوله أن يسألهم مقررًا لهم: من الذي يحميهم ويحفظهم من بأس الله وعذابه الذي يستحقونه على وجه الدوام في الليل والنهار، فهم مستحقون لذلك لولا رحمته بهم. وقد ألمح باسمه (الرحمن) أنه حفظهم من ذلك برحمته وهو سينزله بهم إذا اقتضت حكمته ذلك.

وقدم الليل على النهار لأن الداهية به أعظم وأشد وقعًا فإنهم عند ذاك غافلون ولأنهم غير متوقعين ولا منتظرين لشيء من ذلك بل تفجؤهم.

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾^(٩٧) أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون^(٩٨-٩٧) [الأعراف: ٩٧-٩٨] فقدم البيات وهو الليل على النهار.

ونحوه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعِجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٥٠].

وقوله: ﴿أَتَلْهَأَ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤].

وفي ذلك تخويف أعظم وأشد.

جاء في (البحر المحيط): «ثم أمره تعالى أن يسألهم من الذي



يحفظكم في أوقاتكم من بأس الله ، أي لا أحد يحفظكم منه . وهو استفهام تقرير وتوبيخ^(١) .

وجاء في (تفسير أبي السعود): «أي من بأسه الذي تستحقون نزوله ليلاً أو نهاراً» .

وتقديم الليل لما أن الدواهي أكثر فيه وقوعاً وأشد وقعاً . وفي التعرض لعنوان الرحمانية إيذان بأن كائنهم ليس إلا رحمته العامة^(٢) .

وجاء في (نظم الدرر): «ولما كان لا منعم بكلاية ولا غيرها سواء سبحانه ذكرهم بذلك بصفة الرحمة فقال: (من الرحمن) الذي لا نعمة بحراسة ولا غيرها إلا منه حتى أمتهم مكره ولو بقطع إحسانه»^(٣) .

﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾

فهم معرضون عن ذكر ربهم الذي أنعم عليهم وأحسن إليهم . وأضاف الضمير إليهم ليذكرهم بربوبيته لهم وإحسانه وتفضله عليهم . وقال: (معرضون) بالاسم للدلالة على دوام الإعراض عن ذكره سبحانه .

جاء في (تفسير أبي السعود): «وإيراد اسم الرب المضاف إلى ضميرهم المنبئ عن كونهم تحت ملكوته وتديره وتربيته تعالى من الدلالة على كونهم في الغاية القاصية من الضلالة والغى ما لا يخفى»^(٤) .

* * *

(١) البحر المحيط ٦ / ٣١٤ .

(٢) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٠٤ .

(٣) نظم الدرر ١٢ / ٤٢٤ .

(٤) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٠٥ .



﴿ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنْنَا يُصْحَبُونَ ﴾ ﴿٤٢﴾

* * *

هذا التعبير يحتمل معنيين كلاهما مراد :

الأول : بل ألهم آلهة تمنعهم من أن ينالهم مكروه يقع عليهم من جهتنا؟

والآخر : ألهم آلهة غيرنا تمنعهم وتحفظهم؟

ثم استأنف فذكر أن هذه الآلهة لا تستطيع أن تنصر نفسها ، وأنهم لا يصحبون منا بنصر ولا تأييد فكيف ينصرونهم ، فهم أعجز من ذلك؛ فليس لهم القدرة في أنفسهم ونحن لا نعينهم فهم ليست لهم قيمة ولا مكانة .

جاء في (الكشاف): «ثم أضرب عن ذلك بما في (أم) من معنى (بل) وقال: ﴿ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ ﴾ من العذاب تتجاوز معنا وحفظنا .

ثم استأنف فبين أن ما ليس بقادر على نصر نفسه ومنعها ولا بمصحب من الله بالنصر والتأييد كيف يمنع غيره وينصره؟» ^(١) .

وجاء في (البحر المحيط): «قيل: والمعنى ألهم آلهة تجعلهم في منعة وعز من أن ينالهم مكروه من جهتنا

[وقيل] أم لهم مانع من سوانا» ^(٢) .

وجاء في (روح المعاني): «وقوله تعالى: ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنْنَا يُصْحَبُونَ ﴾ أي لا يستطيعون أن ينصروا أنفسهم

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٩ .

(٢) البحر المحيط ٦ / ٣١٤ .



ويدفعوا عنها ما ينزل بها ولا هم منا يصحبون بنصر أو بمن يدفع عنهم ذلك من جهتنا. فهم في غاية العجز وغير معتنى بهم فكيف يتوهم فيهم ما يتوهم؟»^(١).

وقال: ﴿وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ فقدم (هم) أي ليسوا هم الذين يصحبون منا وإنما غيرهم هم الذين نعينهم ونكون معهم وننصرهم وهم المؤمنون بي وبرسولي كما قال سبحانه: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩] ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

وقدم (منا) على (يصحبون) أي لا يصحبون منا وإنما يصحبون من غيرنا وهم الذين يعبدونهم ، فهم الذين ينصرونهم ويدفعون عنهم كما قال تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لَّعَلَّهُم يُنصَرُونَ﴾ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمُ جُنْدٌ مُّحْضَرُونَ﴾ [يس: ٧٤ - ٧٥].

وكما قال في قوم إبراهيم: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا إِلَهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨].

فهؤلاء عاجزون لا أحد يمنعهم من الله .

فهم عاجزون وألتههم أعجز فما أضلهم وأخسرهم!!

* * *

﴿بَلْ مَنَعْنَا هَؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ ﴿٤٤﴾

أي نحن حفظناهم ومتعناهم هم وآباءهم وليست ألتههم ولا أحد غيرنا



فلا يغتروا بذلك ويظنوا أنهم سيقون على حالتهم من التمتع والطمأنينة .
أفلا يرون أنا نأتي على دار الكفر وننقصها شيئاً فشيئاً ونمكن منهم
المسلمين فيفتحون ديارهم؟

جاء في (الكشاف): «ثم قال: بل ما هم فيه من الحفظ والكلاءة إنما
هو منا ، لا من مانع يمنعهم من إهلاكنا . وما كلاًناهم وآباءهم الماضين
إلا تمتيعاً لهم بالحياة الدنيا وإمهالاً كما متعنا غيرهم من الكفار وأمهلناهم
حتى طال عليهم الأمد وامتدت بهم أيام الروح والطمأنينة فحسبوا أن لا
يزالوا على ذلك لا يغلّبون ولا ينزع عنهم ثوب أمنهم واستمتاعهم وذلك
طمع فارغ . . .

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا﴾ ننقص أرض الكفر ودار الحرب ونحذف أطرافها
بتسليط المسلمين عليها وإظهارهم على أهلها وردّها دار إسلام . . . وإن
عساكرهم وسرايهم كانت تغزو أرض المشركين وتأتيها غالبية عليها
ناقصة من أطرافها»^(١).

وقال: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا﴾ و﴿أَنَّا نَأْتِي﴾ و﴿نَقْصُهَا﴾ بإسناد ذلك إلى ضميره
سبحانه ليدل على أن ذلك كله بإرادته وحوله وقوته وليس بما جرت عليه
الأحوال ، وإنما هو بتسليطنا جيوش المسلمين عليهم . وكان الأصل أن
يقال: (يأتي جيوش المسلمين فيغلبونهم) ولكنه أسند الإتيان إليه سبحانه
لأن ذلك بنصره وتأنيده .

جاء في (روح المعاني): «وكان الأصل: يأتي جيوش المسلمين ، لكنه
أسند الإتيان إليه عز وجل تعظيماً لهم [أي تعظيماً لجيوش المسلمين]
وإشارة إلى أنه بقدرته تعالى ورضاه . وفيه تعظيم للجهد والمجاهدين»^(٢).

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٩ .

(٢) روح المعاني ١٧ / ٥٣ .



قد تقول: لقد قال في الرعد: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا﴾ [الرعد: ٤١].

فقال: (أولم) بإدخال (لم) على الفعل .
ومن المعلوم أن (لم) تقلب زمن المضارع إلى الماضي .
في حين قال في آية الأنبياء: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ بإدخال (لا) على الفعل المضارع .
و(لا) الداخلة على المضارع تصرفه إلى الاستقبال غالباً وقد تكون للحال .

فكان السؤال عن الرؤية في الرعد في الماضي .
وأما في الأنبياء فالسؤال عن الرؤية في الحال والاستقبال ، فلم ذاك؟
والجواب أنه قال بعد آية الرعد: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ .

وهذا إخبار عن ماض ، فذكر ما فعله ربنا بهم ، فناسب إدخال (لم) التي تفيد الماضي .
في حين قال في الأنبياء: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ وهذا إنذار وتخويف مما يقع لهم في المستقبل .
وقال: ﴿وَلَيْنَ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ .

وهذا تحذير لهم مما يقع في المستقبل ، فناسب إدخال (لا) وذلك تذكير لهم بما يحصل لهم في الحال والاستقبال . والله أعلم .



﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾^(١)

شبه المخاطبين بالإنذار المدعوين إلى الإسلام بالصم. فهو بدل أن يقول: (وهؤلاء لا يسمعون الإنذار ولا يلتفتون إليه) قال: ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ﴾ فهم أشبه بالصم فلا ينفع معهم إنذار.

وذكر نفي السمع لأن الإنذار مما يسمع. جاء في (الكشاف): «فإن قلت: الصم لا يسمعون دعاء المبشر كما لا يسمعون دعاء المنذر، فكيف قيل: ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾؟»

قلت: اللام في (الصم) إشارة إلى هؤلاء المنذرين كائنة للعهد لا للجنس.

والأصل: ولا يسمعون إذا ما ينذرون. فوضع الظاهر موضع المضممر للدلالة على تصامهم وسدّهم أسماعهم إذا أنذروا. أي هم على هذه الصفة من الجراءة والجسارة على التصام من آيات الإنذار»^(١).

وجاء في (البحر المحيط): «ولما كان الوحي من المسموعات كان ذكر الصمم مناسباً.

والصم هم المنذرون، ف (أل) فيه للعهد»^(٢).

وقال: ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ﴾ ولم يقل: (ولا يسمع الصم الكلام) لأن الدعاء يكون عادة برفع الصوت. فإن هؤلاء حتى لو رفع الصوت لا يسمعون له للدلالة على شدة تصامهم.

جاء في (تفسير أبي السعود): «كما أن إثارة الدعاء الذي هو عبارة عن الصوت والنداء على الكلام لذلك فإن الإنذار عادة يكون بأصوات عالية

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٩.

(٢) البحر المحيط ٦ / ٣١٥.



مكررة مقارنة لهيئات دالة عليه»^(١).

وقال: (إذا ما يندرون) بالفعل المضارع ، ولم يقل: (إذا ما أنذروا) أي ولو تكرر دعاؤهم وإنذارهم.

جاء بـ (ما) الزائدة المؤكدة للدلالة على أنهم لا يسمعون ولو بولغ في إنذارهم ورفع الصوت بذلك وتكرر.

ففي التعبير أكثر من دلالة على شدة تصامهم ، منها: أنه وصفهم بالصمم.

وأنه ذكر الدعاء وهو رفع الصوت.

وجاء بـ (إذا) الدالة على تحقق الإنذار ولم يأت بـ (إن).

وجاء بـ (ما) الزائدة المؤكدة.

وجاء بالفعل المضارع الدال على تكرار الإنذار.

قد تقول: لقد قال في النمل: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾^(٨٠).

ونحوه قال في الروم ٥٢.

فختم الآيتين بقوله: ﴿إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ ، في حين ختم آية الأنبياء بقوله: ﴿إِذَا مَا يَنْذُرُونَ﴾.

فلم الاختلاف بين الخاتمتين؟

فنقول: أما خاتمة آية الأنبياء فظاهرة المناسبة لأول الآية وهو قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنْذَرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ فكلاهما في الإنذار.

وأما آيتا النمل والروم فقد قال في أولهما: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى﴾ ،

(١) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٠٦.



والموت إِدبار عن الحياة ، فناسب ذكر الإِدبار في قوله : ﴿ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾
قوله : ﴿ إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى ﴾ .

فكلاهما مدبر ، أحدهما مدبر عن الحياة ، والآخر مدبر عن السماع
فهم بمنزلة الأموات .

* * *

﴿ وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَنْوِيلُنَا إِنَّا كُنَّا
ظَالِمِينَ ﴾ (٤٦)

أي ولئن أصابهم أدنى شيء مما أُنذروا به في قوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَا
أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ ﴾ لنادوا بالويل وأقروا بالظلم .

وفي التعبير عدة مبالغات ، منها :

التعبير بالمس في قوله : ﴿ وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ ﴾ ، والمس دون النفوذ ، أي
ولئن أصابهم أدنى شيء .

والتعبير بالنفح وما فيه من لفظ القلة والنزارة ، فإن أصل النفح هبوب
رائحة الشيء أو العطاء اليسير .

وبناء المرة في قوله : (نفحة) أي نفحة واحدة يسيرة من رائحة العذاب
لنادوا بالويل وقالوا : (يا ويلنا) .

وإقرارهم بالظلم واتصافهم به على جهة الثبوت .

وأكد ذلك بالقسم في قوله : (ولئن) ، والجواب في : (ليقولن)
وتوكيده بالنون الثقيلة ، والتوكيد بـ (إن) في قوله : (إننا كنا) ، والإقرار
بالظلم على جهة الثبوت بالصيغة الاسمية .

وأضاف العذاب إلى الرب مضافاً إلى كاف المخاطب لأنه هو الذي
أُنذِرهم بالوحي من ربه .



جاء في (الكشاف) ﴿وَلَيْنَ مَسَّتْهُمْ﴾ من هذا الذي يندرون به أدنى شيء لأذعنوا وذلوا وأقروا بأنهم ظلموا أنفسهم حين تصاموا وأعرضوا. وفي المس والنفحة ثلاث مبالغات ، لأن النفح في معنى القلة والنزارة... نفحه بعطية: رضخه ، ولبناء المرة^(١).

وجاء في (روح المعاني): «ذكر المس وهو دون النفوذ ويكفي في تحقيقه إيصال ما.

وما في النفح من معنى النزارة فإن أصله هبوب رائحة الشيء... نفحه بعطية: رضخه وأعطاه يسيراً.

وبناء المرة وهي لأقل ما ينطلق عليه الاسم.

وجعل السكاكي التنكير رابعتها لما يفيد من التحقير»^(٢).

* * *

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾^(٤٧)

لما ذكر إقرار المندرين بالظلم على وجه الثبوت في الآية السابقة بقولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ذكر ربنا أنه عنده لا تظلم نفس شيئاً مهما قل ، وأن أعمال العباد إنما توزن بميزان هو العدل بعينه فقال :

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ فوصف الموازين بالمصدر وهو القسط ، أي هي العدل بعينه. ومن المعلوم أن الوصف بالمصدر يفيد المبالغة في الاتصاف بالشيء.

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٩ - ٣٣٠ ، وانظر البحر المحيط ٦ / ٣١٦.

(٢) روح المعاني ١٧ / ٥٤.

وجيء بالموازين على صيغة الجمع إما لكثرة من توزن أعمالهم أو لتعدد الموزونات وتنوعها^(١).

وقوله: (ليوم القيامة) قيل: أي في يوم القيامة ، أو عند يوم القيامة ، ويحتمل أن يكون للتعليل ، أي لأجل يوم القيامة^(٢).

وكل ذلك محتمل .

﴿ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾

نكر النفس لتشمل جميع النفوس .

و(شيئًا) يحتمل أن يكون معناه شيئًا من الأشياء فيكون مفعولاً به ، كما يحتمل أن يكون: شيئًا من الظلم فيكون مفعولاً مطلقاً لدلالته على المصدر .

وكلا المعنيين مراد .

فهي لا تظلم شيئًا من الأشياء ولا شيئًا من الظلم . وهو من التوسع في المعنى . ولو قال: (شيئًا من الظلم) لتخصص المعنى بشيء واحد ، ولكنه أطلق .

جاء في (الكشاف): «وصفت الموازين بالقسط ، وهو العدل ، مبالغة ، كأنها في أنفسها قسط ، أو على حذف المضاف ، أي ذوات القسط .

واللام في: (ليوم القيامة) مثلها في قولك: (جئته لخمس خلون من الشهر)...

(١) انظر التفسير الكبير للرازي ، المجلد ٨ / ١٤٩ ، نظم الدرر ١٢ / ٤٢٨ .

(٢) انظر مغني اللبيب (اللام) ١ / ٢١٦ ، الكشاف ٢ / ٣٣٠ ، البحر المحيط ٦ / ٣١٦ .



وقيل: لأهل يوم القيامة ، أي لأجلهم»^(١) .

وجاء في (تفسير أبي السعود): «(فلا تظلم نفس) من النفوس (شيئاً) حقاً من حقوقها أو شيئاً من الظلم... والفاء لترتيب انتفاء الظلم على وضع الموازين»^(٢) .

﴿وَإِنْ كَانَتْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾

أي وإن كان الشيء أو العمل مقدار حبة من خردل أتينا به .

«ومثقال الشيء ميزانه في مثله . ومثقال ذرة أي وزن ذرة»^(٣) ، ومثقال حبة أي وزن حبة .

وأنث ضمير المثقال في قوله: (أتينا بها) لأنه أضيف إلى مؤنث وهو الحبة كقولهم: (ذهبت بعض أصابعه)^(٤) ، وقوله: (كما شرقت صدر القناة من الدم) ، وقوله: (تواضعت سور المدينة) في قول الشاعر: لما أتى خبر الزبير تواضعت سور المدينة والجبال الخشع والعدول من التذكير إلى التأنيث في قوله: ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ على كثرته في اللغة في نحو هذا فيه معنى لطيف .

ذلك أنه قال: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً﴾ والشيء - كما ذكرنا - يحتمل أن يكون معناه العمل أو الظلم أو شيئاً من الأشياء . وهذا الشيء قد يكون حبة من خردل أو مقدار الحبة فأعاد الضمير بالتأنيث ليشمل المعنيين: المصدر وحبة الخردل ومقدار ذلك .

(١) الكشف ٢ / ٣٣٠ وانظر البحر المحيط ٦ / ٣١٦ .

(٢) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٠٧ .

(٣) لسان العرب (ثقل) ، المصباح المنير (ثقل) ، تاج العروس (ثقل) .

(٤) انظر الكشف ٢ / ٣٣٠ .



وهذا من لطيف الدلالة .

﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيبِينَ﴾

«فيه توعده وهو إشارة إلى ضبط أعمالهم من الحساب ، وهو العد والإحصاء . . .

والظاهر أن (حاسبين) تمييز . . . ويجوز أن يكون حالاً»^(١).

* * *

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءَ وَذِكْرًا لِّلْمُنَاقِبِ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾

* * *

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءَ وَذِكْرًا لِّلْمُنَاقِبِ ﴿٤٨﴾﴾

لما ذكر الإنذار بالوحي قبل هذه الآية في قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ والوحي هو القرآن ناسب ذكر ما أتى موسى وهارون وهو ما ذكره في الآية .

وقد بدأ بقصة موسى وهارون وذكر ما آتاها من الفرقان والذكر مناسبة لما ذكره بعد الآية مما أنزله ربنا على رسوله من الذكر ، ولم يذكر أنه أنزل على المذكورين من الأنبياء في السورة كتاباً أو ذكراً ، فناسب البدء بذكر موسى مناسبة للسياق الذي ورد فيه ذكرهما .

وجاء في (التحرير والتنوير) أنه: «ابتدئ بذكر موسى وأخيه مع قومهما لأن أخبار ذلك مسطورة في كتاب موجود عند أهله يعرفهم العرب»^(٢).

(١) البحر المحيط ٦ / ٣١٧ .

(٢) التحرير والتنوير ١٧ / ٨٨ .



إن التعبير في الآية يحتمل أكثر من دلالة :

فالفرقان يحتمل أن يكون التوراة ، ويحتمل أن يكون الآيات الدالة على صدقه من المعجزات .

والضياء يحتمل أن يكون المقصود به التوراة أيضاً ، فإنها ضياء . وهي ذكر للمتقين وموعظة . وقيل : هي شرف لهم لأن من معاني الذكر الشرف .

وهو قد يفرق بين الكتاب والفرقان بالعطف وذلك نحو قوله سبحانه : ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة : ٥٣] .

وقد يجعل النور حالاً للكتاب ، قال سبحانه : ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾ [الأنعام : ٩١] .

وذكر ههنا أنها ضياء ، ولم يذكر ذلك في موضع آخر ، وإنما يذكر أنها نور كما في آية الأنعام السابقة ، أو فيها نور كما في قوله : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ [المائدة : ٤٤] .

ذلك «أن النور أعم من الضياء ، والضياء حالة من حالات النور ، وهو أخص منه . . .

وقد ذكر في آية الأنبياء أنه : ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٤٨) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنْ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ ، وهم أخص ممن ذكر في الآيتين الآخرين . فقد قال في آية المائدة : ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ أي لليهود ، والمتقون أخص من اليهود وهم جزء منهم .

وقال في آية الأنعام : ﴿الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾ فجعله للناس . وهم أعم من المتقين المذكورين في آية الأنبياء . والمتقون جزء منهم .



فجعل النور الذي هم أعم من الضياء للذين هم أعم ، وهم اليهود والناس . وجعل الضياء الذي هو أخص للذين هم أخص ، وهم المتقون الذين يخشون ربهم وهم من الساعة مشفقون .

فناسب العموم العموم ، والخصوص الخصوص .

من ناحية أخرى أن الضياء إنما هو الساطع من النور أو هو التام منه ^(١) . وإن المتقين إنما هم جماعة ساطعة من بين عموم المؤمنين أو الناس وحالهم أتم وأكمل .

فناسب بين سطوع المتقين وسطوع النور وهو الضياء .

فالمتقون من بين عموم المؤمنين كالضياء من النور ^(٢) .

جاء في (الكشاف): «أي آتيناهما الفرقان وهو التوراة وآتيناه به ضياء وذكرًا للمتقين .

والمعنى : أنه في نفسه ضياء وذكر . أو آتيناهما بما فيه من الشرائع والمواعظ ضياء وذكرًا . . . والذكر : الموعظة ، أو ذكر ما يحتاجون إليه في دينهم ومصالحهم ، أو الشرف ^(٣) .

وجاء في (البحر المحيط): «وقالت فرقة : الفرقان ما رزقه الله من نصره وظهور حجته وغير ذلك مما فرق بين أمره وأمر فرعون .

والضياء : التوراة ، والذكر : التذكرة والموعظة . . .

والعطف بالواو يؤذن بالتغاير ^(٤) .

(١) انظر تفسير الرازي ٦ / ٢٠٩ .

(٢) أسئلة بيانية في القرآن الكريم ١ / ٢٠٠ - ٢٠١ .

(٣) الكشاف ٢ / ٣٣٠ .

(٤) البحر المحيط ٦ / ٣١٧ .



وجاء في (روح المعاني): «والمراد بالفرقان التوراة ، وكذا بالضياء والذكر . والعطف كما قوله :

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتبية في المزدحم ونقل الطيبي أنه أدخل الواو على (ضياء) وإن كان صفة في المعنى دون اللفظ كما يدخل على الصفة التي هي صفة لفظاً . . .

وقال سيبويه : إذا قلت : (مررت بزید وصاحبك) جاز ، وإذا قلت : (مررت بزید فصاحبك) بالفاء لم يجز»^(١) .

* * *

﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ (٤٩)

ذكر من صفات المتقين خشية ربهم بالغيب والإشفاق من الساعة .

والخشية «خوف يشوبه تعظيم ، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه ، ولذلك خص العلماء بها في قوله : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر : ٢٨]»^(٢) .

والإشفاق شدة الخوف^(٣) .

لقد ذكر أنهم يخشون ربهم بالغيب ، وقيل : إن قوله : (بالغيب) يعني أنهم يخافونه ولم يروه ، وقيل : إنهم يخافونه من حيث لا يراهم أحد^(٤) وذلك عند مغيب الإنسان عن عيون البشر ، أي في الخلوة^(٥) .

(١) روح المعاني ١٧ / ٥٧ .

(٢) مفردات الراغب (خشي) .

(٣) البحر المحيط ٦ / ٣١٧ .

(٤) البحر المحيط ٦ / ٣١٧ .

(٥) البحر المحيط ٧ / ٣٢٥ .



وقد ذكر هنا أنهم يخشون ربهم بالغيب ، ففيد الخشية بالغيب .
وأطلق الخشية في أكثر من موطن وذلك نحو قوله : ﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾
[الرعد : ٢١] .

وقد فصلنا القول في التقييد والإطلاق في هذا التعبير في قوله تعالى
في سورة يس : ﴿ إِنَّمَا نُنذِرُ مَنْ أَتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبِ ﴾^(١) فلا نعيد القول فيه .

وقال : ﴿ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ بذكر الرب المضاف إلى ضميرهم ؛ لأن
الرب هو المربي والهادي والمعلم ، وأن الفرقان والضياء إنما هما
للهداية فناسب ذكر الرب .

وقال : ﴿ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ بالفعل المضارع الدال على التجدد ،
فإن الفعل المضارع قد يدل على الاستمرار والتجدد نحو قوله سبحانه :
﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ [البقرة : ٢٥٨] ، وقوله : ﴿ وَاللَّهُ يَقْضِي وَيَبْصُطُ ﴾
[البقرة : ٢٤٥] وقوله ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ
مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾^(٢) تُولِجُ
الَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ
وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : ٢٦ - ٢٧]^(٢) .

ذلك أن خشية الله تتجدد في كل لحظة فجاء بها بالفعل المضارع الدال
على الاستمرار .

وذكر اتصافهم بالإشفاق من الساعة بالصيغة الاسمية الدالة على
الثبات ، ذلك أنها ساعة الحساب على الأعمال ، وهم يخافون على

(١) انظر كتابنا (على طريق التفسير البياني - ج ٢) تفسير سورة يس .

(٢) انظر (معاني النحو - ج ٣) - زمن الفعل المضارع .



الدوام مما عملوه: ما مضى منه ، وما هم فيه من العمل ، وما سيعملونه في المستقبل ، فجاء بها بالصيغة الاسمية الدالة على الدوام والثبات ؛ ذلك لأنها متعلقة بحياة الإنسان كلها الماضية والحالية والمستقبلية .

جاء في (البحر المحيط): «وتكون الصلة الأولى مشعرة بالتجدد دائماً كأنها حالتهم فيما يتعلق بالدنيا .

والصلة الثانية من مبتدأ ومخبر عنه بالاسم المشعر بثبوت الوصف كأنها حالتهم فيما يتعلق بالآخرة»^(١) .

وجاء في (تفسير أبي السعود): «وإيثار الجملة الاسمية للدلالة على ثبات الإشفاق ودوامه»^(٢) .

وقدم الساعة على العامل في قوله: ﴿وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ لأنه ذكر المتقين وهم الذين يحذرون ويتحفظون في أعمالهم لئلا يصيبهم منها سوء في الآخرة . وإنما ذلك يحصل في الساعة فقدمها .

ثم إن الكلام على الساعة تردد في السورة في أكثر من موضع :
فقد ابتدأت السورة باقتراب الحساب للناس وذلك قوله: ﴿أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ .

وختمت بذلك وذلك قوله: ﴿وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ [الأنبياء: ٩٧ - ١٠٤] .

وتقدم الآية الكلام على الساعة وذلك قوله: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾^(٤٧) .
فناسب ذلك تقديمها .

(١) البحر المحيط ٦ / ٣١٧ .

(٢) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٠٨ .

جاء في (تفسير أبي السعود) أن «تقديم الجار لمراعاة الفواصل وتخصيص إشفاقهم منها بالذكر بعد وصفهم بالخشية على الإطلاق للإيذان بكونها معظم المخوفات ، وللتنصيص على اتصافهم بضد ما اتصف به المستعجلون»^(١).

* * *

﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴾

إن هذه الآية مناسبة لما ذكر قبلها من إيتاء موسى وهارون الفرقان ضياء وذكرًا للمتقين .

وأشار بقوله: ﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ ﴾ إلى القرآن ، أي هذا كتاب كثير البركة غزير النفع والخير .

والإشارة إلى الذكر هنا مناسبة لما ذكره من الذكر في الآية السابقة .

جاء في (تفسير أبي السعود): «(ذكر) . . . وصف بالوصف الأخير للتوراة لمناسبة المقام وموافقة لما مر في صدر السورة الكريمة»^(٢).

ووصف الذكر بأنه مبارك وقدم الوصف بذلك على الإنزال .

قد تقول: لقد قال في سورة الأنعام: ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾^(٣).

فقال في الأنعام: ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ ﴾ .

وقال ههنا: ﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ ﴾ .

(١) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٠٨ .

(٢) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٠٨ .



وقدم الإنزال على وصفه بأنه مبارك في الأنعام فقال: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾.

وقدم الوصف بالبركة على الإنزال في آية الأنبياء.

فلم ذاك؟

فنقول: إن كل تعبير مناسب للموطن الذي ورد فيه.

فقد قال قبل آية الأنعام: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾ (١).

فقد ذكر قول القائلين: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ فأنكروا الإنزال أصلاً.

ثم قال: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾.

فقدم الإنزال على كونه مباركاً لأنه هو مدار الإنكار والاهتمام فقال: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾. ولما كان الله قد أنزله فهو مبارك ولا شك.

ولما ذكر الكتاب في الآية فقال: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ﴾ ناسب أن يقول في الآية بعدها: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾.

فناسب ذكر الكتاب في آية الأنعام سياقه، وناسب ذكر (الذكر) في الأنبياء سياقه. وناسب تقديم الإنزال على كونه مباركاً في آية الأنعام.

ولما لم يذكر الإنكار للإنزال في آية الأنبياء قدم عليه ذكر الوصف بالبركة.

ثم قال: ﴿أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ استفهام إنكار وتوبيخ للمشركين (١).

وقدم الجار والمجرور (له) على الخبر (منكرون) لأن الكلام عليه.



جاء في (البحر المحيط): «لما ذكر وقرر أن إنكار من أنكر أن يكون الله أنزل على البشر شيئاً وحاجهم بما لا يقدرّون على إنكاره أخبر أن هذا الكتاب الذي أنزل على الرسول مبارك كثير النفع والفائدة.

ولما كان الإنكار إنما وقع على الإنزال فقالوا: (ما أنزل الله) وقيل: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ﴾ كان تقديم وصفه بالإنزال أكد من وصفه بكونه مباركاً ، ولأن ما أنزل الله تعالى فهو مبارك قطعاً ، فصارت الصفة بكونه مباركاً كأنها صفة مؤكدة إذ تضمنها ما قبلها.

فأما قوله: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ فلم يرد في معرض إنكار أن ينزل الله شيئاً بل جاء عقب قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُنْفِقِينَ﴾ ذكر أن الذي آتاه الرسول هو ذكر مبارك.

ولما كان الإنزال يتجدد عبر بالوصف الذي هو فعل ، ولما كان وصفه بالبركة وصفاً لا يفارق عبر بالاسم الدال على الثبوت»^(١).

* * *

(١) البحر المحيط ٤ / ١٧٩.



قصة سيدنا إبراهيم

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ عَابِدُونَ لَهَا عَلَى كُفُونٍ ﴿ ٥٢ ﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبَادِينَ ﴿ ٥٣ ﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿ ٥٤ ﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴿ ٥٥ ﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿ ٥٦ ﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدِيرِينَ ﴿ ٥٧ ﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿ ٥٨ ﴾ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُمْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿ ٥٩ ﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿ ٦٠ ﴾ قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَى عَيْنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿ ٦١ ﴾ قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿ ٦٢ ﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿ ٦٣ ﴾ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿ ٦٤ ﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿ ٦٥ ﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿ ٦٦ ﴾ أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿ ٦٧ ﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿ ٦٨ ﴾ قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿ ٦٩ ﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿ ٧٠ ﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿ ٧١ ﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿ ٧٢ ﴾ ﴿

ورد هذا الجانب من قصة إبراهيم - أي محاجة إبراهيم لأبيه وقومه ودعوته لهم - في سورة الأنعام ومريم والأنبياء والشعراء والعنكبوت والصفات والزخرف ، غير أنها لم تتكرر ، بل ورد في كل موضع



ما يناسب السياق وما يراد أن يسَلِّط عليه من الضوء .

ففي سورة الأنعام وهو أول موضع ورد فيه هذا الجانب كان الكلام مع أبيه متعجباً مع الإنكار من أن يتخذ أصناماً آلهة . قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَزَرَ اتَّخَذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٧٤) .

وهو أول موضع ذكر اسم أبيه (آزر) ولم يكرره في موضع آخر ، فاكتفى بذكره في الموضع الأول .

كان الخطاب لأبيه وحده : ﴿ اتَّخَذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ﴾ ولم يقل : (أنتخذون) فكان الحديث مع الأب .

ثم قال : ﴿ إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أي هذا ما يراه هو ، ولم يذكر أنه جاءه بذلك وحي أو علم . فهو لم يقل له : (إنك وقومك في ضلال مبين) بل قال إن هذا ما يراه .

ثم ذكرت القصة كيف اهتدى إلى ربه بالنظر في ملكوت السماوات والأرض ، إذ رأى كوكباً فقال : هذا ربي ، حتى إذا أفل قال : لا أحب الآفلين .

ثم رأى القمر ، فقال : هذا ربي ، حتى إذا أفل قال لئن لم يهديني ربي لأكونن من القوم الضالين .

ثم رأى الشمس فقال هذا ربي هذا أكبر ، فلما أفلت تبرأ من شرك قومه وخاطب قومه معلناً براءته من شركهم وإيمانه بمن فطر السماوات والأرض .

وحاجّه قومه في ذلك فذكر لهم إيمانه بالله وأنه لا يخاف معبوداتهم التي يشركونها بالله (الآيات ٧٤ - ٨١) .

وأما في سورة مريم فالقصة تبين أمراً آخر ، إذ سأل أباه أنه لم يعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنه شيئاً ؟

ثم ذكر أنه قد جاءه من العلم ما لم يأتيه .



وهذه مرحلة غير الحالة الأولى .

فما ذكره في الأنعام أنه يراه وقومه في ضلال مبين ، أي هذا ما يراه .
أما في مريم فإنه ذكر لأبيه أنه قد جاءه من العلم ما لم يأت ، وأنه طلب
منه أن يتبعه ليهديه الصراط السوي .

وهذا ما لم يذكره في الأنعام .

فكان هذه مرحلة تتلو المرحلة الأولى قبلها .

ثم إن موقف أبيه منه قد تغير الآن ، فإن أباه هدده بالرجم إن لم ينته ،
وأنه طلب منه أن يهجره . وقد أكد ذلك بالقسم : ﴿لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ
وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا﴾ .

وكان موقف إبراهيم في غاية حسن الأدب وتمني الهداية لأبيه قائلاً
له : ﴿قَالَ سَلِمْتُ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ (٤٧) .

كما إن موقفه مع قومه قد اختلف .

ففي الأنعام ذكر المحاجة مع قومه وانتهى الأمر عند ذاك .

أما في هذه السورة سورة مريم فقد ذكر أنه سيعتزلهم وما يدعون من
دون الله . وقد اعتزلهم فعلاً ، فقد قال لقومه : ﴿واعتزلكم وما تدعون من
دون الله وأدعوا ربِّي عسى ألا أكون بدعاء ربِّي شقيًّا﴾ (٤٨) .

ثم نفذ هذا الأمر فاعتزلهم . وقد أخبر ربنا بذلك فقال : ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ
وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ (٤٩) .

فما ورد في سورة مريم كأنه استكمال لما ورد في الأنعام . وهو الحالة
الطبيعية في مواقف الحياة .

وهذا ما ورد من القصة في سورة مريم :

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَّبِعْ مَا لَا

يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٦﴾ يَتَأْتٍ إِيَّيَ قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٧﴾ يَتَأْتٍ لَا تَعْبُدُ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٨﴾ يَتَأْتٍ إِيَّيَ أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٩﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ إِلَهِي يَتَّبِعُهُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا ﴿٥٠﴾ قَالَ سَلِمَ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ فِي حَفِيًّا ﴿٥١﴾ وَأَعْتَزْلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٥٢﴾ فَلَمَّا أَعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٥٣﴾

وأما ما ورد في سورة الأنبياء فالأمر مختلف .

فإن الموقف قد اختلف ، فالمحاجة قد اختلفت في الشدة ، وإن العاقبة قد اختلفت .

فالخطاب كان للأب في سورتي الأنعام ومريم . وأما في هذه السورة فكان الخطاب عامًا لأبيه وقومه : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ .

ولم يذكروا أمرًا في الإجابة عن هذا السؤال سوى أنهم وجدوا آباءهم لها عابدين .

فقال لهم : ﴿ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ فأخبرهم أنهم كانوا هم وآباؤهم في ضلال مبين . ولم يقل كما قال في الأنعام : ﴿ إِيَّيَّكَ أَرْكَأَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أي هذا ما يراه .

وإنما هو الآن قرر ذلك بعد ما جاءه العلم من ربه .

ثم إنه لم يذكر آباءهم في الأنعام بل ذكر أباه وقومه . أما الآن في سورة الأنبياء فإنهم بعد ما ذكروا أنهم وجدوا آباءهم لها عابدين قال لهم : ﴿ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ فقد ذكرهم وذكر آباءهم وقرر ذلك مؤكدًا بلام القسم (لقد) .



ثم كان عاقبة ذلك أن حطم الأصنام فجعلها جذاذاً إلا كبيراً لهم .
وقرروا إحراقه فلم يفلحوا .

وأما في سورة الشعراء فذكر شيئاً آخر من قصة سيدنا إبراهيم مع أبيه وقومه ، وهو المناقشة والحوار في أمر الأصنام وماذا تستطيع أن تفعله لهم .

وذكر هو ربه وما يفعله له .

فقد قال لأبيه وقومه سائلاً لهم : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ .

فأجابوه قائلين : نعبد أصناماً فنظّل لها عاكفين .

فسألهم قائلًا : هل يسمعونكم إذ تدعون ، أو ينفعونكم أو يضرون ؟

فلم يقولوا له : نعم هم كذلك ، وإنما قالوا : ﴿ بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ .

فأعلن عداوته لهذه الآلهة ولم يعلن عداوته لهم فقال : ﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ .

ثم ذكر ما يفعله له ربه رب العالمين : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾ .

وانتهى الأمر عند هذا الحد ولم يتعد المحاجة والمحاورة .

ثم انتهت القصة بالدعاء لنفسه ولأبيه قائلًا : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا ﴿٨٣﴾ وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاعْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ .



فأنت ترى أنه نفذ ما وعد أباه في سورة مريم أنه سيستغفر له ربه حين قال: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ ﴿١٧﴾ فقد دعا ربه هنا في الشعراء بالمغفرة لأبيه قائلاً: ﴿وَأَغْفِرْ لَأَيِّئِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِينَ﴾ تنفيذاً لما وعد ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ [التوبة: ١١٤].

وأما ما ورد في العنكبوت فكانه استكمال للحديث والمحاورة لما في الشعراء .

إذ بعد أن ذكر لهم ما يفعله ربه له من الخير في الشعراء دعاهم في العنكبوت إلى أن يعبدوا الله ويتقوه ليصيبهم من النعم ما هو خير لهم .

فإنه في الشعراء لم يدعهم إلى عبادة الله وإنما لم يتعد الأمر الحوار والحجاج ، فلما تبين لهم ضعف حجتهم وأن آلهتهم لا تنفعهم شيئاً دعاهم إلى عبادة الله .

فذكر ما يفعله ربه له من النعم في الشعراء .

وذكر في العنكبوت أنهم إن هم عبدوه واتقوه أفاض عليهم بالخير والنعم .

قال تعالى :

﴿وإِبراهيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ يَتَعَبَّدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ ﴿١٨﴾ ... فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ



بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَهُمُ النَّارُ وَمَالَكُمْ مِّن تَّصْرِيتٍ ﴿٢٥﴾ .

فما كانت نتيجة الحوار إلا أن قالوا: (اقتلوه أو حرقوه) فأنجاه الله من النار .

فكان هذا نتيجة الحوار والحديث لما ورد في الشعراء والعنكبوت .

وأما ما ورد في سورة الصافات فإنه مختلف عن كل ما ورد ، فإنه لما ضاق ذرعًا بمحاجتهم وأنهم لا يعباؤون بحجة ولا يستمعون لقول ، وليس عندهم حجة سوى أنهم رأوا آباءهم كذلك مع إقرارهم بأنها لا تسمع أو تنفع أو تضر ، وأنه لم ينفع معهم ترغيب أو ترهيب أخذ يقرعهم ويشدد عليهم في الكلام : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾ ﴿٨٥﴾ .

فلم يقل : (ما تعبدون) كما قال في الشعراء ، وإنما قال لهم : (ماذا تعبدون) فزاد في لفظة الاستفهام لقصد تقريعهم . ذلك أن المقام في الشعراء مقام استفهام ومحاجة ، وفي الصافات مقام تقريع ، يدل على ذلك قوله بعد هذه الآية : ﴿ أَفَبِكَا إِلَهَةٍ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾ ﴿٨٦﴾ .

ثم انتهى الأمر بتحطيم الأصنام وإلقائه في النار^(١) .

ومع أنه ذكر في سورتي الأنبياء والصافات تحطيم الأصنام فإن القصة لم تتكرر فيهما ، فإنه ذكر في كل موضع ما لم يذكره في الآخر .

فإنه هدد في الأنبياء أنه ليكيدين أصنامهم (٥٧) .

وفي الصافات ذكر الحجة التي اعتلّ بها لئلا يخرج معهم في عيدهم فقال : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾^(٢) ولم يذكر ذلك في الأنبياء .

وذكر في الصافات ما لم يذكره في الأنبياء من أنه راغ إلى آلهتهم

(١) انظر كتابنا (التعبير القرآني) ١٢٤ وما بعدها ، درة التنزيل ٣٣٦ .

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٤ / ١٣ ، فتح القدير ٤ / ٣٨٩ .



فقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ﴾.

وذكر في الصفات أنهم قالوا: ﴿أَبْأَلُمُ بُيِّنَاتًا فَأَلْفَوْهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾﴾
ولم يذكر ذلك في الأنبياء.

ثم تسير القصة في الصفات مسارًا آخر غير مسارها في الأنبياء.
فإنه ذكر في الأنبياء أنه نجاه ولوطاً إلى الأرض التي بارك فيها ، وذكر شيئاً من قصة لوط .

وأما في الصفات فقد ذكرت القصة الأمر بذبح ولده وما بعد ذلك .

قال تعالى: ﴿وَإِذْ مِنْ شِيعِنِهِ لِإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَفِيكَمُ إِلَهَةٌ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَى إِلِهِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحُسُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا أَبْأَلُمُ بُيِّنَاتًا فَأَلْفَوْهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ . . . ﴾

وأما في الزخرف وهو آخر موضع وردت فيه هذه القصة فإنه لخص دعوته وخاتمة الأمر بإيجاز .

فقد أعلن لأبيه وقومه براءته مما يعبدون أشد البراءة قائلاً لهم: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ ، واستثنى من ذلك مَنْ فَطَرَهُ فقال: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي﴾ .

وأنه جعل هذه الكلمة باقية في عقبه ، أي في ذريته «فلا يزال فيهم من يوحد الله تعالى ويدعو إلى توحيده عز وجل» ^(١) .



﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي لعله يرجع من يشرك بالله إلى التوحيد .

قال تعالى في الزخرف: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ .

ويمكن تلخيص قسم من أحداث القصة في السور التي ذكرناها بما يأتي :

الدعوة:

كان الحديث موجهًا إلى أبيه في الأنعام ومريم .
وفي الأنبياء والشعراء والصفاء والزخرف موجهًا إلى أبيه وقومه .
وفي العنكبوت كان الكلام موجهًا لقومه ؛ لأن الكلام كان لما هو خير لهم على العموم ، ولأنه ذكر عاقبة الأمم المكذبة . فكان الكلام موجهًا لقومه على العموم .

موقف إبراهيم:

كان موقف إبراهيم في الأنعام لا يعدو المحاجة .
وفي مريم كان اعتزاله لهم ولما يعبدون من دون الله .
وفي الأنبياء والصفاء تحطيم الأصنام مع الاختلاف في التفاصيل .
وفي الشعراء التوسع في الاحتجاج .
وفي العنكبوت ذكر المنافع والترغيب في عبادة الله والترهيب من معصيته .

وفي الزخرف إعلان البراءة مما يعبدون إلا الذي فطره ، وجعل كلمة التوحيد باقية في عقبه .



موقف قومه منه:

في سورة الأنعام ذكر محاجة قومه له ولم يذكر كيف كان الاحتجاج وما كانت حجتهم ، والإلماح إلى أنهم خوفوه آلهتهم فقال لهم إنه لا يخاف ما يشركون به .

وفي مريم ذكر تهديد أبيه له بالرجم .

وفي الأنبياء ذكر سؤال قومه له عمن حطم آلهتهم ، ومحاكمته أمام الناس والقضاء بتحريقه .

وفي الشعراء لم يتعدّ الموقف المحاجة وانقطاعهم أمامه في الحجة .

وفي العنكبوت ذكر عاقبة المحاجة وهي أنهم طلبوا قتله أو تحريقه .

وفي الصافات قرروا أن يبنوا له بنياناً ويلقوه في الجحيم . ولم يذكر البنيان في الأنبياء وإنما ذكر الحكم بتحريقه .

فهناك ذكر الحكم ، وهنا ذكر كيفية تنفيذ الحكم .

عاقبة إبراهيم:

لم يذكر عاقبة إبراهيم في الأنعام سوى أنه ذكر أنه وهب له ذرية صالحة .

وفي مريم ذكر أنه لما اعتزل قومه وما يعبدون من دون الله وهب له إسحاق ويعقوب وجعل كلاهما نبياً .

وفي الأنبياء ذكر أن النار جعلها برداً وسلاماً ، ونجاه ولوطاً إلى الأرض التي بارك فيها ووهب له إسحاق ويعقوب .

ولم يذكر في الشعراء سوى الدعاء لنفسه في الدنيا والآخرة .

وفي العنكبوت ذكر أن الله أنجاه من النار ، وذكر أنه مهاجر إلى ربه ، وأن الله وهب له إسحاق ويعقوب وآتاه أجره في الدنيا ، وفي الآخرة هو من الصالحين .



وفي الصفات ذكر أنهم أرادوا به كيدًا فجعلهم الأسفلين . وأنه بشره بـ غلام حليم ، ثم بشره بإسحاق .

كيفية النجاة:

قال في الأنبياء : إنه قال للنار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم ، ونجاه ولوطًا إلى الأرض التي بارك فيها .

وذكر في العنكبوت أنه أنجاه الله من النار ولم يقل كيف كان ذلك .

وفي الصفات قال : ﴿ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴾ ولم يقل كيف كان ذلك .

ونعود الآن لدراسة القصة دراسة بيانية .

* * *

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾

«الرشد : الاهتداء لوجوه الصلاح» (١) .

وإضافته إليه يعني كل ما يصح ويليق من الرشد أن يكون له . فاستوفى الرشد اللائق به . جاء في (تفسير أبي السعود) : ﴿ ﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ ﴾ أي الرشد اللائق به وبأمثاله من الرسل الكبار ، وهو الاهتداء الكامل المستند إلى الهداية الخاصة الحاصلة بالوحي» (٢) .

قد تقول : ولم لم يقل (آتينا إبراهيم الرشد) أو (رشدًا)؟

فنقول : إن كلمة (الرشد) أعم من (رشدته) ، ولذا لم يستعمل القرآن

(١) الكشف ٢ / ٣٣٠ .

(٢) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٠٨ - ٧٠٩ .



(الرشد) معرفة بآل للأشخاص ، وإنما استعملها لدينه أو سبيله أو نحو ذلك ؛ لأن الرشد أعم من (رشده) كما ذكرنا .

قال تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] .

وقال : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ [الأعراف: ١٤٦] .

وقال : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۖ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۗ ﴾ [الجن: ١ - ٢] .

وأما (رشد) المنكرة فهي تعني أي نوع من الرشد وإن كان قليلاً ، وذلك نحو قوله سبحانه : ﴿ فَإِنْ ءَاسَأْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ [النساء: ٦] .

وهذا شأن عموم العقلاء من خلق الله من المكلفين .

فليس في ذلك مزية خاصة به .

بخلاف قوله : ﴿ ءَايَنَّا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ ﴾ أي رشده الذي يليق به ، فاستوفى جميع الرشد الذي يمكن أن يكون له .

﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾

أي من قبل موسى وهارون المذكورين في الآية السابقة .

﴿ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ «كقوله : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ وهذا من أعظم المدح وأبلغه» ^(١) .

وتقديم الجار والمجرور (به) على (عالمين) لأن الكلام على سيدنا إبراهيم .

* * *



﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ ﴿٥٧﴾

قيل : إن (إذ) إما أن يتعلق بـ (آتيناً) أي آتيناً إبراهيم حين قال لأبيه وقومه رشده .

وقيل : هو متعلق بـ (رشده) أي آتيناه رشده حين قال لأبيه وقومه .
ويحتمل أن يكون متعلقاً بـ (عالمين) أي كنا به عالمين حين قال لأبيه وقومه .

وقيل : أو هو متعلق بمحذوف ، أي اذكر من أوقات رشده حين قال لأبيه وقومه ^(١) .

والذي يبدو لي أن الوجه الأخير هو أولى ، ذلك أن أي تقدير آخر يعني أنما يكون الرشد في ذلك الوقت .

فقولنا : (آتيناه الرشد حين قال لأبيه) يعني أنه آتاه الرشد في ذلك الوقت خصوصاً .

وتعليقه بـ (رشده) يعني أن رشده إنما هو حين قال لأبيه وقومه .
وتعليقه بـ (عالمين) أي أن علمنا إنما كان حين قال لأبيه وقومه .
فكل تعليق بمذكور إنما يتخصص الرشد بذلك الأمر . في حين أن إيتاء الرشد كان عامّاً ، وهذا القول من مظاهر رشده .
وتقديره بـ (اذكر) لا يعني تخصيصاً بوقت دون وقت ، وإنما أراد أن يذكر من حالات رشده ما ذكره لأبيه وقومه .

وبدأ بذكر الأب لأنه الأولى والأهم عنده في إنقاذه مما هو فيه .
جاء في (البحر المحيط) : «وبدأ أولاً بذكر أبيه لأنه الأهم عنده في

(١) انظر الكشف ٢ / ٣٣٠ ، البحر المحيط ٦ / ٣٢٠ .



النصيحة وإنقاذه من الضلال ، ثم عطف عليه (قومه) كقوله: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(١).

﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾

وسؤاله لهم إنما هو من تجاهل العارف إذ هو عالم بذلك ، فهو يعلم لماذا هم عاكفون لها .

جاء في (الكشاف): «قوله: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ﴾ تجاهل لهم وتغاب ليحقر آلهتهم ويصغر شأنها مع علمه بتعظيمهم وإجلالهم لها»^(٢).

وجاء في (التحرير والتنوير): «وهذا من تجاهل العارف استعمله تمهيداً لتخطئتهم بعد أن يسمع جوابهم»^(٣).

والتماثيل هي الصور التي تماثل غيرها من المخلوقات و«التمثال اسم للشيء المصنوع مشبهاً بخلق من خلق الله»^(٤).

ومعنى (عاكفون لها): ملازمون لها «والعكوف الإقبال على الشيء وملازمته على سبيل التعظيم له ، وقيل: اللزوم والاستمرار على الشيء لغرض من الأغراض»^(٥).

«والظاهر أن اللام في (لها) لام التعليل أي لتعظيمها ، وصلة (عاكفون) محذوفة ، أي على عبادتها.

وقيل: ضمن (عاكفون) معنى عابدين فعدها باللام»^(٦).

(١) البحر المحيط ٦ / ٣٢٠.

(٢) الكشاف ٢ / ٣٣٠.

(٣) التحرير والتنوير ١٧ / ٩٤.

(٤) لسان العرب (مثل).

(٥) روح المعاني ١٧ / ٥٩.

(٦) البحر المحيط ٦ / ٣٢٠.



وجاء باسم الفاعل (عاكفون) للدلالة على الدوام، بخلاف قوله تعالى: ﴿وَجَنُوزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٣٨] بالفعل، ذلك أنهم مروا بهم في طريقهم بعد مجاوزتهم البحر فوجدوهم كذلك ولم يكونوا معهم على الدوام ليروا ملازمتهم لها.

* * *

﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾

فأجابوه بأنهم مقلدون لأبائهم.

ولما سألهم عن العكوف بصيغة اسم الفاعل (عاكفون) أجابوه بالعبادة باسم الفاعل (عابدين).

ولما كان السؤال عن التماثيل قدم الجار المتصل بضميرها (لها) عاكفون) ولم يقل: (عاكفون لها). هذا علاوة على أن عبادتهم مقصورة عليها.

فتقديم (لها) على (عابدين) مناسب من ناحيتين:
الأولى: أن السؤال كان على التماثيل فقدم ضميرها.
ثم ان العبادة مختصة بها فقدم ضميرها أيضًا.

* * *

﴿قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾

فقال لهم مؤكداً: إنهم وآباءهم ساقطون في الضلال الظاهر البين منغمسون فيه.

وقال: (في ضلال) بـ (في) الظرفية ولم يقل: (ضالين) للدلالة على انغماسهم في الضلال فلا يتبينون الحق وأن الضلال «قد أحاط



بكم إحاطة الظرف بالمظروف»^(١).

جاء في (روح المعاني): «وفي اختيار (في ضلال) على (ضالين) ما لا يخفى من المبالغة في ضلالهم.

وفي الآية دليل على أن الباطل لا يصير حقاً بكثرة المتمسكين به»^(٢). وقال: (مبين) للدلالة على أن هذا الضلال ظاهر غير خفي.

جاء في (تفسير أبي السعود): «(مبين) أي ظاهر بين بحيث لا يخفى على أحد من العقلاء كونه كذلك»^(٣).

* * *

﴿قَالُوا أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ﴾^(٥٥)

حسبوا أن ما قاله لهم إنما هو من باب المزاح ، فقالوا له: أنت جاد أم مازح؟

«وفي إيراد الشق الأخير بالجملة الاسمية الدالة على الثبات إيذان برجحانه عندهم»^(٤).

* * *

﴿قَالَ بَلْ زَيْكُمُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾^(٥٦)

ذكر أمرين لمن يستحق العبادة ولا يستحقها غيره.

الأمر الأول: أنه رب السماوات والأرض.

(١) نظم الدرر ١٢ / ٤٣٦.

(٢) روح المعاني ١٧ / ٥٩.

(٣) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٠٩.

(٤) تفسير أبي السعود ٣ / ٧١٠ وانظر البحر المحيط ٦ / ٣٢١.



الأمر الآخر: أنه هو الذي فطرهن وأوجدهن من العدم.

وذلك هو الله ولا رب غيره ولا يستحق أن يعبد سواه.

جاء في (تفسير أبي السعود): «وصفه تعالى بإيجادهن إثر وصفه تعالى بربوبيته تعالى لهن تحقيقاً للحق وتنبهًا على أن ما لا يكون كذلك بمعزل من الربوبية. أي أنشأهن بما فيهن من المخلوقات التي من جملتها أنتم وآبائكم وما تعبدونه»^(١).

وجاء في (البحر المحيط): «ثم أضرب عن قولهم وأخبر عن الجد وأن المالك لهم والمستحق العبادة هو ربهم ورب هذا العالم العلوي والعالم السفلي المندرج فيه أنتم ومعبوداتكم»^(٢).

وهذان الأمران من الاستدلال احتج بهما القرآن على من يعبد غير الله من الكفار، فإنهم يقرون بذلك ولا ينكرونه ومع ذلك يعبدون غيره. فقد أمر سبحانه رسوله أن يسأل الكفار المعاندين قائلًا له: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقُوتُ ﴿المؤمنون: ٨٦ - ٨٧﴾.

وقال: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿المؤمنون: ٨٤ - ٨٥﴾.

فهو الرب وهو المالك للأرض ومن فيها.

بل هو مالك كل شيء كما يقرون ويعترفون. قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُحْيِي وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنِّي تُسْحَرُونَ ﴿المؤمنون: ٨٨ - ٨٩﴾.

(١) تفسير أبي السعود ٣ / ٧١٠.

(٢) البحر المحيط ٦ / ٣٥.

ثم ذكر أنك لو سألتهم من خلق السماوات والأرض لقالوا: هو الله .
قال تعالى: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ
لَيَقُولَنَّ اللَّهُ فَإِنِّي يَوْمَئِذٍ نَفُوكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦١] .

فهم يقرون بأنه رب السماوات والأرض وأنه هو الذي خلقهن ، ومع ذلك فهم يعبدون غيره .

﴿ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾

وشهادته على ذلك إنما هي بإقامة الحجة عليهم .

جاء في (الكشاف): «وشهادته على ذلك إدلاؤه بالحجة عليه ،
وتصحيحه بها ، كما تصحح الدعوى بالشهادة ، كأنه قال: وأنا أبين ذلك
وأبرهن عليه كما تبين الدعاوى بالبينات ، لأنني لست مثلكم فأقول
ما لا أقدر على إثباته بالحجة ، كما لم تقدرُوا على الاحتجاج لمذهبكم ،
ولم تزيدُوا على أنكم وجدتم عليه آباءكم» ^(١) .

وجاء في (التفسير الكبير) للرازي في قوله: ﴿ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾
أن في ذلك وجهين:

«الأول: أن المقصود منه المبالغة في التأكيد والتحقيق ، كقول الرجل
إذا بالغ في مدح أحد أو ذمه: أشهد أنه كريم .

والثاني: أنه عليه السلام عنى بقوله: ﴿ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾
ادعاء أنه قادر على إثبات ما ذكره بالحجة ، وأنني لست مثلكم فأقول ما لا
أقدر على إثباته بالحجة ، كما لم تقدرُوا على الاحتجاج لمذهبكم ولم
تزيدُوا على أنكم وجدتم عليه آباءكم» ^(٢) .

(١) الكشاف ٢ / ٣٣١ .

(٢) التفسير الكبير ٨ / ١٥٣ .



إن إبراهيم عليه السلام بين أمرين في الاحتجاج :

أمرًا قوليًا ، وهو الاحتجاج بربوبية السماء والأرض ومن فطرهن .

وأمرًا فعليًا وهو تحطيمه للأصنام التي يعبدونها ليدل على أنها غير قادرة على الدفع ، فهي لا تستطيع أن تدفع الضرر عن نفسها ، وبالأولى أنها لا تستطيع أن تدفع عن الغير . وعلى أية حال فهي لا تضر ولا تنفع . فهي لا تستحق أن تعبد .

جاء في (التفسير الكبير) للرازي : «اعلم أن القوم لما أوهموا أنه يمازح بما خاطبهم به في أصنامهم أظهر عليه السلام بما يعلمون أنه مجد في إظهار الحق الذي هو التوحيد بالقول أولاً وبالفعل ثانيًا .

أما الطريقة القولية فهي قوله : ﴿ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ ﴾ وهذه الدلالة تدل على أن الخالق الذي خلقهما لمنافع العباد هو الذي يحسن أن يعبد . . .

وأما الطريقة الفعلية فهي قوله : ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدِيرِينَ ﴾ فإن القوم لما لم ينتفعوا بالدلالة العقلية عدل إلى أن أراهم عدم الفائدة في عبادتها» ^(١) .

* * *

﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدِيرِينَ ﴾ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾

جاء بالتاء في القسم بالله ليدل على عظيم ما سيأتي به ، فإن التاء تدل على التعظيم والتفخيم ، فإنه أقسم على أمر عظيم سيفعله وذلك لتعظيم



قومه لهذه الأصنام والعكوف عليها غير مبال بالعاقبة. جاء في (الكشاف): «التاء بدل من الواو المبدلة منها ، وإن التاء فيها زيادة معنى وهو التعجب ، كأنه تعجب من تسهل الكيد على يده وتأتيه ؛ لأن ذلك كان أمراً مقنوطاً منه لصعوبته وتعذره»^(١).

﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَمَكُمْ﴾

الكيد: «هو الاحتيال في وصول الضرر إلى المكيد»^(٢).

فقال: ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَمَكُمْ﴾ مع علمه أن الأصنام لا تحتاج إلى الكيد ، فإنها لا تعقل ولا تسمع ولا تبصر ولا تدفع ولا تنفع ، وذلك ليعين لقومه أنها لا تعي ولا تدرك ما يراد من إيقاع الضرر بها ، ولو كانت تعلم أو تقدر لمنعت هذا الكيد ، فلعل ذلك يصرفهم عن عبادتها. أو إن المعنى أراد أن يحتال على قومه ليقع بأصنامهم ، وكان ذلك في اختيار يوم عيدهم وفيما ادعاه من سقمه إذ قال: (إني سقيم). جاء في (التفسير الكبير) للرازي: «إن قيل: لماذا قال: ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَمَكُمْ﴾ والكيد هو الاحتيال على الغير في ضرر لا يشعر به وذلك لا يتأتى في الأصنام.

وجوابه: قال ذلك توسعاً لما كان عندهم أن الضرر يجوز عليها. وقيل: المراد لأکیدنكم في أصنامكم ؛ لأنه بذلك الفعل قد أنزل بهم الغم»^(٣).

وقال: ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَمَكُمْ﴾ فسمها أصناماً وقد قال في آية سابقة: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ فسمها (تماثيل) ، ذلك أنه سماها

(١) الكشاف ٢ / ٣٣١.

(٢) البحر المحيط ٦ / ٣٢٢.

(٣) التفسير الكبير ٨ / ١٥٣.



تماثيل لتجاهل العارف - كما ذكرنا - كأنه لا يعرف ما حقيقتها ولماذا هم عاكفون عليها. والتمثال ليس بالضرورة للعبادة.

أما بعد أن ذكروا أنهم عابدون لها فقد سماها أصنامًا ؛ لأن الصنم «هو ما اتخذ إلهاً من دون الله»^(١).

فلما ذكروا عبادتهم لها سماها أصنامًا. ولذا لم يرد في القرآن لفظ الأصنام إلا في مقام العبادة أو اتخاذها آلهة.

قال تعالى : ﴿ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ [الأعراف : ١٣٨].

فرد عليهم موسى بقوله : ﴿ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا ﴾ [الأعراف : ١٤٠].
وقال على لسان سيدنا إبراهيم : ﴿ وَأَجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ [إبراهيم : ٣٥].

وقال : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ إِذْ رَأَى أَنَّهُ اتَّخَذَ أُصْنَامًا مَاءِ إِلَهَةً ﴾ [الأنعام : ٧٤].

وقال : ﴿ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُ لَهَا عَظِيمِينَ ﴾ [الشعراء : ٧١].

﴿ فَجَعَلَهُمْ جُودًا ﴾

أي قطعاً من الجذ وهو القطع^(٢) ، وقيل : حطامًا^(٣).

وقال : ﴿ فَجَعَلَهُمْ ﴾ بضمير العقلاء ، ولم يقل : (فجعلها) لأنها كانت تعبد^(٤) ، فنزلها منزلة العقلاء.

﴿ إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ ﴾ لم يكسره لعلهم يرجعون إليه فيسألونه ، وهو من الكيد الذي دبره سيدنا إبراهيم.

(١) لسان العرب (صنم).

(٢) التفسير الكبير للرازي ٨ / ١٥٤.

(٣) البحر المحيط ٦ / ٣٢٢.

(٤) البحر المحيط ٦ / ٣٢٢.



﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾

قيل: إن الضمير في (إليه) يعود على إبراهيم ، أي يرجعون إلى إبراهيم فيسألونه لما تسامعوه من إنكاره لدينهم وسبه لآلهتهم .

وقيل: إن الضمير يعود على الصنم الكبير فيسألونه عن ذلك^(١) .

وهو الأصوب في رأيي ، لأنه حتى لو حطم الكبير فسيرجعون إلى إبراهيم لما تسامعوه عنه من ذكره لآلهتهم .

وعلى هذا لا موجب لبقاء الكبير ، فإنهم على أية حال سيرجعون إلى إبراهيم ، وإنما استبقى الكبير ليتم إقامة الحجة عليهم بسؤاله وعلمهم بعجزه عن الإجابة .

وقدم الجار والمجرور (إليه) على الفعل (يرجعون) للحصر^(٢) .

* * *

﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾

استفهموا على سبيل البحث والإنكار والتوبيخ فقالوا: ﴿مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا﴾ وذلك بعد أن رجعوا من عيدهم وشاهدوا ما شاهدوا من التكسير والتحطيم^(٣) .

وقالوا: (بآلهتنا) «ولم يشيروا إليها بـ (هؤلاء) وهي بين أيديهم مبالغة في التشنيع»^(٤) .

(١) انظر الكشف ٢ / ٣٣١ .

(٢) روح المعاني ١٧ / ٦٢ .

(٣) انظر البحر المحيط ٦ / ٣٢٣ ، تفسير أبي السعود ٣ / ٧١١ .

(٤) تفسير أبي السعود ٣ / ٧١١ .



وقيل: يحتمل أن تكون (من) اسماً موصولاً ، وجملة ﴿ إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ خبراً عنه «والمعنى: الذي فعل هذا الكسر والحطم بالهتنا إنه معدود من جملة الظلمة»^(١).

والاستفهام أظهر ، يدل على ذلك قوله بعد الآية: ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ: إِبْرَاهِيمُ ﴾.

فإن كون هذا جواباً عن سؤالهم أظهر.

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن الاستفهام أدل على الإنكار والتوبيخ من الإخبار.

وقالوا: ﴿ إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ فأكدوا كلامهم بأن واللام ولم يقولوا: (إنه من الظالمين) للدلالة على كبير ظلمه وشناعة فعله.

* * *

﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ: إِبْرَاهِيمُ ﴾ قَالُوا فَأَتَوْا بِهِ عَلَىٰ آعِينَ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾

قالوا: (يذكرهم) بضمير العقلاء ، ولم يقولوا: (يذكرها) وذلك لأنهم يظنون أنها ذوات عاقلة.

﴿ قَالُوا فَأَتَوْا بِهِ عَلَىٰ آعِينَ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾

﴿ عَلَىٰ آعِينَ النَّاسِ ﴾ أي في مكان مرتفع على مرأى من الناس يشهده الجميع^(٢).

﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾: أي لعلهم يشهدون عليه بما يسمعون منه وبما

(١) تفسير أبي السعود ٣ / ٧١١.

(٢) انظر الكشاف ٢ / ٣٣٢ ، تفسير أبي السعود ٣ / ٧١٢.



فعله . أو يشهدون العقوبة التي سنزلها به ^(١) « فيكون ذلك زاجراً لهم عن الإقدام على مثل فعله » ^(٢) .

وقيل : إن « المراد مجموع الوجهين فيشهدون عليه بفعله ويشهدون عقابه » ^(٣) .

وهو الظاهر ، وحذف مفعول (يشهدون) ليجمع أكثر من وجه ، والله أعلم .

* * *

﴿ قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا بُرْهِيمُ ﴾ ^(٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾

أي فأتوا به فسألوه ، فحذف ما هو معلوم وليس في ذكره فائدة وإنما ذكر ما هو أهم .

قالوا : ﴿ ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا ﴾ ولم يقولوا : (أفعلت هذا) لأن السؤال عن فعل الفعل ، وليس السؤال عن الفعل أوقع أم لم يقع ، كيف وقد أشير إلى الفعل بقوله : ﴿ ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا ﴾ .

تقول : (أأنت ضربت زيداً؟) إذا كان الضرب حاصلًا فتسأل عن وقوعه فتقول : أأنت فعلت؟

وتقول : (أضربت زيداً؟) إذا كان السؤال عن الفعل أحصل أم لم يحصل .

جاء في (البحر المحيط) : « ءَأَنْتَ فَعَلْتَ ﴾ : إذا تقدم الاسم في نحو

(١) انظر الكشف ٢ / ٣٣٢ .

(٢) التفسير الكبير ٨ / ١٥٥ .

(٣) التفسير الكبير ٨ / ١٥٥ .



هذا التركيب على الفعل كان الفعل صادرًا واستفهم عن فاعله وهو المشكوك فيه .

وإذا تقدم الفعل كان الفعل مشكوكًا فيه فاستفهم عنه أوقع أو لم يقع^(١) .

وقالوا: ﴿أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا﴾ ولم يقولوا: (بالأصنام) أو (بأصنامنا) فسموها آلهة تعظيمًا لها ، بل هي آلهتهم .

﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾

القصد من هذا الإضراب أن يلزمهم الحجة لعلهم يعودون إلى عقولهم أو تعود إليهم فيعلمون أن آلهتهم لا تدفع ولا تنطق ولا تنصر نفسها .

جاء في (الكشاف): «هذا من معاريض الكلام . . . والقول فيه أن قصد إبراهيم صلوات الله عليه لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم ، وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضي يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيته»^(٢) .

«وإنما لم يقل عليه السلام: إن كانوا يسمعون أو يعقلون مع أن السؤال موقوف على السمع والعقل أيضًا لما أن نتيجة السؤال هو الجواب وأن عدم نطقهم أظهر وتبكيتهم بذلك أدخل»^(٣) .

* * *

﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾

أي رجعوا إلى عقولهم فأدركوا أنه ينبغي أن تسأل الآلهة عن ذلك لا

(١) البحر المحيط ٦ / ٣٢٤ .

(٢) الكشاف ٢ / ٣٣٢ .

(٣) تفسير أبي السعود ٣ / ٧١٣ .



إبراهيم فإن إلقاء التهمة عليه ظلم .

جاء في (البحر المحيط): ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ أي إلى عقولهم حين ظهر لهم ما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام من أن الأصنام التي أهلوها للعبادة ينبغي أن تسأل وتستفسر قبل .

ويحتمل أن يكون (فرجعوا) أي رجع بعضهم إلى بعض فقالوا: (إنكم أنتم الظالمون) في سؤالكم إبراهيم حين سألتموه ولم تسألوها . . . أو حين عبدتم ما لا ينطق^(١) .

وقيل: «أي راجعوا عقولهم وتذكروا أن ما لا يقدر على دفع المضرة عن نفسه ولا على الإضرار بمن كسره بوجه من الوجوه يستحيل أن يقدر على دفع مضرة عن غيره أو جلب منفعة له فكيف يستحق أن يكون معبودًا»^(٢) .

ثم إنهم لما نسبوا الظلم إلى من فعل بالهتهم فقالوا: ﴿إِنَّهُمْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ عادوا فنسبوا الظلم إلى أنفسهم فقالوا: ﴿إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ .

وكما أكدوا قولهم بأن واللام فقالوا: ﴿إِنَّهُمْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أكدوه أيضًا عندما نسبوه إلى أنفسهم بأن والضمير المنفصل .

ثم إنهم لم يقولوا: (إنكم أنتم ظلمون) بل قالوا: ﴿إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ فعرفوا الظالمين بأل ، أي إنكم أنتم الظالمون وليس غيركم ، فعرفوه للدلالة على الحصر .

جاء في (التحرير والتنوير) في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ : «الجملة مفيدة للحصر ، أي أنتم ظالمون لا إبراهيم لأنكم ألصقتم به

(١) البحر المحيط ٦ / ٣٢٥ .

(٢) تفسير أبي السعود ٣ / ٧١٣ .



التهمة بأنه ظلم أصنامنا مع أن الظاهر أن نساءها عمن فعل بها ذلك ،
ويظهر أن الفاعل هو كبيرهم»^(١).

* * *

﴿ثُمَّ نَكْسُوْاْ عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُوْنَ﴾^(١٥)

أي بعد أن استقاموا ورجعوا إلى عقولهم انقلبوا فعادوا إلى باطلهم.
شبه ذلك بمن انقلب على رأسه فقالوا: لقد علمت أن هؤلاء لا ينطقون
فكيف تطلب منا أن نساءهم؟

جاء في (الكشاف): «(نكسته): قلبته فجعلت أسفله أعلاه ،
وانتكس: انقلب. أي استقاموا حين رجعوا إلى أنفسهم وجاؤا بالفكرة
الصالحة ، ثم انتكسوا وانقلبوا عن تلك الحالة»^(٢).

وجاء في (تفسير أبي السعود): «أي انقلبوا إلى المجادلة بعدما
استقاموا بالمراجعة. شبه عودهم إلى الباطل بصيرورة أسفل الشيء
أعلاه...»

والله لقد علمت أن ليس شأنهم النطق فكيف تأمرنا بسؤالهم؟»^(٣).
لقد جاء بالفاء في قوله: ﴿فَرَجَعُواْ إِلَىْ أَنْفُسِهِمْ فَقَالُواْ﴾ للدلالة على
سرعة ما حصل لهم ، فهو كالمفاجأة لهم .

ثم جاء بعد ذلك بـ (ثم) فقال: ﴿ثُمَّ نَكْسُوْاْ عَلَى رُءُوسِهِمْ﴾ أي بعد
مهلة ، فهم كالذي يفوق من صدمة فعاد إلى حالته الأولى .

* * *

(١) التحرير والتنوير ١٧ / ١٠٣ .

(٢) الكشاف ٢ / ٣٣٢ .

(٣) تفسير أبي السعود ٣ / ٧١٣ .



﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾ (١٦) أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١٧)

بكتهم بعد انقطاع حجتهم فقال لهم: ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾

إنه لم يقل: (أفتعبدون هذه الأصنام بعدما تبين لكم أنها لا تنفع ولا تضر ولا تدفع عن نفسها) بل قال: ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾ .

فلم يخصص الإنكار بأصنامهم دون غيرها ، بل ذكر حكمًا عامًا في كل ما اتصف بهذا الوصف مما اتخذ إلهاً من دون الله .

وقوله: ﴿ لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا ﴾ يعني لا ينفعكم شيئاً من الأشياء ولا شيئاً من النفع ، فكان النفي مطلقاً عن كل شيء .

﴿ أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١٧)

(أف) كلمة يراد بها التضجر ، فتضجر منهم ومما يعبدون من دون الله .

﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أليس لكم عقل فتفكرون ، كأن الذي يفعل ذلك ليس له عقل .

* * *

﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ (١٨)

قالوا: (حرقوه) ولم يقولوا: (أحرقوه) من (أحرق) ولا (أحرقوه) من (حرق) . وإنما قالوه بالتضعيف للمبالغة في الحرق ، يقال: «أحرقه بالنار وحرقه شدد للكثرة» (١) .

(١) لسان العرب (حرق) .

وراموا تحريقه لأنه أشد العقوبات^(١).

قد تقول: ولكنهم قالوا في العنكبوت: ﴿قَالُوا أَفْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾.

فذكروا التخيير بين أحد الأمرين: القتل أو التحريق. أما في آية الأنبياء هذه فإنهم قالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا إِلَهَتَكُمْ﴾ فذكروا أشد العقوبتين وهو التحريق ولم يذكروا القتل فما السبب؟

والجواب ظاهر، فإن السياق في الأنبياء أشد، ذلك أنه حطم أصنامهم وجعلهم جذاذاً، وأما في العنكبوت فلم يذكر ذلك وإنما ذكر ما هو أخف، فقد قال في العنكبوت: ﴿وَأِذْهِبْ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَكُونُ مِنْ رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٢٤﴾

لقد قال لهم في الأنبياء ما هو أشد من ذلك، فقد رماهم ورمى آباءهم بالضلal المبين فقال: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿٥٤﴾



وقال: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾^(٦٦)
 أَفِي لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾
 فرماهم بعدم العقل .

وتوعدهم بأن يكيد أصنامهم: ﴿وَتَأْتِيهِمْ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾^(٥٧)
 فالفرق ظاهر بين المقامين .

أو إن ما في العنكبوت إنما كان في بداية المداولة والتشاور فيما يفعلون به فذكروا القتل أو التحريق ثم استقر الرأي على تحريقه . ووضع كلاً في سياقه المناسب .

لقد قالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ﴾ فطلبوا نصر آلهتهم ، وهذه إشارة إلى أن الآلهة لا تستطيع أن تنصر نفسها بل هم ينصرونها ، وهو مناسب لما مر قبل هذه الآيات وهو قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾^(٤٣) .

والكلام هنا على ما يعبد المشركون في زمن الرسول من الآلهة . فقد ذكر أنهم لا يستطيعون نصر أنفسهم . وهو حقيقة عامة في جميع ما اتخذ إلهاً من دون الله وما يتخذ ، سواء كان في زمن إبراهيم أم قبله أم بعده .

وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ يعني «إن كنتم ناصرين أنفسكم نصراً مؤزراً»^(١) .

* * *



﴿قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ ٦٩ ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ ٧٠

لم يقل: يا نار كوني باردة وذات سلام ، وإنما قال: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا﴾ مبالغة في أن تكون هي البرد والسلام بعينهما .

وجمع بين البرد والسلام لتكون غاية في الراحة ، ولئلا يناله شيء من الأذى . إذ لو قال: (كوني بردًا) ولم يقل: (كوني سلامًا) لربما آذاه البرد ، خاصة وإنه أمر بالمبالغة في كونها باردة ، فقد أمر بالمصدر .

جاء في (البحر المحيط): «لو لم يقل: (وسلامًا) لهلك إبراهيم من البرد... والمعنى ذات برد وسلام فبولغ في ذلك كأن ذاتها برد وسلام»^(١) .

وقال: ﴿عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ لتكون بردًا وسلامًا عليه خاصة ، وهي جحيم على غيره .

﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾

لما قال: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ فأقسم ليكيدن أصنامهم أرادوا هم أيضًا أن يكيدوه ويمكروا به . فهو أراد أن يكيد أصنامهم وهم أرادوا أن يكيدوه . فكلُّ أراد أن يكيد ولكن شتان ما بين الكيدين .

قد تقول: لقد قال هنا: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ بإدخال الواو على الفعل (أرادوا) .

وقال في الصافات: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ ٩٨ بإدخال الفاء على الفعل .

فما سبب الاختلاف؟

(١) البحر المحيط ٦ / ٣٢٨ .



والجواب ظاهر ، ذلك أن القول في سورة الأنبياء إنما ذكر بعد إلقائه في النار وجعلها بردًا وسلامًا ، فلا يناسب ذكر الفاء التي تفيد الترتيب والتعقيب ، فإن الكيد قد حصل وتم .

وأما في الصفات فإنه قال ذلك بعد قولهم : ﴿ فَأَلْقَوْهُ فِي الْجَحِيمِ ﴾ فذكر إرادة الكيد بعد الأمر بإلقائه في الجحيم وقبل التنفيذ ، فناسب ذكر الفاء التي تفيد الترتيب والتعقيب .

لقد قال في الأنبياء : ﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾ فذكر الخسران .

وقال الصفات : ﴿ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴾ فذكر أنه جعلهم الأسفلين .

ذلك أنهم قالوا في الأنبياء : ﴿ حَرَقُوهُ وَأُصْرُوا إِلَهُتَكُمْ ﴾ فطلبوا أن ينصروا آلهتهم فكان عاقبة ذلك أنهم خسروا الحرب التي أرادوا بها أن ينصروا آلهتهم .

ونتيجة الحرب النصر أو الخسارة فكانوا هم الأخسرين .

وقال : (الأخسرين) ولم يقل : (الخاسرين) للدلالة على أفضع الخسران وأشدّه ، فهم خسروا الدنيا والآخرة .

جاء في (البحر المحيط) : « ﴿ فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾ أي المبالغين في الخسران وهو إبطال ما راموه جادلوا إبراهيم فجدلهم وبكتهم وأظهر لهم وقر عقولهم ، وتقووا عليه بالأخذ والإلقاء فخلصه الله » ^(١) .

وجاء في (تفسير أبي السعود) : « ﴿ فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾ أي أخسر من كل خاسر حيث عاد سعيهم في إطفاء نور الحق برهانًا قاطعًا على أنه



عليه السلام على الحق وهم على الباطل» ^(١)!

وأما قوله في الصافات: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَسْفَلِينَ﴾ فإن ذلك مناسب لذكر
البنيان ، والبنيان بناء عال مرتفع فإنهم أرادوا أن يلقوا إبراهيم منه ليهوي
في النار فكانوا هم الأسفلين .

فناسب ذكر الأسفلين ذكر البنيان المرتفع .

جاء في (درة التنزيل) في قوله تعالى: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ
الْأَخْسَرِينَ﴾

وقوله في الصافات: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَسْفَلِينَ﴾:

«الجواب أن يقال ما في سورة الأنبياء فإن الله تعالى أخبر فيها عن
إبراهيم عليه السلام أنه قال: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ ثم أخبر عن
الكفار لما ألقوه في النار وأرادوا به كيدا ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ والكيد
سعي في مضرة ليورد على غفلة . فذكر مكيدة بينهم وبين إبراهيم عليه
السلام فكادهم ولم يكيدوه ، فخسرت تجارتهم وعادت عليهم مكيدتهم
لأنه كسر أصنامهم ولم يبلغوا من إحراقه مرادهم . فذكر الأخسرين لأنهم
خسروا فيما عاملهم به وعاملوه من المكيدة التي أضيفت إليهما .

وأما التي في سورة الصافات فإن الله تعالى أخبر عن الكفار فيها بما
اقتضى من الأسفلين وهو إنه قال: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ فبنوا
له بناء عاليًا ورفعوه فوقه ليرموا به من هناك إلى النار التي أججوها ، فلما
علوا ذلك البناء وحطوه منه إلى أسفل عادوا هم الأسفلين ، لأنهم أهلكوا
في الدنيا وسفل أمرهم في الأخرى .

والله تعالى نجى نبيه وأعلاه عليهم فانقلب عالي أمرهم في صعود

(١) تفسير أبي السعود ٣ / ٧١٥ .



البناء وسافل أمر إبراهيم عليه السلام لما حط إلى النار أن صار ذاك سافلاً وأمر النبي عليه السلام عالياً، فلذلك اختصت هذه الآية بقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَسْفَلِينَ﴾^(١).

وجاء في (كشف المعاني في المتشابه من المثاني) لبدر الدين بن جماعة: «أنهم أرادوا كيده بإحراقه فنجاه الله تعالى وأهلكهم وكسر أصنامهم فخسروا الدنيا والآخرة.

وفي الصافات قالوا: ﴿أَبْنُوا لَنَا بُيُوتًا فَأَلْقُوهُ﴾ أي من فوق البناء في الجحيم، فناسب ذكر الأسفلين لقصدتهم العلو لإلقائه في النار والله أعلم^(٢).

وجاء في (ملاك التأويل): «قيل روعي في آية الصافات مقابلة قولهم: ﴿أَبْنُوا لَنَا بُيُوتًا﴾ لأنه يفهم منه إرادتهم علو أمرهم بفعلهم ذلك فقبولوا بالضد فجعلوا الأسفلين»^(٣).

وقال: ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ و﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ ولم يقل: (فكانوا هم الأخسرين) أو (فكانوا هم الأسفلين) لأن ذلك إنما كان بقدرة الله سبحانه وجعله ونصره.

وقد تقول: لكنه قال في آية أخرى: ﴿فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ [الصافات: ١١٦] فقال: (فكانوا).

فنقول: إن السياق يوضح ذلك، فقد قال سبحانه: ﴿وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾^(١١٥) وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ.

(١) درة التنزيل ٣٠٠.

(٢) كشف المعاني ٢٥٦.

(٣) ملاك التأويل ٢ / ٧٠١.



فذكر أنه نصرهم فكانوا هم الغالبين ، أي بنصره سبحانه كانوا هم الغالبين .
هذا علاوة على أنه ذكر أيضاً أنه نجاهما وقومهما من الكرب العظيم .
فهو الذي نجاهم وهو الذي نصرهم فغلبوا بنصره سبحانه .

* * *

﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ (٧٦)

«نجيا من العراق إلى الشام . وبركاته الواصلة إلى العالمين أن أكثر
الأنبياء عليهم السلام بعثوا فيه فانتشرت في العالمين شرائعهم وآثارهم
الدينية . . .

وقيل : بارك الله فيه بكثرة الماء والشجر والثمر والخصب» (١) .

و«هذه نجاة ثانية بعد نجاته من ضر النار» (٢) .

وهذا هو الموطن الوحيد الذي ذكرت فيه نجاته ولوطاً إلى هذه
الأرض الموصوفة بهذه الصفة .

* * *

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴾ (٧٧)

* * *

النافلة : الزيادة ، أي وهب له يعقوب زيادة من غير أن يسأله إياه ،
فقد وهب ربنا لإبراهيم ولده إسحاق استجابة لدعائه ، وأما يعقوب وهو
ولد الولد فقد بشره من غير أن يسأله .

جاء في (الكشاف) : «النافلة : ولد الولد . وقيل : سأل إسحاق

(١) الكشاف ٢ / ٣٣٠ .

(٢) التحرير والتنوير ١٧ / ١٠٨ .



فأعطيه ، وأعطى يعقوب نافلة ، أي زيادة وفضلاً من غير سؤال» ^(١) .
 وجاء في (البحر المحيط) : «إذ كان إسحاق ثمرة دعائه ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وكان يعقوب زيادة من غير دعاء» ^(٢) .
 وفيما قاله صاحب البحر نظر ، فإن ثمرة هذا الدعاء المذكور هو إسماعيل وليس إسحاق عليهما السلام كما جاء في سورة الصافات .
 قال تعالى : ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يَبْنَؤُ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ . . . ﴿ .
 وهذا هو إسماعيل .

ثم قال بعد ذلك : ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ .
 إلا أن يقال : إن دعاء سيدنا إبراهيم ليس مختصاً بمعين وإنما طلب ذرية صالحة واحداً أو أكثر ، فيكون كل من إسماعيل وإسحاق من ثمرة هذا الدعاء المبارك .

﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾

أي المذكورين وهم إبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب ^(٣) .

* * *

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فَعَلِ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ﴾ ^(٧٣)

كرر الفعل (جعل) مع مفعوله الأول فقال : ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً﴾ ولم

(١) الكشاف ٢ / ٣٣٣ .

(٢) البحر المحيط ٦ / ٣٢٩ .

(٣) البحر المحيط ٦ / ٣٢٩ .



يعطف (أئمة) على (كلأً) فيقول: (وأئمة يهدون بأمرنا) لثلا يحتمل معنى آخر وهو: (وجعلنا أئمة يهدون بأمرنا) أي أئمة آخرين غير هؤلاء فيعني بالأئمة غيرهم فيكون المعنى: إن هؤلاء كانوا صالحين ، وجعلنا أئمة يهدون بأمر الله أي آخرين . فقال: (وجعلناهم) يعني المذكورين في الآية السابقة وهم إبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب .

وقد يحتمل العطف على (صالحين) أي جعلناهم صالحين وأئمة فيكون التعبير احتمالياً . فأراد النص على أن المقصودين هم المذكورون فكرر الفعل مع مفعوله الأول .

جاء في (التحرير والتنوير): «إعادة فعل (جعل) في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ دون أن يقال: (وأئمة يهدون) بعطف (أئمة) على (صالحين) اهتماماً بهذا الجعل الشريف ، وهو جعلهم هادين للناس بعد أن جعلهم صالحين في أنفسهم . . .

ولأن في إعادة الفعل إعادة ذكر المفعول الأول فكانت إعادته وسيلة إلى إعادة ذكر المفعول الأول . وفي تلك الإعادة من الاعتناء ما في الإظهار في مقام الإضمار»^(١) .

وقوله: ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ يحتمل معنيين :

الأول : أن يكونوا مأمورين بالهداية ، أي أمرهم ربهم بأن يهدوا الناس .

جاء في (الكشاف): «﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ فيه أن من صلح ليكون قدوة في دين الله فالهداية محتومة عليه مأمور هو بها من جهة الله ليس له أن يخل بها ويتشاغل عنها»^(٢) .

(١) التحرير والتنوير ١٧ / ١٠٩ .

(٢) الكشاف ٢ / ٣٣٣ .



والمعنى الآخر: أي يهدون بشرع الله فيكون أمره - وهو ما شرعه سبحانه للناس - وسيلة للهداية نحو قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِّنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

وقوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكُم سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ﴾ [المائدة: ١٥ - ١٦].

أي يهدي بالقرآن.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [الزمر: ٢٣].

فيكون وسيلة للهداية.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾

«أي خصصناهم بشرف النبوة» (١).

﴿وِإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾ «من عطف الخاص على العام دلالة على فضله» (٢).

فإن فعل الخيرات عام يشمل الفروض والمندوبات.

فدخل في ذلك ما ذكر من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة. وخصهما بالذكر لأهميتهما وكبير منزلتهما عند الله ، فإنهما من أركان الإسلام كما هو معلوم.

﴿وَكَاثُرًا لِّعَابِدِينَ﴾

قدم الجار والمجرور (لنا) على (عابدين) للاختصاص ، أي كانوا

(١) البحر المحيط ٦ / ٣٠٥.

(٢) تفسير أبي السعود ٣ / ٧١٦.



عابدين لنا خاصة دون غيرنا^(١).

* * *

﴿لُوطًا ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَبَجَيْنَهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَحْشَىٰ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَلْسِقِينَ﴾ (٧٦) ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٧٥)

انتصب (لوطًا) على الاشتغال ، أي آتينا لوطًا حكمًا وعلمًا .

وقيل : يحتمل أن يكون منصوبًا بـ (اذكر) مقدرًا^(٢).

والحكم معناه العلم والفقه ، وقد يأتي بمعنى القضاء ، ومنه الحكم بين المتخاصمين^(٣).

جاء في (الكشاف): «(حكمًا) حكمة وهو ما يجب فعله ، أو فصلًا بين الخصوم ، وقيل : هو النبوة»^(٤).

وهو هنا ليس بمعنى القضاء والفصل ، وإنما معناه الفقه والحكمة .

وقد استعمل القرآن في الحكم الإيتاء أو الهبة وذلك نحو قوله تعالى : ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء : ٧٩] ، وقوله : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [يوسف : ٢٢] ، وقوله : ﴿فَوَهَبْنَا لِيَرْثِي حُكْمًا﴾ [الشعراء : ٢١] .

ولم يأت الحكم مسندًا إلى الله إلا بلفظ الإيتاء أي نحو (آتيناها حكمًا وعلمًا) ، فالحكم مما يؤتيه الله سبحانه ، ولم يرد نحو (وهبنا له حكمًا) ولا (وهب الله له حكمًا). وقد ذكرنا الفرق بين الإيتاء والهبة في شرحنا

(١) انظر تفسير أبي السعود ٣ / ٧١٦ .

(٢) انظر البحر المحيط ٦ / ٣٢٩ ، تفسير أبي السعود ٣ / ٧١٦ .

(٣) انظر (من أسرار البيان القرآني) ٩ .

(٤) الكشاف ٢ / ٣٣٣ .



لسورة (يس) في تعرضنا لقصة أيوب مما استدعاه السياق فلا نعيد القول فيه^(١).

﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَبْتِثَ﴾

استعمل وهنا لفظ (نجيناه) ولم يستعمل (أنجيناه).

ومن الملاحظ في استعمال هاتين اللفظتين في هذه القصة أنه يقول أحياناً: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ [الأعراف: ٨٣ ، النمل: ٥٧].

ويقول أحياناً: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ [الشعراء: ١٧٠] ﴿إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ [الصافات: ١٣٤].

وقد بينا في كتابنا: (بلاغة الكلمة في التعبير القرآني) أن (نَجَّى) يستعمل في القرآن الكريم للتلبث والتمهل في التنجية ، وأن (أنجى) يستعمل للإسراع فيها ، فإن (أنجى) أسرع من (نَجَّى) في التخلص من الشدة والكرb^(٢).

ومن الملاحظ في استعمال هذين الفعلين في هذه القصة أن ما يستدعي الإسراع في التنجية يستعمل معه الفعل (أنجينا).

وما كان دون ذلك يستعمل (نجينا).

وإيضاح ذلك أنه استعمل (أنجيناه) في هذه القصة في موضعين وهما قوله تعالى في الأعراف: ﴿وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهُرُونَ﴾ ^(٨٢) ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَآتُهُ كَانَتْ مِنْ أَلْغَرِّينَ﴾ ^(٨٣) ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ ^(٨٤).

(١) على طريق التفسير البياني ٢ / ١٥٣.

(٢) انظر بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ٧٤ وما بعدها.



وقوله في (النمل): ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ أَلْ لُوطٍ مِّنْ قَرِيبِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّنْطَهُرُونَ﴾ ٥٦ ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ قَدَرْنَاهَا مِّنَ الْغَايِبِينَ﴾ ٥٧ ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ ٥٨ .

واستعمل (نجيناه) علاوة على ما ورد في سورة الأنبياء في موضعين هما قوله تعالى في الشعراء: ﴿قَالُوا لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ ١٦٧ ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ﴾ ١٦٨ ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ ١٦٩ ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ ١٧٠ ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَايِبِينَ﴾ ١٧١ ﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ﴾ ١٧٢ ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ ١٧٣ .

وقوله في الصفات: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لِّمَنِ الْمُرْسَلِينَ﴾ ١٣٣ ﴿إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ ١٣٤ ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَايِبِينَ﴾ ١٣٥ ﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ﴾ ١٣٦ .

ومن الواضح أن ما في الأعراف والنمل أدعى إلى الإسراع في النجاة وعدم التلبث مما في الشعراء والصفات .

ذلك أنه قال في الأعراف على لسان قومه: ﴿أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرِيبِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّنْطَهُرُونَ﴾ ٨٢ .

وقال في النمل: ﴿أَخْرِجُوهُمْ أَلْ لُوطٍ مِّنْ قَرِيبِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّنْطَهُرُونَ﴾ .

فأمرؤا بإخراجهم من القرية .

وليس في الشعراء نحو ذلك ، وإنما هددوه بالإخراج إن لم ينته ﴿قَالُوا لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ .

فمرحلة ما في الأعراف والنمل بعد ما في الشعراء .

ففي الشعراء هددوه بالإخراج إن لم ينته .

وأما في الأعراف والنمل فقد أمرؤا بإخراجه ، ومعنى ذلك أنه لم

ينته .



فاستدعى الإسراع في النجاة في الأعراف والنمل .
وأما في الصافات فليس فيه نحو ذلك ، وليس فيه تهديد له من قومه .
فناسب الإسراع في النجاة في الأعراف والنمل .
وليس في آية الأنبياء شيء من ذلك فلم يستدع الإسراع .
وهناك ملاحظة أخرى في هذه القصة :

وهي أنه ذكر في هذا الموضع من سورة الأنبياء نجاته وحده ولم يذكر
نجاة أحد معه ، وذلك أن الكلام عليه وتفضل الله عليه وليس على رسالته
وموقفه مع قومه .

وفي مواضع أخرى يذكر نجاته وأهله إلا امرأته وذلك كما في
الأعراف والنمل والشعراء والصافات وذلك في مقام الرسالة والدعوة .

وقد تقول : ولكنه قال في الصافات : ﴿ إِذْ بَحَّثْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴾ (١٣٩)
وليس ذلك في مقام الدعوة ، فقد قال تعالى : ﴿ وَإِنْ لَوْطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (١٣٦) إِذْ
بَحَّثْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿ ١٣٩ ﴾ ولم يذكر دعوته لقومه .

فنقول : إنه قال إن لوطًا لمن المرسلين ، والرسالة تقتضي التبليغ
والدعوة . فناسب ذكر نجاته وأهله وتدمير الآخرين . وليس في سياق آية
الأنبياء نحو ذلك .

وقد يذكر نجاة آله ولم يذكر نجاته معهم وذلك ما ورد في سورة
القمر ، فقد قال سبحانه : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذِي إِذَا أُرْسِلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آءَالُ
لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴾ (٢٤) نِعْمَةً مِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿ ٢٥ ﴾ .

ونجاته مفهومة من السياق ، فإنه هو الذي أُنذِرهم البطشة ، ثم ذكر أن
العذاب إنما أصاب قوم لوط فدل على نجاته هو . ثم إن قوله : ﴿ كَذَلِكَ
نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴾ يدل على نجاة من شكر دون من لم يشكر .



وهذا هو السياق فيما ورد عن الرسل في سورة القمر ، فإنه لم يذكر نجاة الرسل ولا من آمن معهم .

فقد ذكر عادًا وإهلاكهم ولم يذكر نجاة المؤمنين ولا رسوله . ونحو ذلك ورد في ثمود ، وكذلك ما ورد في آل فرعون .

فهي كلها تجري على نسق واحد .

قد تقول : ولكن الأمر ليس كذلك في قصة نوح فقد ذكر نجاته ، فقد قال فيه : ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٢﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ ۝ ﴾ .

فلم ذاك ؟

فنقول إن السياق اقتضى ذلك من أكثر من جهة .

١ - فقد قال في قصة نوح : ﴿ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّثَمَرٍ ﴿١١﴾ ۝ ﴾ .

فذكر أنهم كذبوا عبده ، أي كذبوا نوحًا ، ولم يذكر مثل ذلك في القصص الأخرى .

وإنما قال في قصة عاد : ﴿ كَذَبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿١٨﴾ ۝ ﴾ ولم يذكر تكذيبهم لرسوله .

وقال في قصة ثمود : ﴿ كَذَبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ ۝ ﴾ ولم يذكر التكذيب لرسولهم .

وقل في قوم لوط : ﴿ كَذَبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ ۝ ﴾ وهو نحو ما ورد في ثمود .

وقال في فرعون : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا ۝ ﴾ فذكر التكذيب بالآيات .

٢ - ثم ذكر في قصة نوح أنهم زجروا نوحًا فقد قال: ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ
وَأَزْدُجِرَ ۝٩﴾ .

وقوله: (ازدجر) يعني المبالغة في الزجر .
فناسب ذكر نجاته .

٣ - ثم ذكر أنه دعا ربه فقال إنه مغلوب وطلب من ربه أن ينصره فقال:
﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ ۝١٠﴾

فناسب ذلك إجابة دعائه وأن ينصره فقال: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ
وَدُوسِرٍ ۝١١﴾ تَجَرَّى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ۝١٢﴾
ولم يرد نحو ذلك في القصص الأخرى .
فناسب كل تعبير موضعه .

وهذا من لطيف مراعاة المقام .

قد تقول: ولكنه ذكر نجاة آل لوط وحدهم في القمر ولم يذكر نجاة
أهل الآخرين المذكورين في السورة .
فنقول: لقد ذكر قصة نوح في السورة ونجاته .

وأما عاد وثمود فلم يرد لأهلهما ذكر في جميع ما ورد في القرآن
الكريم فلم يذكرهما في سورة القمر .
وقد ذكر آل فرعون في القمر كما ذكر آل لوط ، غير أنه ذكر نجاة آل
لوط وعقوبة آل فرعون .

ومن الملاحظ في قصة لوط أنه أحيانًا يذكر أنه نجاه وأهله إلا امرأته
كما في سورتي الأعراف ٨٣ والنمل ٥٧ فيذكر امرأته .

وأحيانًا يقول: (إلا عجوزًا) فيذكر العجوز ولم يذكر أنها امرأته (انظر
الشعراء ١٧١ ، الصافات ١٣٥) .



فإنه حيث يقول: (أنجيناه) يستثني امرأته ، وحيث يقول (نجيناه) يستثني العجوز .

وقد ذكرنا أنه حيث استدعى الإسراع في النجاة يقول: (أنجيناه) وما كان دون ذلك يقول: (نجينا) .

ومن المعلوم أن المرأة إنما تكون في بيت زوجها فأصبح الخطر أشد ؛ لأن الخطر إنما جاء من الخارج ومن الداخل ، فهي عين لقومها عليه ، فكأنها من المخابرات تخبر قومها عما في بيت زوجها ، وهذه إشارة إلى أنه إذا لم يأمن الرجل أهل بيته كان الخطر عليه أعظم .

فاستدعى ذلك الإسراع في النجاة إضافة إلى ما ذكرنا .

وأما قوله: (إلا عجوزًا) فهو لم يذكر أنها امرأته ، ثم ذكر أنها عجوز ، ولا شك أن العجوز أقل حركة من الشابة .

فلم يدل بقوله: (عجوز) أنها امرأته ، إضافة إلى أنها عجوز . كما أن المقام لا يستدعي الإسراع في النجاة فكان الخطر أقل .

فناسب كل تعبير موضعه من جهة أخرى .

وهذا من عجيب مراعاة المقام .

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَسَقِينَ ﴾

السَّوْءُ بفتح السين هو المصدر ، والسَّوْءُ بالضم الاسم ^(١) .

فالسوء بالضم حالة من حالات السَّوْءِ بالفتح ، فقد يكون مرضًا أو غير ذلك مما يصيب الإنسان من مكروه في ماله أو بدنه .

قال تعالى : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرِّجْ يَضَاءً مِّنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ [النمل : ١٢] .

(١) لسان العرب (سوء) .



أي من غير برص^(١).

وقال: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقال: ﴿وَمَا عَمِلْتُمْ مِنْ سُوءٍ ثَوَدُ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾
فالسَّوءُ أعم من السُّوء.

وقد أضاف القوم إلى السَّوء للمبالغة في ذمهم.
﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا﴾

أضاف الرحمة إليه سبحانه للدلالة على عظيم ما أدخله فيه من الرحمة.

فإنه يذكر أحياناً أنه يُدخل في رحمته.

وقد يذكر أنه يُدخل في رحمة منه.

ولا شك أن قوله: (في رحمته) أعلى من (في رحمة منه) وأدل على سعة الرحمة. فإن قوله: (في رحمة منه) نكرة وهي جزء من رحمته سبحانه.

وكل ذلك بحسب السياق.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ [الباقية: ٣٠].

فقال: ﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾

وقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النساء: ١٧٥].

(١) لسان العرب (سوء).



فقال: ﴿فَسَيَدْخُلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾

ذلك أن ما ذكره في آية الجاثية أعلى . فقد ذكر الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

فذكر الإيمان على العموم ، وهو أعم من الإيمان بالله .

وذكر عمل الصالحات ولم يذكر ذلك في آية النساء .

فناسب أن يقول: ﴿فَيَدْخُلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾ .

ثم من ناحية أخرى أنه قال في آية الجاثية: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ على العموم فناسب أن يقول: (في رحمته) ، فإن قوله: (في رحمته) أعم من قوله: (في رحمة منه) فناسب العموم العموم .

ثم قال: (وعملوا الصالحات) فذكر الصالحات بالجمع فناسب ذلك أيضاً أن يقول: (في رحمته) .

وقال في التوبة: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتُ الرَّسُولِ أَلَّا إِنَّا قُرْبَةً لَهُمُ سَيَدْخُلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٩٩)

فذكر الإيمان بالله واليوم الآخر والإنفاق قربة لله وصلوات الرسول أي دعاءه .

ولا شك أن هذه أعلى مما ذكره في آية النساء ، فناسب أن يقول: ﴿سَيَدْخُلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ .

هذا إضافة إلى أنه ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

وقد تقول: ولم قال في آية النساء: ﴿فَسَيَدْخُلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾

وقال في آية التوبة: ﴿سَيَدْخُلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ بالسین في الآيتين .



وقال في آية الجاثية: ﴿فِيَدْخُلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَةٍ﴾ من دون سين؟
فنقول: إن آيتي النساء والتوبة إنما هما فيمن هو في الدنيا فناسب ذكر
السين التي هي للاستقبال.

وأما آية الجاثية فإنما هي فيمن هو في الآخرة. قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ
السَّاعَةُ يُومِذُ بَخْسُ الْمُبْطِلُونَ﴾ (٧٧) وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْزَنُونَ مَا
كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٨﴾ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٩﴾ فَأَمَّا
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِيَدْخُلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَةٍ﴾ (٨٠).

فلا يناسب ذكر السين ، وإنما الأمر حاضر في ذلك الوقت .

﴿إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾

جعل الصلاح سبباً للدخول في رحمته سبحانه .

هذا إضافة إلى أن ذلك مناسب لما تقدم من قوله: ﴿وَكَلَّا جَعَلْنَا
صَالِحِينَ﴾

يعني إبراهيم ولوطاً وإسحاق ويعقوب .

فقد ذكر أنه جعله من المذكورين بالصلاح .

فذكره بالصلاح مرتين .

* * *

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ
الْعَظِيمِ﴾ (٧٦) وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ
فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٧٧)

انتصب (نوحاً) على إضمار (اذكر) ^(١) ، وقيل: هو معطوف على



(لوطًا) «فيكون ذلك مشتركًا في العامل الذي هو آتينا» أي آتينا نوحًا حكمًا وعلمًا^(١).

و(من قبل) أي من قبل هؤلاء المذكورين^(٢).

و(نصرناه) من القوم ، أي نجيناه منهم .

وقوله : (فاستجبنا) بالفاء يدل على تعقيب الاستجابة بعد النداء .

ومن الملاحظ في هذه الآية أنه ذكر الفعل (نادى) ولم يذكر مفعوله ، فلم يذكر من نادى ولا بماذا دعا .

ولكن علم من قوله : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ﴾ أنه نادى ربه .

وعلمنا من الاستجابة فحوى الدعاء وهونجاته وأهله ونصره وإهلاك قومه الكافرين .

فقد قال في موضع آخر : ﴿ وَنَجَّيْ وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ١١٨] فدعا بالنجاة .

وقال : ﴿ رَبِّ أَنْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُون ﴾ [المؤمنون : ٢٦] .

وقال : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصُرْ ﴾ [القمر : ١٠] .

فدعا بالنصر .

وقال : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح : ٢٦] .

فدعا على قومه بالهلاك .

وأمره ربه أن يحمل معه في الفلك فيما يحمل أهله إلا من سبق عليه القول منهم : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا

(١) انظر البحر المحيط ٦ / ٣٣٠ .

(٢) الكشف ٢ / ٣٣٣ .



وَفَكَارَ التَّنَوُّرُ فَاسْتَلَفَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ
الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تَخْطِئَنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ [المؤمنون: ٢٧]

فدل ذلك على نجاة أهله .

فكانت الاستجابة لكل ذلك .

فقال : ﴿ فَجَنَّبْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴾ وهو إجابة الدعاء بالنجاة .

وقال : ﴿ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ فكانت الاستجابة
بالنصر .

وقل : ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ فكانت الاستجابة بإهلاك الكفرة .

جاء في (تفسير الرازي) : « لا شبهة في أن المراد من هذا النداء دعاؤه
على قومه بالعذاب ، ويؤيده حكاية الله تعالى عنه ذلك تارة على الإجمال
وهو قوله : ﴿ فَعَارَبْنَاهُ أَنْيُّ مَغْلُوبٌ فَأَنْصَر ﴾ ، وتارة على التفصيل وهو قوله :
﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح : ٢٦] .

ويدل عليه أيضاً أن الله تعالى أجابه بقوله : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَجَنَّبْنَاهُ
وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ وهذا الجواب يدل على أن الإنجاء
المذكور فيه كان هو المطلوب في السؤال . فدل هذا على أن نداءه ودعائه
كاف بأن ينجيه مما يلحقه من جهتهم من ضروب الأذى بالتكذيب والرد
عليه ، وبأن ينصره عليهم وأن يهلكهم فلذلك قال بعده : ﴿ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ
الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ ^(١) .

لقد قال في هذه الآية : ﴿ وَتَوْحًا إِذْ نَادَى ﴾ ولم يذكر أنه نادى ربه كما
أسلفنا .

وقال في الصفات : ﴿ وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾ (٧٥)



فقال : (نادانا) بذكر المفعول به وهو ضمير العظمة .

ومن المناسب أن نذكر أنه لما قال : (نادانا) فأظهر ذاته سبحانه زاد في تفضله عليه بالإجابة . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾ (٧٥) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿٨٢﴾

فقال : ﴿ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾ فأثنى على ذاته سبحانه .

ثم تفضل على نوح بما لم يذكره في سورة الأنبياء ، فقال : ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾

وقال : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ (٧٨) سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ .

وقال : ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾

وقال : ﴿ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن ضمير العظمة ورد في آيات الصفات أكثر مما ورد في هذه القصة في سورة الأنبياء .

فإنه ورد في الأنبياء خمس مرات ، وذلك في قوله : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ﴾ ﴿ فَجَعَلْنَاهُ ﴾ ﴿ وَنَصَرْنَاهُ ﴾ ﴿ بِأَيِّنَّا ﴾ ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُمْ ﴾ .

وورد في آيات الصفات ثماني مرات . وذلك في قوله : ﴿ نَادَيْنَا ﴾ ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ ﴾ ﴿ وَجَعَلْنَا ﴾ ﴿ وَتَرَكْنَا ﴾ ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ ﴾ ﴿ نَجْزِي ﴾ ﴿ عِبَادِنَا ﴾ ﴿ أَغْرَقْنَا ﴾ .

فناسب ذلك افتتاح الآيات في الصفات بقوله : ﴿ وَلَقَدْ نَادَيْنَا ﴾ .



﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ (٧٨) ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (٧٩) ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِنُخَفِّنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ (٨٠)

«أي واذكرهما . و(إذ) بدل منهما .

والنفس : الانتشار بالليل . وجمع الضمير لأنه أرادهما والمتحاكمين إليهما . . .

والضمير في (ففهمنها) للحكومة أو للفتوى . . .

حكم داود بالغنم لصاحب الحرث ، فقال سليمان . . . : غير هذا أرفق بالفريقين . فعزم عليه ليحكم .

فقال : أرى أن تدفع الغنم إلى أهل الحرث ينتفعون بألبانها وأولادها وأصوافها ، والحرث إلى أرباب الشاء يقومون عليه حتى يعود كهيئته يوم أفسد ، ثم يترادان .

فقال : القضاء ما قضيت ، وأمضى الحكم بذلك . . .

وفي قوله : ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ دليل على أن الأصوب كان مع سليمان عليه السلام» (١) .

وقوله : ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ﴾ بصيغة المضارع «حكاية للحال الماضية لاستحضار صورتها ، أي اذكر خبرهما وقت حكمهما» (٢) .

و﴿شَاهِدِينَ﴾ أي حاضرين علماً (٣) .

(١) الكشف ٢ / ٣٣٣ - ٣٣٤ .

(٢) تفسير أبي السعود ٣ / ٧١٧ .

(٣) تفسير أبي السعود ٣ / ٧١٧ .



وقال ههنا: ﴿شَهِدِينَ﴾ بجمع المذكر السالم ، وقال في آية أخرى :
﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ فقال : ﴿شُهُودًا﴾ بجمع التكسير ؛
ذلك لأن ما في آية يونس يدل على الكثرة ، وآية الأنبياء للقلة .
فإنه في آية الأنبياء ذكر داود وسليمان والمتخصصين .

وأما آية يونس فإنها تعم جميع الناس إلى قيام الساعة . قال تعالى :
﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا
إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا
أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٦١) .
﴿وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾

قال ههنا إنه آتاهما حكماً وعلماً فذكر الحكم والعلم ، وذكر في
موضع آخر أنه آتاهما علماً ولم يذكر الحكم ، قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا
دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾
[النمل : ١٥] .

فذكر العلم ولم يذكر الحكم .

ذلك أنه في الأنبياء ذكر الحكم وهو القضاء بين المتخصصين ،
والقضاء يحتاج إلى العلم فذكر الحكم والعلم .

وأما في النمل فليس السياق في القضاء وإنما فيما آتاهما الله من العلم .
فقد ذكر أن الله علم سليمان منطق الطير : ﴿وَقَالَ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ عِلْمًا مَّنْطِقَ
الطَّيْرِ﴾ ، وفهم قول النملة ، وتكلم مع الهدهد وذكر الذي عنده علم من
الكتاب .

فناسب ذكر العلم ولم يذكر معه الحكم .



وقد تقول: لقد قال في آية أخرى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ [سبأ: ١٠] فذكر الفضل وحده ولم يذكر الحكم ولا العلم ، فلم ذاك؟ فنقول إن كل تعبير مناسب لسياقه ، وقد ذكرنا ما ورد في الأنبياء والنمل .

وأما في آية سبأ فليس السياق في الحكم ولا في العلم ، وإنما فيما تفضل الله على سيدنا داود في غير ذلك ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجَالُ أَوْبَىٰ مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ ﴿١٠﴾ ، وهذا مما سخره الله له كما أخبر عن ذلك سبحانه فقال: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسِخِّنُ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ [ص: ١٨-١٩] .

وكما قال في الآية الآتية من سورة الأنبياء ، وليس ذلك من الحكم ولا من العلم الذي أوتيته وإنما هو فضل آتاه الله إياه كما قال سبحانه .

* * *

﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَنَ وَكُلَّ آدَمَ حُكْمًا وَعَلَّمَهُ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسِخِّنُ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ ﴿٧٩﴾

قدم الجبال على الطير لأن تسبيحها أعجب .

جاء في (الكشاف): «فإن قلت: لم قدمت الجبال على الطير؟ قلت: لأن تسخيرها وتسبيحها أعجب وأدل على القدرة وأدخل في الإعجاز لأنها جماد والطير حيوان إلا أنه غير ناطق» ^(١) .

وقال: (يسبحن) ولم يقل: (مسبحات) «مع أن الأصل في الحال الأفراد للدلالة على تجدد التسبيح حالاً بعد حال» ^(٢) .

ومن الملاحظ أنه قال هنا: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسِخِّنُ﴾

(١) الكشاف ٢ / ٣٣٤ .

(٢) روح المعاني ٢٣ / ١٧٤ .



فقدم الظرف (مع) على الجبال .

وقال في سورة (ص): ﴿ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ (١٨)

فقدم الجبال على الظرف .

وقد قيل إن ذلك لذكر داود وسليمان في الأنبياء فقدم مسارعة للتعين وليس كذلك في آية (ص) ^(١) .

ولعل من أسباب ذلك أن ما ذكره عن الجبال في (ص) أكثر مما ذكره في الأنبياء . فقد قال في الأنبياء: ﴿ وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ﴾ .

وأما في (ص) فقد قال: ﴿ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴿

فناسب ذلك تقديمها في (ص) .

﴿ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾

«أي قادرين على أن نفعل هذا وإن كان عجباً عندكم» ^(٢) وإن «من شأننا أن نفعل أمثاله فليس ذلك ببدع منا وإن كان بديعاً عندكم» ^(٣) .

* * *

﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُؤْسٍ لَّكُمْ لِنُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ (٨٠)

المراد باللبوس الدرع ^(٤) وهي تلبس في الحرب لتقيهم بأسها .

فربنا سبحانه علمه صنعتها .

(١) روح المعاني ٢٣ / ١٧٤ .

(٢) الكشف ٢ / ٣٣٤ .

(٣) روح المعاني ١٧ / ٧٦ .

(٤) الكشف ٢ / ٣٣٤ .



﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾

استفهام يراد به الطلب ، أي فاشكروا الله على ذلك .
وخاطب عموم الناس بذلك لأن فائدتها لعموم الناس إلى قيام
الساعة ، فإن البأس لا ينقطع .
ألا ترى أنه لما لم يذكر في موضع آخر أنها للناس لم يطلب منهم
شكره سبحانه؟

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجَالُ أَوِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَأَلَنَّا لَهُ
الْحَدِيدَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَعْمَلَ سَبِيغَتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَليحًا إِنَّي بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾

وأما قوله : ﴿ وَأَعْمَلُوا صَليحًا ﴾ فقد قيل فيه : إن الخطاب لداود
وأهله ^(١) كما في قوله : ﴿ أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا ﴾ [سبأ : ١٣] ^(٢) .

والمراد بالسباغات : الدروع .

ويحتمل أن يكون الأمر بالعمل الصالح لعموم الناس وإن كان السياق
في آل داود أظهر والله أعلم .

وحتى لو كان الأمر بالعمل الصالح لعموم الناس فإن كل تعبير يناسب
سياقه الذي ورد فيه .

فإنه في آية الأنبياء لما جعل صنعة اللبوس للناس لتحصنهم من بأسهم
ناسب ذلك الأمر بشكره سبحانه ، فهو من الشكر على النعمة .

وأما آية سبأ فأنها في طلب العمل الصالح ، وهو مطلوب من كل فرد

(١) الكشف ٢ / ٥٥٦ ، روح المعاني ٢٢ / ١١٦ .

(٢) فتح القدير ٤ / ٣٠٦ .



بلا استثناء سواء كان في سياق النعم أم لم يكن .
فناسب كل تعبير سياقه .

ومن لطيف المناسبة أنه لما ذكر اللبوس لهم طلب الشكر .
ولما ذكر السابغات ، والسابغ هو الكامل الوافي المتسع ^(١) ، أمر
بالعمل الصالح ؛ ذلك أنه ليس كل لبوس سابغاً ، وأن الشكر إنما هو من
العمل الصالح كما قال تعالى : ﴿ اَعْمَلُواْ اَلدَّوْدَ شُكْرًا ﴾ ^(١٣) ، فإن (شكراً)
يصح إعرابه مفعولاً به لـ (اعملوا) أي اعملوا الشكر . وفيه أوجه أخرى
غير المفعول به ^(٢) .

فالسابغ هو الوافي المتسع كما ذكرنا ، فناسب ذلك العمل الذي هو
أعم من الشكر .

فناسب كل تعبير موضعه من جهة أخرى .

* * *

﴿ وَلَسَلِّمَنَّ الرِّيحُ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِى إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمِينَ ﴾ ^(٨١) وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا
لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾

ورد هذا الجانب من قصة سليمان في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم :
في الأنبياء وسبأ و(ص) . غير أنها لم تكن متطابقة بل قد يذكر في موضع
ما لا يذكره في الموضع الآخر .

فقد قال في سبأ :

﴿ وَلَسَلِّمَنَّ الرِّيحُ غُدُوها شَهْرٌ وَرَوْاحُها شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنَّ

(١) انظر لسان العرب (سبغ) .

(٢) انظر روح المعاني ٢٢ / ١٢٠ .



مَنْ يَعْمَلْ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٧﴾
يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَجَفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ أَعْمَلُوا
ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقِيلَ لَهُ مِنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ
إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا
لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٩﴾

وقال في (ص):

﴿ فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيْطَانِ كُلِّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ ﴿٣٧﴾
وَأَخْرَيْنَ مُفْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾

* * *

ومن النظر في هذه النصوص يتضح أنها غير متطابقة ، فقد يفصل في جانب ويكمل في جانب ، ويذكر أمراً في موضع ولا يذكره في موضع آخر ، وغير ذلك من الأمور . وهو شأن القصص القرآني فإنه لا يعيد القصة نفسها من دون تغيير في تعبير أو زيادة أو إجمال ونحو ذلك .

وقد بينا في تفسيرنا لسورة هود طرفاً من ذلك .

ومن بين هذه الأمور :

١ - أنه ذكر الريح عاصفة في الأنبياء ، وذكرها رخاء في ص ، وذكرها مطلقة في سبأ .

٢ - ذكر غاية جريان الريح في الأنبياء وهي الأرض التي بارك فيها ، وذكر في سبأ مدة غدوها ومدة رواحها ﴿ غُدُوها شَهْرٌ وَرَوَاحُها شَهْرٌ ﴾ .

وأطلق ذلك في (ص) فلم يذكر شيئاً من ذلك ، وإنما قال : ﴿ حَيْثُ أَصَابَ ﴾ أي حيث أراد وقصد .



٣ - لم يذكر زيغ الشياطين في الأنبياء وإنما قال: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾.

وقال في سبأ إنه من يزغ عن أمره يذقه من عذاب السعير ، ومعنى ذلك أنهم مطلقون غير مقيدون .

وذكر في (ص) أن منهم مقرنين في الأصفاد ، وكأن ذلك لمن زاغ منهم أو حاول أن يزغ .

٤ - ذكر في الأنبياء أن من الشياطين من يغوصون له ويعملون عملاً دون ذلك ، ولم يذكر ما العمل .

وفي سبأ ذكر جملة مما يعملونه فقال: ﴿يَعْمَلُونَ لِمَا يُشَاءُ مِنْ مَّحَرِّبٍ وَتَمْثِيلٍ وَحِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ﴾ .

ولم يذكر في (ص) لهم عملاً ، وإنما ذكر وصفهم فقال: ﴿كُلُّ بَنَاءٍ وَغَوَاصٍ﴾ .

٥ - ذكر الشياطين في الأنبياء وص ، وذكر الجن في سبأ .

٦ - ذكر في سبأ موت سليمان وعدم علم الجن بموته حتى خر بعدما أكلت دابة الأرض وهي الأرضة عصاه .

إلى غير ذلك من الأمور .

ونعود إلى بيان شيء من الأمور البيانية في آيتي الأنبياء .

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ﴾ (٨١)

أي وسخرنا لسليمان الريح بالعطف على الجبال في قوله: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ﴾ ، وكما في قوله: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ [ص: ٣٦] .

وعدى التسخير مع الريح باللام فقال: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ﴾ وعداه مع



الجبال بـ (مع) فقال: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ (٧٩) وذلك للفرق بين التسخيرين. فإن تسخير الريح غير تسخير الجبال. فإن الريح تجري بأمره كما يريد من العصف والرخاء وإلى حيث يريد، بخلاف تسخير الجبال فإنها مسخرة في التسييح مع داود عليه السلام وليس كتسخير الرياح لسيدنا سليمان.

جاء في (تفسير أبي السعود) في قوله: ﴿وَلَسُلَيْمَنَّ الرَّيْحَ﴾: «أي وسخرنا له الريح. وإيراد اللام وهنا دون الأول للدلالة على ما بين التسخيرين من التفاوت. فإن تسخير ما سخر له عليه السلام من الريح وغيرها كان بطريق الانقياد الكلي له والامتثال بأمره ونهيه والمقهورية به تحت ملكوته.

وأما تسخير الجبال والطير لداود عليه السلام فلم يكن بهذه المثابة بل بطريق التبعية له عليه السلام والافتداء به في عبادة الله عز وعلا» (١).

وقال هنا إنه سخر له الريح عاصفة، وذكر في (ص) أنه سخرها له رخاء، فذكر مرة أنها عاصفة، وذكر مرة أخرى أنها رخاء، وذلك بحسب ما يريد. جاء في (البحر المحيط): «ووصفت هذه الريح بالعصف وبالرخاء، والعصف الشدة في السير، والرخاء اللين.

ف قيل: كان ذلك بالنسبة إلى الوقت الذي يريد فيه سليمان أحد الوصفين...

والأرض أرض الشام... وقيل: أرض فلسطين» (٢).

ومن الملاحظ أنه قال هنا: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾

(١) تفسير أبي السعود ٣ / ٧١٩ - ٧٢٠ وانظر روح المعاني ١٧ / ٧٧.

(٢) البحر المحيط ٦ / ٣٣٢.



وقال في الآية الحادية والسبعين من هذه السورة: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾

فذكر أنها للعالمين. ولم يقل ذلك في هذه الآية ، ذلك أن الآية السابقة إنما هي في ذكر الرسالات فقد ذكر إبراهيم ولوطاً وذكر إسحاق ويعقوب ثم قال: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾.

فذكر أنه جعلهم أمة يهدون بأمر الله وأنه أوحى إليه فعل الخيرات.

والهداية إنما هي للعالمين فناسب أن يقول: ﴿بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ وذلك لأن إرسال الرسالات والهداية إنما هي لهم.

وليس في الآية الأخرى مثل ذلك ، وإنما هي الريح تجري بأمر سليمان كما يريد.

فناسب كل تعبير موضعه.

ومن لطيف التناسب أنه ذكر في الأنبياء أن الريح عاصفة ، وذكر في (ص) أنها رخاء.

وكل وصف وضع في مكانه من حيث السياق.

فقد ذكر في الأنبياء أنها عاصفة مناسبة لما قبلها وهو قوله: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِنُخْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ ، والبأس هي الحرب ، والحرب عاصفة.

وقوله: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يعني نوحاً عليه السلام ، وقد كان بين نوح وقومه عصف وشدة مدة طويلة.

وذكر المخاصمة بين أصحاب الحرث والغنم وهي خصومة وشدة.

فناسب ذكر العصف.



وأما في (ص) فذكر أنه عرض على سليمان بالعشي الصافنات الجياد ، فقد قال : ﴿ إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴾ (٣١)

والصافن من الخيل : الذي يرفع إحدى يديه أو رجله ويقف على مقدم حافرها ، فهو يقف على ثلاث قوائم وقد أقام الرابعة على طرف الحافر^(١) .

فالخيل هنا واقفة .

وقال : ﴿ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾ [ص : ٣٣] وأيًا ما كان معنى المسح فإنها تعني أنها في حالة سكون ووقوف .

وقال : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴾ (٣٤) والجسد لا يتحرك .

فناسب ذكر الرخاء .

وهو تناسب لطيف في اختيار اللفظة مع السياق الذي وردت فيه .

﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴾

أي «أحاط علمنا بكل شيء فنجري الأشياء كلها على ما يقتضيه علمنا وحكمتنا»^(٢) .

* * *

﴿ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ ﴾ (٨٧)

جمع الفعل (يغوصون) حملاً على معنى (من) في هذه الآية .

(١) انظر لسان العرب (صفن) ، روح المعاني ٢٣ / ١٩٠ .

(٢) الكشف ٢ / ٣٣٤ - ٣٣٥ .



وقال في (سبأ): ﴿وَمَنْ أَلْجَىٰ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ﴿١٧﴾ بإفراد الفعل (يعمل).

ذلك - والله أعلم - أنه ذكر في الأنبياء أنهم يغوصون ويعملون عملاً دون ذلك ، فذكر الغوص والعمل .

وذكر في سبأ العمل ولم يذكر الغوص ، وقد ذكر أنواعاً من العمل .

والغوص والعمل أكثر من العمل وحده ، فناسب الجمع في آية الأنبياء ، والذي يبدو - والله أعلم - أنهم صنفان : غواص وعامل كما قال سبحانه: ﴿وَالشَّيْطَانُ كُلُّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ﴾ ﴿٣٧﴾

جاء في (فتح القدير): «﴿كُلُّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ﴾ أي كل بناء منهم وغواص منهم يبنون له ما يشاء من المباني ، ويغوصون في البحر فيستخرجون له الدرر منه» ^(١) .

وإذا كان الأمر كذلك فقد ناسب الجمع في الأنبياء من جهة أخرى ذلك لأنهم أكثر فمنهم غواصون ومنهم عاملون .

وأما في سبأ فقد ذكر الذين يعملون ولم يذكر الذين يغوصون .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه ذكر في سبأ أن من الجن من يعمل بين يديه ، فذكر مكان العمل ، وأطلقه في الأنبياء فقد يكون منهم من يعمل بين يديه ، ومنهم من يعمل في أمكنة أخرى يحددها لهم . فهم أكثر .

فناسب جمع الفعل في الأنبياء وإفراده في سبأ من ناحية أخرى .

وقد تقول: ولم ذكر الشياطين في الأنبياء ، وذكر الجن في سبأ؟



فنقول: لقد قال في سياق القصة في سبأ: ﴿ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ (١٦)

فذكر الجن وعدم علمهم بالغيب ، والجن أعم من الشياطين وأكثر .
فإن الجن يعم الكافر والمؤمن منهم ، وأما الشياطين فهم كفر الجن ، فناسب نفي علم الغيب عنهم أكثر وأعم .

وقال في سبأ أيضاً: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْتُولَاءَ إِنِّي أَسْأَلُكُمْ أَنْ تَعْبُدُونِ ﴾ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِئْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴾ (٤١) .

فذكر الجن على العموم من دون تخصيص الشياطين بالعبادة .

فناسب ذكر الجن في سبأ . وليس في الأنبياء نحو ذلك .

فناسب كل تعبير موضعه الذي ورد فيه .

﴿ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴾

أي حافظين من أن يزيغوا عن أمره أو يبدلوا أو يغيروا أو يوجد منهم فساد في الجملة فيما هم مسخرون فيه ^(١) .

وقيل: (حافظين) حتى لا يهربوا ^(٢) أو ما نعينهم من الناس ^(٣) .

وكل ذلك مراد .

* * *

(١) الكشاف ٢ / ٣٣٤ .

(٢) البحر المحيط ٦ / ٣٣٣ .

(٣) التحرير والتنوير ١٧ / ١٢٥ .



﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾

لقد ذكر أيوب بعد ذكر سليمان في هذه السورة وفي سورة (ص) فذكر الغني الشاكر وهو سيدنا سليمان ، وأتبعه بذكر المبتلى الصابر وهو سيدنا أيوب . فجمع بين الحالتين في الابتلاء :

الابتلاء بما يقتضي الشكر ، والابتلاء بما يقتضي الصبر .

فإن من الابتلاء ما يقتضي الشكر كما قال تعالى على لسان سيدنا سليمان : ﴿ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ [النمل : ٤٠] .

ومنه ما يقتضي الصبر كما قال تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة : ١٥٥] .

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ﴾

أي واذكر أيوب إذ نادى ربه .

وقد صرح بالفعل (اذكر) في هذه القصة في سورة (ص) فقال :

﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾

والملاحظ أنه لم يذكر الفعل (اذكر) فيما ورد من قصص الأنبياء في سورة الأنبياء ، بل يذكرهم على تقدير الفعل وذلك قوله : ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا ﴾ ، وقوله : ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَالَّتِي أَحْصَيْنَا فَزَحَّهَا ﴾ .

وهو يذكر الفعل فيما ورد في القصص في سورة (ص) ابتداء من قوله



تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ﴾ ، وقوله: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ وقوله: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ ، وقوله: ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ﴾ .

ومن لطيف التناسب أن سورة (ص) تبدأ بقوله: ﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ فكان من ذلك أن ذكرهم بالفعل (اذكر).

وختم هذه الآيات بقوله: ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ .

ومن لطيف ذلك أيضًا أن يذكر الذكر والتذكر وما إلى ذلك في التعقيب على كل قصة من هذه القصص أو في أثنائها. فقد قال بعد قصة سيدنا داود: ﴿كَتَبْنَا أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ .

وقال على لسان سيدنا سليمان: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ .

وقال في أيوب عليه السلام: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ .

وقال في إبراهيم وإسحاق ويعقوب: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ .

وقال بعد أن ذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل: ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ .

وختم السورة بقوله: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾

وهذا من لطيف التناسب.

﴿أَنِّي مَسْنِي الضُّرِّ﴾

الضُّرُّ بالضم: كل ما كان من سوء حال وفقر وشدة في بدن.



والضَّرَّ بالفتح ضد النفع^(١).

و(رحمة) مفعول لأجله ، والرحمة هي لأيوب ولكل عابد ، والذكرى لغيره (رحمة) من العابدين ليتعظ ويتذكر فيصبر إذا أصابه ضر فتدركه رحمة ربه فيثاب ثواباً مضاعفاً .

جاء في (الكشاف): «ألطف في السؤال حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة ، وذكر ربه بغاية الرحمة ولم يصرح بالمطلوب...» ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذَكَرَى لِلْعَبِيدِينَ﴾ لرحمتنا العابدين وأنا نذكرهم بالإحسان لا ننساهم ، أو رحمة منا لأيوب وتذكروا لغيره من العابدين ليصبروا كما صبر حتى يثابوا كما أثيب في الدنيا والآخرة»^(٢).

وقال ههنا: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ ويقول في مواضع أخرى: ﴿رَحْمَةً مِنَّا﴾.

والملاحظ في القرآن أنه يستعمل ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ للمؤمنين خاصة .

وأما ﴿رَحْمَةً مِنَّا﴾ فيستعملها عامة للمؤمن وغيره . قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَذْقَنَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَّسَّتْهُ لَيَكُونَنَّ هَذَا إِلَى وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾^(٣).

جاء في (البرهان في متشابه القرآن) للكرماني: «وقال: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ لأن (عندنا) حيث جاء دل على أن الله سبحانه تولى ذلك من غير واسطة»^(٣).

وقد بينا ما ورد من التشابه والاختلاف في هذه القصة في سورتي الأنبياء و(ص) في شرحنا لقوله تعالى في سورة يس: ﴿وَلِنْ نَّشَأَنُفَرِّقَهُمُ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ﴾^(٤٣) إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿[يس: ٤٣ - ٤٤] .

(١) انظر لسان العرب (ضرر).

(٢) الكشاف ٢ / ٣٣٠ وانظر البحر المحيط ٦ / ٣٣٤ .

(٣) البرهان ٢٤٣ .



فلا نعيد القول فيه^(١).

ومن الملاحظ أنه قال تعالى هنا: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا﴾ فقال: (فكشفنا) بالفاء.

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنبياء: ٧٦].

وقد يأتي بعد الاستجابة بالواو وذلك نحو قوله تعالى في يونس عليه السلام: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخَيِّضُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله في زكريا عليه السلام: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ﴾.

ومن المعلوم أن الفاء تفيد التعقيب والترتيب ، وأما الواو فلمطلق الجمع ، فلم الاختلاف؟

فنقول: إن كل تعبير مناسب موضعه الذي ورد فيه.

فإنه ذكر في نوح أن كربه عظيم فقال: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ ، والكرب العظيم يستدعي الإسراع في النجاة.

وقد تقول: لكنه وصف كربه بأنه عظيم في موضع آخر ولم يأت بالفاء بل جاء بالواو وذلك قوله تعالى في سورة الصافات: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحَ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ وَيَجِيئُهُ وَأَهْلُهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾.

فما الفرق؟

فنقول: لقد ذكر في الأنبياء أمرين كل منهما يستدعي النجاة وهما الكرب العظيم وإساءة قومه إليه ، قال تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾

(١) انظر (على طريق التفسير البياني - ج ٢) سورة يس ٢ / ١٧٩ وما بعدها.



فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَجَئْنَاهُ وَآهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ .
فذكر أمرين .

وأما في الصفات فذكر أمراً واحداً ولم يذكر قومه فناسب الإسراع في النجاة في الأنبياء .

وقال في أيوب إنه دعا ربه بذكر أعلى صفات الرحمة فقال : ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ ﴾ .

وسعة الرحمة تستدعي الإسراع في النجاة .

وأما يونس فقد فعل ما هو خلاف الأولى ، فقد ذهب مغاضباً قومه من دون أن يأذن له سبحانه بذلك .

وأقر بظلمه لنفسه قائلاً : ﴿ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ وليس من ظلم نفسه كمن لم يظلم نفسه . ولذا ذكره في موضع آخر أنه سبحانه نبذه بالعراء وهو سقيم وأنبت عليه شجرة من يقطين ﴿ فَبَدَّلْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ [١٤٥] وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ ﴿ [الصفات : ١٤٥ - ١٤٦] .

وقال سبحانه لنبیه : ﴿ فَأَصْرِ لِي تُهْمًا وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْهَوْتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ [٤٨] لَوْلَا أَن تَذَرْنَاهُ فَرْدًا مِّن رَّبِّهِ لَنُبَذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿ [القلم : ٤٨ - ٤٩] .

فلم يأت بالفاء الدالة على التعقيب .

وأما ما فيه زكريا عليه السلام فإنه ليس ككرب نوح ولا كضرر أيوب ، والأمر فيه سعة .

ولا شك أنه وهب له يحيى بعد حمل أمه له .

فلم يستدع ذلك التعقيب بالفاء ، والله أعلم .



﴿وَأَسْمِعِمْ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ (٨٥) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾

ذكر هؤلاء بعد أيوب لاشتراكهم في الصفة التي ذكر بها أيوب وهي الصبر وذلك في قوله سبحانه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ [ص: ٤٤]. يدل على ذلك أنه ختم الآية بقوله: ﴿كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾.

جاء في (روح المعاني): «أي كل واحد من هؤلاء (من الصابرين) على مشاق التكليف وشدائد النوب، ويعلم هذا من ذكر هؤلاء بعد أيوب عليهم السلام»^(١).

وجاء في (التحرير والتنوير): «عطف على أيوب، أي وآتيناه إسماعيل وإدريس وذا الكفل حكماً وعلماً. وجمع هؤلاء الثلاثة في سلك واحد لاشتراكهم في خصيصة الصبر كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾. جرى ذلك لمناسبة ذكر المثل الأشهر في الصبر وهو أيوب»^(٢).

ثم قال بعد ذلك: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ جعل الصلاح سبباً للدخول في رحمته سبحانه.

وقد بينا نحو هذا التعبير في قوله تعالى في هذه السورة: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٧٥) وذلك في سيدنا لوط عليه السلام.

* * *

(١) روح المعاني ١٧ / ٨٢.

(٢) التحرير والتنوير ١٧ / ١٢٨.



﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُصْحِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾

وردت قصة يونس في أكثر من موضع وهي لم تتكرر شأن القصص القرآني .

فقد وردت في سورة يونس والأنبياء والصافات والقلم .

أما في يونس فقد وردت الإشارة إلى قومه وإيمانهم في آية واحدة ، فذكر ربنا سبحانه أنه استثناهم من سائر القرى والأقوام فقد آمنوا فلم يعذبهم وذلك قوله سبحانه :

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ أَمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ ﴾

ووردت في سورة الأنبياء فلم يذكر دعوته ولا موقفًا له مع قومه سوى أنه خرج مغاضبًا فوقع في غم فدعا ربه فنجاه منه . ولم يذكر ما هذا الغم سوى أنه قال إنه نادى ربه في الظلمات ، ولم يذكر ما هذه الظلمات .

وهذا ما ورد منها :

﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُصْحِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾

ووردت في الصافات وهي أكثر من تفصيلاً وذكر فيها ما لم يذكره في المواطن الأخرى من أبقه إلى الفلك ، أي هرب من غير خوف ، وأنه ساهم أي اقترع فلم يفلح في القرعة ، وأنه ألقى في البحر فالتقمه الحوت ثم نجاه الله من بطن الحوت فنبذه بالعراء وهو مريض ، وأنبت عليه شجرة



من يقطين وأرسله إلى قومه وذكر عددهم ، وأن قومه آمنوا فمتعهم ربهم إلى حين .

وهذا ما ورد في الصافات :

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْقَمَمَةُ الْخَوْتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبَثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَّقُطِينَ ﴿١٤٦﴾ وَارْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾

وأما في سورة القلم فإنه لم يذكر من هذه القصة إلا مخاطبة الله لرسوله أن يصبر وألا يكون كصاحب الحوت إذ دعا ربه وهو مكظوم فتداركته نعمة من ربه فاجتباها ربه فجعله من الصالحين .

وهذا ما ورد منها في هذه السورة .

﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَوْلَا أَن تَدْرِكُهُ نِعْمَةٌ مِّنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْنِبْهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾

فأنت ترى أنها ليست متطابقة ، بل ذكر في كل موضع ما أراد سبحانه أن يركز عليه وما يتناسب مع السياق الذي ورد فيه ذكره .

والآن نرجع إلى ما ورد منها في سورة الأنبياء للنظر فيها من الناحية البيانية .

* * *

﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَن لَّنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَبَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾

ورد اسمه عليه السلام وهو يونس في أكثر من موضع .



وورد هنا باسم ذي النون ، وورد في موضع آخر باسم صاحب الحوت .

والنون هو الحوت ، وذو النون أي صاحب الحوت .

وفُرق النحاة بين (ذو) و(صاحب) أن (ذا) لا تضاف إلى مضمّر ولا إلى وصف وإنما تضاف إلى اسم ظاهر غير صفة ، وما خالف ذلك فهو نادر^(١) .

وأما (صاحب) فتضاف إلى ظاهر ومضمّر ، ووصف وغير وصف فتقول: (هو صاحبنا) ، وهو صاحب القائمين بالحق ، وهو صاحب الراكع الساجد محمود .

والملاحظ في استعمال القرآن لهاتين اللفظتين أنه يستعمل (ذا) للعاقل وغيره ، ولم يستعمل كلمة (صاحب) إلا للعاقل .

قال سبحانه: ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ [الرحمن: ١٢] .

وقال: ﴿أَوْ اطْعَمْتُ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ [البلد: ١٤] .

وقال: ﴿بَوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ [إبراهيم: ٣٧] .

وهي هنا لغير العاقل .

وقال: ﴿وَأَتَا ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ [الإسراء: ٢٦] .

وقال: ﴿أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١٦] .

وقال: ﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠] .

وهي هنا للعاقل .

ومن الأعلام المصدرة بذی في القرآن (ذو القرنين) و(ذو الكفل) .

(١) انظر شرح الأشموني ١ / ٧٣ ، شرح التصريح ١ / ٦٣ .

أما (صاحب) فلم ترد إلا للعاقل: مفردة أو مثناة أو مجموعة ،
(كصاحب الحوت) ، وقوله: ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾ [النساء: ٣٦] ،
وقوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢] ، وقوله: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ
لَا تَحْزَنْ﴾ [التوبة: ٤٠] ، وقوله: ﴿يَصْدِحِي السَّجْنَءَ أَزْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ
أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩] .

ونحو أصحاب الجنة وأصحاب النار وأصحاب الحجر وأصحاب
مدین وأصحاب موسى وغير ذلك .
هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى أنه لم يرد من هاتين الكلمتين وصف له سبحانه إلا
كلمة (ذي) نحو: (والله عزيز ذو انتقام) و(ذو العرش المجيد) و(ذو رحمة
واسعة) و(ذو فضل على الناس) و(ذو الجلال والإكرام) و(ذو عقاب
أليم) .

والذي يبدو من استعمال هاتين اللفظتين أن (ذا) كأنها تستعمل أحياناً
لما هو أخص وألصق فلا يصح أو لا يحسن استعمال (صاحب) محلها
وذلك نحو قوله: ﴿أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبٍ﴾ فلا يحسن أو لا يصح أن
يقال: (في يوم صاحب مسغبة) .

وقوله: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾

وقوله: ﴿قُرْءَانًا غَرِيْبًا غَيْرِ ذِي عِوَجٍ﴾

وقوله: ﴿أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾

فإنه لا يصح استعمال (صاحب) مكانها .

ولا يصح في نحو قولك: (الدواء ذو مرارة) أن يقال: (الدواء
صاحب مرارة) .



إن لفظة (صاحب) قد تفيد المصاحبة ، وأما (ذو) فإنها قد تكون لما هو من صفات الشيء أو خصوصياته . فقولك مثلاً: (هو صاحب أبي بكر) لا يصح أن يقال بدله: (هو ذو أبي بكر) ، ولا يصح في قولك: (هو صاحب زيد) أن يقال: (هو ذو زيد) .

وكذلك في أسماء الأعلام نحو (ذي القرنين) فلا يصح أن يقال فيه: (صاحب القرنين) .

ونحوه: ذو يزن ، ذو رعين ، وذو نواس ، وذو الكلاع ، وهي ألقاب لبعض من ملوك اليمن التابعة^(١) .

وأما بالنسبة لاستعمال هذين الاسمين لسيدنا يونس عليه السلام فالذي يبدو - والله أعلم - أنه استعمل ذا النون فيما هو أمدح له . ذلك أنه استعمل (صاحب الحوت) في مقام النهي عن أن يكون رسول الله ﷺ مثله في قلة صبره ، قال تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ۚ ﴾ .

وأما اسم (ذي النون) فاستعمله في مقام تسبيحه واعترافه بظلمه لنفسه واستجابة ربه لدعائه ، ثم قال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ۚ ﴾ أي إذا وقعوا في غم فسبحوا ربهم أنجاهم ربهم سبحانه كما نجى ذا النون ، فإن التسبيح ينجي من الغم ومدعاة لإجابة دعائهم . ولقد طلب سبحانه من نبيه عليه السلام عندما ضاق صدره بما يقول قومه أن يسبح بحمد ربه فقال له: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٩٧ - ٩٨] .

وقال له أيضاً: ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ

(١) انظر (لسان العرب) (ذو) ٢٠ / ٣٤٥ .



وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ أَانَايِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴿١٣٠﴾ .
وقال في ذي النون: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلِثَّ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ
يُبْعَثُونَ﴾ [الصفات: ١٤٣ - ١٤٤] .

جاء في (الإتقان) للسيوطي: «قال السهيلي: الوصف بـ (ذو) أبلغ من
الوصف بصاحب ، والإضافة بها أشرف. فإن (ذو) يضاف للتابع
(صاحب) يضاف إلى المتبوع ، تقول: أبو هريرة صاحب النبي ، ولا
تقول: النبي صاحب أبي هريرة .

وأما (ذو) فإنك تقول: ذو المال وذو العرش ، فتجد الاسم الأول
متبوعاً غير تابع. وبني على هذا أنه تعالى قال في سورة الأنبياء: (وذا
النون) فأضافه إلى النون وهو الحوت .

وقال في سورة (نون): ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ ، قال: والمعنى
واحد ولكن بين اللفظين تفاوت كثير في حسن الإشارة إلى الحالين . فإنه
حين ذكره في معرض الثناء عليه أتى بـ (ذي) لأن الإضافة بها أشرف ،
وبالنون لأن لفظه أشرف من لفظ الحوت لوجوده في أوائل السور ،
وليس في لفظ الحوت ما يشرفه بذلك ، فأتى به وبصاحب حين ذكره في
معرض النهي عن اتباعه» ^(١) .

﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ .

أي ذهب غاضباً على قومه لعدم استجابتهم له من دون أن يأذن الله له
بذلك فتركهم ليدعو إلى دين الله في مكان آخر ، وظن أن ذلك يسوغ له
وأن الله لن يضيق عليه وأن في الأمر سعة .

(١) الإتقان في علوم القرآن ٢ / ٢٩٢ - ٢٩٣ وانظر البرهان في علوم القرآن للزركشي
٢٧٩ / ٤ .



ومعنى (لن نقدر عليه) لن نضيق عليه كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦] ، وقوله: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلْنَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ﴾ [الفجر: ١٦].

جاء في (الكشاف): «(النون): الحوت ، فأضيف إليه .

برم بقوله لطول ما ذكرهم فلم يذكروا وأقاموا على كفرهم فراغمهم وظن أن ذلك يسوغ حيث لم يفعله إلا غضباً لله وأنفة لدينه وبغضاً للكفر وأهله .

وكان عليه أن يصابر وينتظر الإذن من الله في المهاجرة عنهم فابتلي ببطن الحوت . . .

(فقدّر عليه) فسرت بالتضييق عليه»^(١) .

﴿فَكَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾

الفاء فصيحة أفصحت عن المحذوف وهو ما كان من المساهمة وهي الاقتراع وإلقائه في البحر والتقام الحوت له .

أي ركب الفلك فساهم فدحض في المساهمة ولم يفلح ، فألقي في البحر فالتقمه الحوت فنادى ربه .

جاء في (روح المعاني): «(فنادى) الفاء فصيحة أي فكان ما كان من المساهمة والتقام الحوت فنادى» .

(في الظلمات) أي في الظلمة الشديدة المتكاثفة في بطن الحوت جعلت الظلمة لشدتها كأنها ظلمات . . . أو الجمع على ظاهره والمراد ظلمة بطن الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل»^(٢) .

(١) الكشاف / ٢ / ٣٣٥ .

(٢) روح المعاني ١٧ / ٨٤ ، وانظر فتح القدير ٣ / ٤١٠ ، ابن كثير ٣ / ١٩٢ .



وقوله: ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ إقرار بظلمه لنفسه .

وقال: ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فوصف نفسه بالظلم الثابت فجاء بالصيغة الاسمية ، ذلك أنه استعظم ما فعله من غير إذن ربه له .

جاء في (التحرير والتنوير) في قوله: ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ «مبالغة في اعترافه بظلم نفسه»^(١) .

ولعل في هذا الترتيب إشارة إلى ما يحسن بالداعي أن يفعله وهو البدء بالثناء على الله ثم يدعو بحاجته والله أعلم .

والمقصود بالنداء هنا الدعاء ، بدليل قوله سبحانه: ﴿فَاسْتَجِبْنَا لَهُ﴾ .

﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمُؤْمِنِينَ﴾

ذكرنا في موضع سابق من السورة مجيء التنجية بالواو ومجيئها بالفاء ، ومنها ما ورد في هذه الآية فلا نعيد القول فيه .

ومن الملاحظ أن قال: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

فقال أولاً: (نجيناه) ثم قال: (وكذلك نُنْجِي).

و(نُنْجِي) مضارع (أنجي - أنجينا).

فاستعمل (نجى) أولاً ، واستعمل (أنجي) بعد ذلك . وقد ذكرنا في أكثر من موضع أن (نجى) يفيد التلبث والتمهل في التنجية ، وأن (أنجي) يفيد الإسراع فيها . فإن (أنجي) أسرع من (نجى) في التخليص من الشدة والكرب^(٢) .

(١) التحرير والتنوير ١٧ / ١٣٢ .

(٢) انظر كتابنا (بلاغة الكلمة في التعبير القرآني) ص ٧٤ وما بعدها .



فاستعمل (نجى) الذي يفيد المكث والتلبث مع رسوله ، واستعمل (أنجى) الذي يفيد الإسراع في النجاة مع المؤمنين ، ذلك لأن الرسل أعظم صبراً من عامة المؤمنين . ولذلك قال : (ننجي) مع المؤمنين ، أي يخلصهم ربنا مما هم فيه بسرعة لأنهم ليس لهم صبر كصبر الرسل . وهذا من لطف الله بهم ورحمته لهم .

ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ نَجَّيْ رُسُلَنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقَّقًا عَلَيْنَا نَجْجَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ١٠٣] .

جاء في (نظم الدرر) : «ذكر التنجية أولاً يدل على مثلها ثانيًا ، وذكر الإنجاء ثانيًا يدل على مثله أولاً .

وسر ذلك الإشارة إلى شدة العناية بالمؤمنين ؛ لأنهم ليس لهم كصبر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بما أشار إليه بحديث : (أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل) (يبتلى المرء على قدر دينه) فيسلّمهم سبحانه من البلاء كما تسلّ الشعرة من العجين ، فيكون ذلك مع السرعة في لطافة وهناء» ^(١) .

* * *

﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾

وردت قصة زكريا في ثلاثة مواضع من القرآن : في آل عمران ، وفي سورة مريم ، وفي هذا الموضع من سورة الأنبياء .

وهي أيضاً ليست متطابقة شأن ما ذكرنا عن القصص القرآني .

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٤٦٧/١٢ .



فقد ذكر ربنا في آل عمران أن زكريا دعا ربه أن يهب له ذرية طيبة ولم يخص الذرية بكونها ذكراً أم أنثى ، وذلك لما رأى ما أكرم الله به مريم في أنها كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقاً من عند الله ، فدعا ربه أن يهب له ذرية طيبة .

وأما في سورة مريم فقد ذكر زكريا حاله من شيخوخته ووهن عظمه وعقر زوجه داعياً ربه أن يهب له ولياً يرثه ، وطلب من ربه أن يجعله رضيعاً .

وقد ذكرنا ما ورد من هذه القصة في سورتي آل عمران وسورة مريم وبيننا جانباً من الناحية البيانية فيهما في كتابنا (بلاغة الكلمة في التعبير القرآني) في باب تعاور المفردات ، فلا نعيد القول فيه .

وأما ما ورد في سورة الأنبياء فهو طلب موجز وذلك قوله : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ .

فاستجاب له ربه بقوله : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ يُحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ﴾ .

ولم يذكر صفة يحيى كما ذكر في آل عمران بقوله : ﴿ أَنْ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا لِّكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (٣٩) .

أو في سورة مريم من وصفه له بقوله : ﴿ وَكَانَ تَقِيًّا ﴾ (١٣) وَبَرًّا بِوَالَدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾ [مريم : ١٣ - ١٤] .

ولم يذكر تعجب زكريا من ذلك ولا طلبه أن يجعل له آية كما في الموضعين الآخرين .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى نلاحظ أنه قال في سورة مريم : ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبُّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾ (٢) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي . . . ﴾

فجمع بين النداء والقول : (نادى) و(قال) ، في حين قال في الأنبياء :



﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾

فاكتفى بفعل النداء ، ولم يقل : (إذ نادى ربه قال رب) وذلك أنه تبسط في النداء والدعاء في مريم ، وأوجز في النداء والدعاء في الأنبياء .

فناسب التفصيل التفصيل ، وناسب الإيجاز الإيجاز .

ثم إن الجمع بين النداء والقول يفيد التوكيد إضافة إلى التبسط ، فإنه جمع ما فيه معنى القول والقول ، فناسب التفصيل والإلحاح في الطلب أن يجمع بينهما في مريم .

وقد بينا ذلك بصورة مفصلة في كتابنا (الجملة العربية تأليفها وأقسامها) وعرضنا لهاتين الآيتين فيما عرضنا من الأمثلة^(١) .

ونعود الآن إلى القصة للنظر في شيء من الناحية البانية .

* * *

﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾

إن مناسبة قصة زكريا لما ذكر قبلها في هذه السورة أنه «لما كان حاصل أمر يونس عليه السلام أنه خرج من بطن لم يعهد الخروج من مثله عطف عليه قصة زكريا عليه السلام في هبته له ولدًا من بطن لم يعهد الحمل من مثله في العقم واليأس ناظرًا إلى إبراهيم عليه السلام أول من ذكر تصريحه في آحاد العناصر فيما اتفق له من مثل ذلك في ابنه إسحاق عليه السلام . . .

تلاه بإبداع ابن خالته عيسى عليه السلام الذي هو علم للساعة على حال أغرب من حاله فأخرجه من أنثى بلا ذكر»^(٢) .

(١) الجملة العربية تأليفها وأقسامها ٢١٥ - ٢١٦ .

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ١٢ / ٤٦٨ - ٤٧٠ .



ومن الملاحظ فيما ورد من القصص الواردة في هذه السورة أن المناداة من الأنبياء لربهم سبحانه لم تذكر على صورة واحدة.

فقد قال في (نوح) عليه السلام: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ﴾ [الأنبياء: ٧٦]

ولم يقل إنه نادى ربه ولكن علم من قوله: ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ﴾ أنه نادى ربه .

وقال في أيوب: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ ﴾ فقال: ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ ﴾ ، وعرض حاله ، ولم يطلب شيئاً صريحاً ، ولكن علم من عرض الحال أنه دعا بكشف الضر .

وقال في ذي النون: ﴿ فَكَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

وهذا واضح أنه نادى ربه ، إلا أنه ذكر ذلك بصورة التوحيد والتنزيه .
فقوله: (لا إله إلا أنت) هو توحيده سبحانه ونفي الشرك . وقوله: (سبحانك) تنزيه له عن كل نقص .
وذكر أنه كان ظالماً لنفسه .

ولم يصرح بطلب شيء معين ولكن علم من قوله سبحانه: ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَبَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ﴾ أنه كان في غم .

وأما دعوة زكريا فهي تختلف عن كل ما ورد .

فقد قال: ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا ﴾ .

فذكر أنه نادى ربه .

وذكر مناداته له بقوله: (رب) ، ولم يذكر عن أحد ممن ورد في السورة ذلك .



وذكر طلبه الصريح وهو قوله: ﴿لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾

ولم يذكر مثل ذلك عن أحد من الأنبياء ممن ورد في السورة.
فالمناداة متدرجة .

إذ نادى

إذ نادى ربه

فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت (بالخطاب لله سبحانه)

إذ نادى ربه رب

وأما الدعاء فلم يكن بالفحوى ولا بعرض الحال فيما ذكر عن نوح .

وكان بعرض الحال في أيوب .

وكان بذكر ظلم النفس فيما ذكر عن يونس .

وكان بالطلب الصريح في قصة زكريا .

ومن اللطيف في ذكر الخطاب لله سبحانه أن يكون كل خطاب مناسباً
لحال الداعي .

فلما قال أيوب: ﴿أَنِّي مَسْنِي الضُّرُّ﴾ ذكر صفة الرحمة بقوله: ﴿وَأَنْتَ
أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ﴾ ليرحمه ويكشف عنه الضر .

ولما ذكر يونس ظلمه لنفسه وتقصيره بحق ربه قال لربه: (سبحانك)
فتزحه عن كل نقص . فالعبد مقصر ظالم لنفسه ، والله سبحانه منزّه عن كل
نقص .

ولما قال زكريا: ﴿لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ فطلب ذرية ترثه قال: ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ
الْوَارِثِينَ﴾

فناسب كل تذييل حال الداعي .



وقوله: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ يعني لا تتركني وحيدًا بلا وارث يرثني .

وقوله: ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ أي أنت خير من يرث خلقه ، فإنك «إن لم ترزقني من يرثني فلا أبالي فإنك خير وارث»^(١) .

وجاء في (روح المعاني): أن المراد «وأنت خير حي يبقى بعد ميت . وفيه مدح له تعالى بالبقاء وإشارة إلى فناء من سواه من الأحياء»^(٢) .

وقوله: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ يعني أنه «أصلحها للولادة بأن أزال عنها المانع»^(٣) .

والظاهر أنه أصلحها لكل ما يحسن بالزوجة أن تكون .

«وقدم هبة يحيى مع توقفها على إصلاح الزوج للولادة لأنها المطلوب الأعظم ، والواو لا تقتضي ترتيباً»^(٤) .

والتقديم إنما يكون بحسب الأهمية تبعاً لما يقتضيه السياق .

وليس بالضرورة تقديم المتقدم حساً أو وجوداً .

فقد يقدم المتأخر لمقتضى بياني وذلك نحو قوله تعالى: ﴿يَمْرُؤٌ أَفْتَى لِرَبِّكَ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَبِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣] .

فقدم السجود على الركوع مع أن الركوع أسبق .

وقال: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٢٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٥] .

والأم والأب أسبق من الأخ .

(١) الكشاف ٢ / ٣٣٦ .

(٢) روح المعاني ١٧ / ٨٧ .

(٣) التفسير الكبير ٨ / ١٨٢ .

(٤) روح المعاني ١٧ / ٨٧ .



وقال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣].

ومن ذكر من بعد عيسى أسبق منه .

وداود أسبق من سليمان ابنه لكنه ذكر بعده .

وقال: ﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾ ٤ ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَاهْلِكُ﴾ بِالطَّاغِيَةِ ٥ ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَاهْلِكُ﴾ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ٦ ﴿[الحاقة: ٤ - ٦] .

وعاد أسبق من ثمود .

وقد بينا ذلك من التقديم والتأخير في أكثر من موضع في كتاب (التعبير القرآني) ، وفي كتاب (الجملة العربية تأليفها وأقسامها) وغير ذلك من المواضع .

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ .

الظاهر أن الضمير في (إنهم) يعود على الأنبياء المذكورين ، أي أن استجابتنا لهم إنما كان بسبب مسارعتهم في الخيرات ودعائهم لنا .

جاء في (الكشاف): «(إنهم) الضمير للمذكورين من الأنبياء عليهم السلام ، يريد أنهم ما استحقوا الإجابة إلى طلباتهم إلا لمبادرتهم أبواب الخير ومسارعتهم في تحصيلها كما يفعل الراغبون في الأمور الجادون» (١) .

وجاء في (البحر المحيط): «والضمير في (إنهم) عائد على الأنبياء السابق ذكرهم ، أي أن استجابتنا لهم في طلباتهم كان لمبادرتهم الخير ولدعائهم لنا . . . وقيل الضمير يعود على زكريا وزوجه وابنهما يحيى» (٢) .

(١) الكشاف ٢ / ٣٣٦ .

(٢) البحر المحيط ٦ / ٣٣٦ .



وقال: ﴿يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ ولم يقل: (يسارعون إلى الخيرات) لأنهم فيها وهم يجدّون في عملها. ولو قال: (يسارعون إلى الخيرات) لكان المعنى أنهم يتجهون إليها وليسوا فيها.

ونحو ذلك قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ [المائدة: ٤١] فقال: ﴿يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ لأنهم كفار يجدّون في الكفر ، ولم يقل: (يسارعون إلى الكفر) أي يسرعون إليه.

جاء في (تفسير أبي السعود): «﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ تعليل لما فصل من فنون إحسانه تعالى المتعلقة بالأنبياء المذكورين. أي كانوا يبادرون في وجوه الخيرات مع ثباتهم واستقرارهم في أصل الخير ، وهو السر في إثارة كلمة (في) على كلمة (إلى) المشعرة بخلاف المقصود من كونهم خارجين عن أصل الخيرات متوجهين إليها كما في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَعْفَرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾»^(١).

وجاء في (روح المعاني) في هذا التعبير: «والمعنى أنهم كانوا يجدّون ويرغبون في أنواع الأعمال الحسنة. وكثيراً ما يتعدى (أسرع) بـ (في) لما فيه من معنى الجد والرغبة، فليست (في) بمعنى (إلى)، أو للتعليل»^(٢).
﴿وَيَدْعُونَكَ رَغْبًا وَرَهْبًا﴾.

أي رغباً في رضا الله وطاعته ، وخوفاً من معصيته وعقابه ، كما قال تعالى: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: ٥٦].

ورغباً ورهباً يحتمل أن يكونا مصدرين في موضع الحال ، أي راغبين وراهبين ، كما يحتمل أن يكونا مفعولاً لأجله^(٣) ، «وهو كقوله تعالى:

(١) تفسر أبي السعود ٣ / ٧٢٤.

(٢) روح المعاني ١٧ / ٨٧.

(٣) انظر البحر المحيط ٦ / ٣٣٥.



﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩] ^(١).

وقدم المسارعة في الخيرات لأنها مدعاة إلى إجابة الدعاء ،
فالمسارع في الخيرات أدعى أن يجاب دعاؤه .

﴿وَكَاْنُوْا لَنَا خَشِيعِيْنَ﴾

أي متضرعين خائفين متذللين له .

جاء في (تفسير أبي السعود): «﴿وَكَاْنُوْا لَنَا خَشِيعِيْنَ﴾ أي مخبتين
متضرعين أو دائمي الوجل .

والمعنى أنهم نالوا من الله تعالى ما نالوا بسبب اتصافهم بهذه الخصال
الحميدة» ^(٢).

وقيل : متواضعين ^(٣).

* * *

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيْهَا مِنْ رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا
ءَايَةً لِلْعَالَمِيْنَ﴾ ^(١)

إن مناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة ، ذلك أنه ذكر قبل الآية ولادة
يحيى من أبوين لا يولد لهما في العادة ، فأبوه زكريا عليه السلام شيخ
كبير واهن العظم ، وأمه عاقر .

وذكر في هذه الآية ما هو أعجب وأغرب وهو ولادة عيسى من أم بلا
أب .

(١) الكشف ٣٣٦/٢ .

(٢) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٢٤ .

(٣) الكشف ٣٣٦/٢ .



لقد ورد نحو هذا المعنى في سورة التحريم وذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا وَكَانَتْ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾ (١٧).

ومن الملاحظ أن هناك تشابها واختلافاً بين التعبيرين .

من ذلك :

أنه ذكر اسم مريم في آية التحريم ، ولم يذكره في آية الأنبياء .

وقال في آية الأنبياء : ﴿ فَنفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا ﴾ بتأنيث الضمير في (فيها) .

وقال في آية التحريم : ﴿ فَنفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا ﴾ بتذكير الضمير في (فيه) .

وذكر ابنها في آية الأنبياء ، ولم يذكره في آية التحريم .

وقد ذكرنا جانباً من الملاحظ البيانية في ذلك في كتابنا (من أسرار البيان القرآني) في موضع (التشابه والاختلاف) ^(١) فلا نعيد القول فيه .

قد تقول : لقد قال في آية الأنبياء هذه : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا وَأَبْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ فقدم ضمير الأم على الابن .

وقال في سورة (المؤمنون) : ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ (٥٠)

فقدم الابن على أمه ، فلم ذاك ؟

فنقول : إن كل تعبير هو المناسب في سياقه .

فإن الكلام في آية الأنبياء على مريم فقال : ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾

(١) من أسرار البيان القرآني ١٥٩ - ١٦١ .



فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا ﴿٤٤﴾ فَنَاسِبَ تَقْدِيمِهَا .

وأما آية (المؤمنون) فقد وردت في سياق إرسال الرسل إلى أممهم ، فقال : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلًّا مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٥﴾ 》 .

ثم ذكر إرسال موسى وأخيه هرون (٤٥) .

ثم ذكر قبل الآية إيتاء موسى الكتاب فقال : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٦﴾ 》 .

فَنَاسِبَ تَقْدِيمِ ابْنِهَا الَّذِي هُوَ رَسُولٌ مِنْ رَسْلِ اللَّهِ .

ثم خاطب بعد الآية الرسل فقال : ﴿ يَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴿٥١﴾ 》 .

فَنَاسِبَ هَذَا أَيْضًا تَقْدِيمِ ابْنِ مَرْيَمَ الَّذِي هُوَ رَسُولٌ فَدَخَلَ فِي الْمُخَاطَبِينَ .

هذا إضافة إلى أنه لم يذكر أمه التي أحصنت فرجها فنَفَخَ فيها من روحه فلم يقدم ضمير أمه .

قد تقول : إن آية الأنبياء وردت أيضًا في سياق الرسل فما الفرق ؟

فنقول : ليس الأمر كذلك ، فإن سياق آيات الأنبياء في إجابة من دعا من الرسل والأنبياء وما تفضل به عليهم وليس في سياق إرسال الرسل إلى أقوامهم ، بخلاف السياق في آيات سورة (المؤمنون) ، فإنه في الكلام على الرسل وتبليغ دعوة الله إلى أقوامهم وموقف أقوامهم منهم .

وهذا واضح من النظر في كل من السياقين .

فإن قصة نوح في الأنبياء وردت في آيتين ، ووردت في سورة (المؤمنون) في سبع آيات ، من الآية الثالثة والعشرين إلى الآية التاسعة والعشرين .



ثم ذكر رسولا بعد ذلك وتبليغه دعوة ربه وموقف قومه منه في إحدى عشرة آية ، من الآية الثانية والثلاثين إلى الآية الثانية والأربعين .

ثم ذكر رسلا آخرين على العموم ، وذكر بعد ذلك موسى وهارون وإرسالهما إلى فرعون وملئه .

ثم ذكر بعد ذلك ابن مريم . فناسب تقديمه مناسبة للسياق الذي وردت فيه الآية .

ومن المناسب هنا أن نذكر مناسبة ما ختم به آية (المؤمنون) وهو قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ۝٥٠ ﴾ لما جاء بعدها وهو قوله : ﴿ يَتَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٥١ ﴾ فقوله : ﴿ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ مناسب لما بعدها وهو قوله : ﴿ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ .

فقوله : (ذات قرار) يعني ذات ثمار وزروع وماء جارٍ .

والمعين : الماء الظاهر الجاري ^(١) .

ومناسبتها ظاهرة لقوله بعدها : ﴿ يَتَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ .

* * *

﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ۝١٦ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلْتِنَاذٍ عُتُوٌّ ۝١٧ ﴾

أي إن هذه ملتكم ملة واحدة وهي ملة الإسلام ، وهي الملة التي كان عليها الأنبياء والمرسلون وهي متفقة في أصولها ولا تختلف إلا في الفروع كما قال تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا

(١) انظر الكشف ٢ / ٣٦٣ ، روح المعاني ١٨ / ٣٨ - ٣٩ .



إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴿الشورى: ١٣﴾ .

وقال لنبيه خاتم الرسل: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام ١٦١] .

وقال: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣] .

جاء في (الكشاف): «الأمة: الملة ، و(هذه) إشارة إلى ملة الإسلام . أي إن ملة الإسلام هي ملتكم التي يجب أن تكونوا عليها لا تنحرفون عنها ، يشار إليها ملة واحدة غير مختلفة . . . والخطاب للناس جميعاً» ^(١) .

وجاء في (البحر المحيط): «ويحتمل أن تكون (هذه) إشارة إلى الطريقة التي كان عليها الأنبياء المذكورون من توحيد الله تعالى هي طريقتكم وملتكم طريقة واحدة لا اختلاف فيها في أصول العقائد ، بل ما جاء به الأنبياء من ذلك هو ما جاء به محمد ﷺ» ^(٢) .

* * *

﴿وَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلَّ إِلَيْنَارٍ جَعُولٍ﴾

أي إن ذوي الملل السابقة تقطعوا أمرهم بينهم وتفرقوا وخالفوا أمر ربهم وعبدوا آلهة متعددة فأصبحوا فرقاً شتى . ثم توعدهم بأنهم سيرجعون إلى ربهم وهو محاسبهم .

جاء في (الكشاف): «والأصل (وتقطعتم) إلا أن الكلام صرف إلى

(١) الكشاف ٢ / ٣٣٦ .

(٢) البحر المحيط ٦ / ٣٣٧ .

الغبية على طريقة الالتفات ، كأنه ينعى عليهم ما أفسدوه إلى آخرين ويقبح عندهم فعلهم . . .

والمعنى : جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً كما يتوزع الجماعة الشيء ويتقسمونه . . . تمثيلاً لاختلافهم فيه وصيرورتهم فرقاً وأحزاباً شتى ، ثم توعدهم بأن هؤلاء الفرق المختلفة إليه يرجعون ، فهو محاسبهم ومجازيهم^(١) .

قد تقول : لقد قال في موضع آخر :

﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥٢ - ٥٣] .

وواضح أن هناك تشابهاً واختلافاً بين النصين .

فقد قال في آية الأنبياء : ﴿ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾

وقال في آية (المؤمنون) : ﴿ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ ﴾

وقال في سورة (المؤمنون) : زُبُرًا .

ولم يقل ذلك في آية الأنبياء .

وقال : ﴿ وَتَقَطَّعُوا ﴾ بالواو في آية الأنبياء .

وقال : ﴿ فَتَقَطَّعُوا ﴾ بالفاء في آية المؤمنون .

ثم إن خاتمة كل من الآيتين مختلفة عن الأخرى .

وقد بينا ذلك في كتابنا : (التعبير القرآني) في باب (الحشد الفني) .

فلا موجب لتكراره .

* * *



﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيهِ وَإِنَّا لَهُ كَافِرُونَ﴾ (٩٤)

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾

أي من يعمل بعض الصالحات أو يعمل بعضاً من الصالحات .
(من يعمل بعض الصالحات) أي يعمل عملاً أو أكثر من الأعمال الصالحة .

و(من يعمل بعضاً من الصالحات) أي يعمل جزءاً من العمل الصالح وإن لم يستوفه كله أو أن يشترك مع جماعة في عمل صالح كأن يشترك مع جماعة لإنقاذ شخص من الغرق أو إطفاء حريق في دار ونحو ذلك .
فـ (من) تفيد التبعض .

والكفران هو جحود النعمة وسترها وعدم شكرها .
فمعنى (لا كفران لسعيه) أي لا نجحد عمله ولا نحرمه ثوابه .
وقال : ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيهِ﴾ ولم يقل : (لا نكفر سعيه) لأن ذلك أبلغ ، فإنه نفى الجنس بـ (لا) فلا يحرمه شيئاً من الثواب .
وقال : ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيهِ﴾ ولم يقل : (فلا كفران لما عمل) ليدل على أن السعي في الصالحات له أجر وإن لم يفعلها .

فإنه إذا سعى ليعمل صالحاً وهو مؤمن كان له في سعيه ثواب حتى وإن لم يتمكن من فعله . فإن السعي في طلب الحسنات له أجره ، كما أن السعي في السيئات عليه وزره كما قال تعالى : ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ﴾

[النساء : ٨١] .

وقال : ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًّا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ [التوبة : ١٢١] .



وقوله: ﴿وَإِنَّا لَهُ كَنُيُوتٌ﴾ أي مثبتون ذلك في صحيفة عمله لا نترك شيئاً من ذلك.

وقال: ﴿وَإِنَّا لَهُ كَنُيُوتٌ﴾ ولم يقل: (إنا سنكتب عمله) لأن ذلك أكد وأقوى، فقد جاء بالاسم الدال على الثبوت.

لقد قال سبحانه فيمن يسعى في عمل بعض الصالحات: لا كفران لسعيه، وأما من سعى فيما هو أعلى من ذلك فقد ذكر أن له الشكر. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩].

فمن أراد الآخرة وسعى حقها من السعي كما ينبغي فقد قال فيه: ﴿كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾.

والمشكور: المجزي على عمله مع الإنعام عليه «والشكر من الله المجازاة والثناء الجميل»^(١).

والفرق ظاهر بين قوله: (لا كفران لسعيه) وقوله: ﴿فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾.

فإن قوله: (لا كفران لسعيه) يعني لا نجحد جزاء عمله وإنما نوفيّه حقه.

وأما قوله: ﴿فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ فيعني الجزاء والثناء الجميل.

وتوضيح ذلك - والله المثل الأعلى - أن الطالب الداخل في الامتحان يعطى على مقدار إجابته لا يحرم من ذلك شيئاً. فإذا أجاب عن سؤال

(١) لسان العرب (شكر).



واحد أعطي حقه عن ذلك ، وإن أجاب عن أكثر من ذلك أعطي حقه ولا يشكر على ذلك .

إذ الشكر إنما يكون على ما هو أعلى من ذلك من الإصابة والإحسان والزيادة في العلم ونحو ذلك .

جاء في (الكشاف): «(الكفران) مثل في حرمان الثواب ، كما أن الشكر مثل في إعطائه إذا قيل لله : شكور .

وقد نفى الجنس ليكون أبلغ من أن يقول : فلا نكفر سعيه .

﴿وَأَنَّا لَهُ كَنُيُوتٌ﴾ أي نحن كاتبو ذلك السعي ومثبتوه في صحيفة عمله^(١) .

وجاء في (تفسير أبي السعود): «﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ تفصيل للجزاء ، أي فمن يعمل بعض الصالحات أو بعضاً من الصالحات ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بالله ورسله ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ أي لا حرمان لثواب عمله ذلك .

عبر عن ذلك بالكفران الذي هو ستر النعمة وجحودها لبيان كمال نزاهته تعالى عنه . . . وإبراز الإثابة في معرض الأمور الواجبة عليه تعالى ونفي الجنس للمبالغة في التنزيه .

وعبر عن العمل بالسعي لإظهار الاعتداد به .

(وإنّا له) أي لسعيه (كاتبون) أي مثبتون في صحائف أعمالهم لا تغادر من ذلك شيئاً^(٢) .

(١) الكشاف ٢ / ٣٣٧ .

(٢) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٢٥ .



لقد ذكر سبحانه في الآية أن من يعمل بعض الصالحات أو بعضاً منها فلا يكفر سعيه .

وأما من عمل الصالحات فله أعلى الجزاء .

ولا شك أن من عمل بعض الصالحات ليس كمن عمل الصالحات .

قال تعالى فيمن يعمل بعض الصالحات : ﴿ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ ﴾ .

وقال أيضاً : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلُمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ [طه : ١١٢] .

وهو نظير ما ذكر في آية الأنبياء .

وقال : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [النساء : ١٢٤] .

في حين قال فيمن عمل الصالحات : ﴿ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴾ [طه : ٧٥] .

وقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾ [١٠٧] خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حَوْلًا ﴾ [الكهف : ١٠٧ - ١٠٨] .

والفرق ظاهر بين الجزاءين .

ومن الملاحظ فيما ورد من القصص القرآني في هذه السورة أنه قال في سيدنا إبراهيم : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ [٧٦] ، والنافلة : الزيادة - كما ذكرنا - ويقصد بالنافلة يعقوب وهو ولد إسحاق ، فقد وهبه له من غير أن يسأله إياه .

ولم يرد قوله : (نافلة) في غير هذا الموضع من قصة سيدنا إبراهيم .

ومن المناسب أن نذكر أنه سبحانه ذكر في القصص في هذه السورة ما

لم يذكره في مواضع أخرى كما ذكر النافلة في قصة إبراهيم .



فقد قال في موسى وهارون: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءَ وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٤٨﴾

ولم يرد نحو هذا في موضع آخر من قصة موسى وهارون ، أعني قوله : الفرقان وضياء وذكرًا للمتقين .

وقال في لوط : ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿٧٥﴾

ولم يرد نحو هذا فيه في موضع آخر .

وقال في نوح عليه السلام : ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٧٧﴾

ولم يرد نحو هذا في موضع آخر .

وقال في داود وسليمان : ﴿وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ ﴿٧٩﴾

ولم يرد نحو هذا فيهما في موضع آخر .

وقال في أيوب عليه السلام : ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ﴾ ﴿٨٤﴾

ولم يرد نحو هذا فيه في موضع آخر .

وقال في يونس عليه السلام : ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَبَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٨٨﴾

ولم يرد نحو هذا فيه في موضع آخر .

وقال في زكريا عليه السلام : ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ ﴿٩٠﴾

ولم يرد نحو هذا في موضع آخر .

إلى غير ذلك ، وهي من المناسبات اللطيفة في جو السورة .



﴿وَحَرَّمُ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (٤٥)

أي إن عدم الرجوع إلى الحياة الآخرة ممتنع ، ومقتضى ذلك أن الرجوع واجب .

إن هذه الآية مناسبة لقوله سبحانه قبل الآية : ﴿كُلُّ إِلَهِنَا رَجِعون﴾ (٩٣)

ومناسبة لقوله : ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيهِ﴾ لأن ذلك إنما يكون في الآخرة .

ولقوله : ﴿وَأَنَّا لَهُ كَنُوبٌ﴾ لأن الغرض من كتابة السعي إنما هو للجزاء ، وذلك إنما يكون في الآخرة بعد رجوعهم إلى الحياة .

ومناسبة لما بعدها وهو ما ذكره من علامات الساعة وأحداث القيامة ورجوع الناس للحساب .

لقد قال : ﴿وَحَرَّمُ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ والضمير في (أهلكناها) يعود على القرية . ثم قال بعدها : ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ فذكر ضمير أهلها ، ولم يقل : (أنها لا ترجع) وذلك لأن أهلها هم الراجعون والمجزيون على أعمالهم .

إن القرية تطلق على المساكن والأبنية وهو الأصل ، وقد تطلق على أهلها الذين يسكنونها تجوزاً .

وقد استعملها القرآن للمعنيين .

قال تعالى : ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾

[البقرة : ٢٥٩] .

وقال : ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا سَوِيًّا﴾ [الفرقان : ٤٠] .

وهي هنا للمساكن والأبنية .



وقال: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ [الأنبياء: ١١].

وقال: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾ [الحج: ٤٨].

والمقصود بالقرية أهلها فهم الذين ظلموا ثم عاقبهم ربهم.

وقد يذكر القرى ثم يعيد الضمير على أهلها وذلك نحو قوله سبحانه: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩].

فذكر القرى وأعاد الضمير على أهلها فقال: ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ ولم يقل: (أهلكنها لما ظلمت).

وقد يذكر القرى ثم يذكر أهلها وذلك نحو قوله سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩].

وقد يذكر أهل القرية كما قال تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [العنكبوت: ٣١].

وقال: ﴿أَفَأَمِنْ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَّتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧].

قد تقول: قد يقول ربنا عن القرية أحياناً: (أهلكنها) بضمير التأنيث ، ويقول أحياناً عنها: (أهلكناهم) بضمير جمع التذكير مع أن الموطن يبدو متشابهاً.

وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَّتًا أَوْهُمْ قَائِلُونَ﴾ [الأعراف: ٤].

فقال: ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾.

وقوله: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد: ١٣].



فقال: ﴿أَهْلَكْنَهُمْ﴾.

فما الفرق؟

فنقول: إن التأنيث قد يفيد التكثير أو يفيد المبالغة. فإذا عبر بالمفرد المؤنث أفاد كثرة القرى المهلكة، أو أفاد المبالغة والشمول، أي إن التدمير الذي أصابها عام، أصابها وأصاب ساكنيها. أو لملحظ آخر في السياق.

وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ آفِئِكُمْ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الإسراء: ٥٨].

فأفاد كثرة القرى أن التدمير سيصيبها كلها على العموم والشمول، وربما أفاد إهلاكها وإهلاك من فيها.

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿فَكَأَيُّ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرِئُ مُعْطَلَةٌ وَقَصِرَ مَشِيدٌ﴾ [الحج: ٤٥]. ومعنى (خاوية): ساقطة سقوفها.

وقوله: ﴿وَكَأَيُّ مِّنْ قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾ [الحج: ٤٨].

فكل ذلك يفيد التكثير.

والآن نعود إلى الآيتين اللتين ذكرناهما وهما:

آية الأعراف وهي قوله: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾

وآية محمد وهي قوله: ﴿وَكَأَيُّ مِّنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَهُمْ فَلَا نَأْوِيَهُمْ﴾

فقال في آية الأعراف: ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾.



وقال في آية محمد: ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ .

ذلك أن القرى في آية الأعراف أكثر ، فقد خصص القرى في آية محمد بالقوة فقال: ﴿هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ﴾ ، وأطلقها في آية الأعراف فأفاد الكثرة فجاء بضمير المؤنث فيها ، والتأنيث قد يفيد الكثرة كما ذكرنا ، فناسب كل تعبير موضعه .

هذا إضافة إلى أنه سبق آية محمد ذكر من دمر الله عليهم وهم أهل القرى وساكنوها فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا﴾

فناسب ذكر إهلاك أهلها فقال: ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ .

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩] .

وقال في سورة الحج: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبِئْسَ مَعْطَلَةٌ وَقَصْرٌ مَشِيدٌ﴾ [الحج: ٤٥] .

فقال في آية الكهف: ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾

وقال في آية الحج: ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾

ذلك أنه قال في آية الحج: ﴿فَكَأَيِّنْ﴾ ، و(كأين) تفيد التكثير .

ولم يقل مثل ذلك في آية الكهف .

وأنه قال في آية الكهف: ﴿لَمَّا ظَلَمُوا﴾ بإسناد الظلم إلى جماعة الذكور فناسب ذلك قوله: ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ فإنهم لما ظلموا أهلكهم ، في حين أسند الظلم في آية الحج إلى القرية فقال: ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ فناسب ذلك قوله: ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ .

ومن ناحية أخرى أنه قال قبل آية الكهف: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ



يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ لَهُمُ الْعَذَابُ ﴿٥٨﴾ .

فوصف ربنا نفسه بأنه الغفور ذو الرحمة وأنه لا يؤاخذ الناس بما كسبوا وإلا لعجل لهم العذاب . فناسب ذلك عدم الكثرة في الإهلاك .

في حين أنه سبق آية الحج ذكر من أخذهم ربنا من الأقوام المهلكة ثم قال : ﴿ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ [الحج : ٤٤] .

فناسب التكثير فجاء بضمير المؤنث الدال على الكثرة .

فناسب كل تعبير موضعه الذي ورد فيه .

* * *

﴿ حَقَّ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾ ﴿١٦﴾

﴿ حَقَّ إِذَا فُتِحَتْ ﴾

على حذف مضاف ، أي سد يأجوج ومأجوج ^(١) «فحذف المضاف وأدخلت علامة التانيث في (فتحت) لما حذف المضاف لأن يأجوج ومأجوج مؤنثان بمنزلة القبيلتين . وقيل : حتى إذا فتحت جهة يأجوج» ^(٢) .

ونحو هذا التعبير وارد في القرآن وذلك قوله سبحانه : ﴿ كَذَبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء : ١٢٣] و ﴿ كَذَبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء : ١٤١] بتأنيث الفعل على التقدير .

وجاء بـ (إذا) ولم يأت بـ (إن) لأن ذلك واقع لا محالة ، فإن (إذا) يؤتى بها لما يقطع بوقوعه أو لما يكثر وقوعه .

وأما (إن) فيؤتى بها في الغالب في المعاني المحتملة الوقوع

(١) الكشف ٢ / ٣٣٧ ، البحر المحيط ٦ / ٣٣٩ .

(٢) التفسير الكبير - المجلد الثامن ١٨٥ .

والمشكوك في حصولها والموهومة والنادرة والمستحيلة وسائر الافتراضات الأخرى^(١). وذلك نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَآ تَسْمَعُونَ﴾ (٧٦) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُونُونَ فِيهِ أَوْ لَآ تَبْصُرُونَ ﴿التقصص: ٧٦ - ٧٧﴾.

وقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِيكَ وَلَكِنْ أَنْظِرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرِيكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].
و(الحدب): ما ارتفع وغلظ من الأرض^(٢).

(ينسلون): يسرعون.

وقال: ﴿وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ بجماعة الذكور لأن المراد بذلك أفرادهم.

* * *

﴿وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (٧٧)

﴿أَقْتَرَبَ﴾ أبلغ في القرب من (قرب)^(٣) فإن افتعل أبلغ من (فعل) كصبر واصطبر ، وكسب واكتسب .

﴿فَإِذَا﴾

الفاء واقعة في جواب الشرط ، و(إذا) للمفاجأة.

(١) انظر معاني النحو ٤ / ٥٩ وما بعدها.

(٢) لسان العرب (حدب).

(٣) البحر المحيط ٦ / ٣٣٩.

والفاء وإذا كل منهما يقع جواباً للشرط .

قال تعالى : ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ [الروم : ٢٥] .

وقال : ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَّمَّا قَدَمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ [الروم : ٣٦] .

و(إذا) في الآيتين جواب للشرط .

فإذا اقترنت الفاء بإذا الفجائية كان ذلك أكد . جاء في (الكشاف) :

«و(إذا) هي إذا المفاجأة ، وهي تقع في المجازاة سادة مسدّ الفاء . . . فإذا جاءت الفاء معها تعاونتا على وصل الجزاء بالشرط فيتأكد» ^(١) .

و(هي) : ضمير القصة أو ضمير الشأن ، ويسمى ضمير القصة إذا كان ما بعدها مؤثراً . جاء في (البحر المحيط) : «وضمير (هي) للقصة كأنه قيل : فإذا القصة والحادثة أبصار الذين كفروا شاخصة» ^(٢) .

وضمير القصة إنما يؤتى به في مواطن التّفخيم والتّعظيم . فإنه لم يقل : (فإذا أبصار الذين كفروا شاخصة) بل جاء بضمير الشأن لتفخيم الأمر وتعظيمه ، فإن الموقف غير مألوف وهو أمر عظيم وأحداثه عظيمة . و﴿ شَخِصَةً ﴾ أي لا تطرف أجفانها «والشخوص إحداد النظر دون أن يطرف» ^(٣) .

وقال : ﴿ شَخِصَةً ﴾ بالاسم لأن ذلك يدل على ثبات الحال ودوامها .

وقدم الخبر ﴿ شَخِصَةً ﴾ على المبتدأ (أبصار) ولم يقل : (فإذا هي أبصار الذين كفروا شاخصة) للاهتمام وتعظيم الأمر .

وقوله : ﴿ يَتَوَلَّوْنَا ﴾ مقول لقول محذوف ، أي : يقولون يا ويلنا .

(١) الكشاف ٢ / ٣٣٧ .

(٢) البحر المحيط ٦ / ٣٣٩ .

(٣) البحر المحيط ٦ / ٣٤٠ .



وحذف فعل القول ليكون ذلك مشهدًا حاضرًا مشاهدًا محسوسًا وليس نقلًا عنه ، فكأننا نشاهدهم ونسمع قولهم .

﴿ قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا ﴾

أي كنا ساقطين في الغفلة تحيط بنا من كل جانب ، فإن (في) تفيد الظرفية . جاء في : (التحرير والتنوير) : «ودلت (في) على تمكن الغفلة منهم حتى كأنها محيطة بهم إحاطة الظرف بالمظروف» ^(١) .

وقال : ﴿ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا ﴾ فجاء بـ (من) ولم يقل : (في غفلة عن هذا) للدلالة على أن الغفلة ابتدائية لازمة لهم لا عارضة ، أي هم في غفلة دائمة .

أما (عن) فللمجازاة ، قال تعالى : ﴿ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ ﴾ [النساء : ١٠٢] فقال : ﴿ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ ﴾ فجاء بـ (عن) التي تفيد المجازاة للدلالة على أن الغفلة عارضة ، فهم قد استعدوا للقتال ومعهم أسلحتهم فود الذين كفروا لو يغفلون عنها ، بخلاف قوله : ﴿ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا ﴾ فإن الغفلة هنا لازمة ، وأنهم لم يستعدوا للآخرة ^(٢) .

وجاء بـ (قد) الدالة على التحقيق والتأكيد .

قد تقول : لقد قال هنا : ﴿ قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا ﴾

وقل في (ق) : ﴿ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا ﴾ [ق : ٢٢] .

فقال في آية الأنبياء : (قد) .

وقال في آية (ق) : (لقد) بإدخال اللام على (قد) .

(١) التحرير والتنوير ١٧ / ١٥١ .

(٢) انظر معاني النحو - باب حروف الجر (من) ٣ / ٦٩ .



فلم ذاك؟

والجواب: إن هذه اللام الداخلة على (قد) هي اللام الواقعة في جواب القسم زيادة في التوكيد، ذلك أن الموقف في سياق آية الأنبياء إنما هو في اقتراب الوعد الحق وليس في حصوله، فهو في علامات الساعة.

وأما ما في (ق) فهو بعد مجيء الساعة وهو من أحداث القيامة. قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعْدِ﴾ (٢٠) ﴿وَحَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ (٢١) ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكُمْ غِطَاءَكُمُ فَصَرَكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٠ - ٢٢].

فهو في أحداث القيامة فناسب التأكيد.

﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾

«إضراب عن وصف أنفسهم بالغفلة، أي لم نكن في غفلة منه حيث نبهنا عليه بالآيات والنذر، بل كنا ظالمين بترك الآيات والنذر مكذبين بها، أو ظالمين لأنفسنا بتعريضها للعذاب الخالد بالكذب» (١).

لقد قال هنا: ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ من دون توكيد.

في حين قال في آية أخرى: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ بالتوكيد.

قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٦].

فقال: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ بالتوكيد، ذلك أن هذه الآية في مسهم شيء من العذاب، في حين لم يذكر وقوع شيء من العذاب عليهم في الآية الأخرى، فناسب التوكيد في موضعه دون الآية الأخرى.



ونحو ذلك قوله تعالى في آية أخرى من سورة الأنبياء: ﴿قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ فأكّد ذلك بأنّ ذلك بعد وقوع العذاب .

قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسَنَّا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَتُهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خِلْمِينَ ﴿١٥﴾

ونحو ذلك قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ فأكّد بأنّ ذلك عند وقوع العذاب . قال تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَتُهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾ .

ونحوه قوله في سورة القلم: ﴿قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ﴿٢٩﴾ وذلك بعد أن أهلك الله جنتهم وأبادها فأصبحت كالصريم بعد أن حرّموا منها المساكين .

فالتأكيد إنما يكون بحسب ما يقتضيه المقام .

وهذا من دقيق مراعاة المقام على تباعد المواطن .

إن هذه الآية فيها حشد من الفن كثير ، من ذلك :

١ - أنه قال: ﴿أَقْتَرَبَ﴾ وهو أكد وأبلغ من قرب .

٢ - وقال: ﴿وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ ولم يقل: (واقترب الأمر الحق) لأنّ هذا مما وعدتهم بهم الرسل وذكرته لهم . ولو قال: (الأمر الحق) لم يدل على أن هذا مما وعدوا به .

٣ - ووصف الوعيد بأنه الحق للدلالة على أنه وحده الحق ، وأن كل وعد يخالفه باطل .



٤ - وقال: (فَإِذَا) فجاء بفاء الجواب و(إِذَا) الفجائية للدلالة على تأكيد الأمر.

٥ - وقال: ﴿فَإِذَا هِيَ شَخِصَةٌ﴾ ولم يقل: (فهي شاختة) للدلالة على سرعة حدوث الأمر.

٦ - وجاء بضمير القصة فقال: ﴿فَإِذَا هِيَ﴾ للدلالة على تعظيم الأمر وتفخيمه.

٧ - وقدم الخبر على المبتدأ فقال: ﴿شَخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ للاهتمام.

٨ - وقال: ﴿شَخِصَةٌ﴾ بالاسم للدلالة على ثبوت ذلك ، ولم يقل: (تشخص).

٩ - وقال: ﴿يَنُوبُنَا﴾ فحذف فعل القول ، ولم يقل: (يقولون) للدلالة على أن هذا الأمر مشاهد مرئي.

١٠ - وقال: ﴿قَدْ كُنَّا﴾ بذكر ﴿قَدْ﴾ للتحقيق والتوكيد.

١١ - وقال: ﴿قَدْ كُنَّا﴾ ولم يقل: (لقد كنا) كما قال في (ق) ذلك أن آية الأنبياء في اقتراب الوعد الحق ، وآية (ق) في أحداث القيامة وحصول الوعد الحق.

١٢ - وقال: ﴿فِي غَفْلَةٍ﴾ ولم يقل: (غافلين) للدلالة على السقوط في الغفلة وإحاطتها بهم.

١٣ - وقال: ﴿مِنْ هَذَا﴾ للدلالة على أن الغفلة ابتدائية لازمة.

١٤ - وقال: ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ فذكر صفة الظلم بالصيغة الاسمية الدالة على الثبوت.

١٥ - وقال: ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ولم يقل: (إنا كنا ظالمين) لأنه



لم يذكر وقوع العذاب عليهم .

في حين قال في مواطن أخرى : ﴿ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ فأكد الظلم لوقوع العذاب عليهم فصرحوا بالظلم المؤكد .
إلى غير ذلك من الأمور البينانية .

* * *

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا
وَرِدُونَ ﴾ ﴿١٨﴾

الخطاب صالح لمن تقدم من الذين كفروا الذين قالوا : ﴿ يَوَلِّينَا قَدْ
كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ .

فقال لهم ربهم : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ
جَهَنَّمَ ﴾ ، ويصلح أن يكون خطاباً لقوم الرسول الذين يعبدون ما
يعبدون من دون الله .

وهذه عاقبة كل من كان كذلك .

والحصب : ما يحصب به ، أي ما يرمى به ، من (حَصَبَهُ) إذا رماه
بالحصباء وهو الحصى والحجارة . قال تعالى في قوم لوط : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴾ [القمر : ٣٤] .

وقال : ﴿ أَمْ أَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾ [الملك : ١٧]
والحاصب : هو الريح العاصف فيها حصى وحجارة .

وحصب جهنم : ما يرمى به في نار جهنم ، جاء في (تفسير أبي السعود) :
«الحصب ما يرمى به ويهيج به النار ، من حصبه إذا رماه بالحصباء» ^(١) .

(١) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٢٨ وانظر البحر المحيط ٦ / ٣٤٠ .



جاء في (لسان العرب): «وكل ما أُلقيته في النار فقد حصبتها به ، ولا يكون الحصب حصباً حتى يسجر به . [وقيل]: الحصب: الحطب الذي يلقي في تنور أو في وقود ، فأما ما دام غير مستعمل للسجور فلا يسمى حصباً»^(١) . فهم وما يعبدون من دون الله يحصب بهم في نار جهنم .

﴿أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾

أي داخلون . وأصل التعبير (أنتم واردونها) والضمير (ها) مفعول به لاسم الفاعل .

قدم المفعول به على اسم الفاعل للاختصاص فصار (أنتم إياها واردون) ، وجيء باللام لتقدم المفعول على عامله اسم الفاعل نحو قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُ كَنُيُوتٌ﴾ ، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ٥] .

أي حافظون فروجهم .

وهذه اللام تسمى اللام المقوية ، أي مقوية للعامل الذي تأخر وهو هنا اسم الفاعل .

وقد رجحنا في كتابنا: (معاني النحو) أنها مقوية لمعنى الاختصاص وتوكيده^(٢) . أي أنتم تردونها لا تردون غيرها .

وجاء باسم الفاعل للدلالة على ثبات ذلك فكان الأمر قد حصل .

لقد أكد الجزء الأول من الآية بـ (إن) فقال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ .

ولم يؤكد الجزء الثاني منها وهو قوله: ﴿أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ .

(١) لسان العرب (حصب) .

(٢) انظر معاني النحو - باب حروف الجر (اللام) ٣ / ٦٣ .



وذلك أن الجزء الأول أدعى إلى التوكيد ، فإنه ذكر أنهم وما يعبدون من دون الله يرمى بهم في جهنم .

وأما الجزء الثاني من الآية فإنه ذكر فيه أنهم لها واردون ، أي داخلون .
(ورد) معناها (دخل) ومعناها أيضًا : وصل إلى المورد من غير دخول كما قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ ﴾ فإنه وصل إلى الماء ولم يدخله .
فالجزء الأول أصعب وأشد وأشق ، وذلك أنه جعلهم حصب جهنم ، أي حطبًا يرمى به في النار ، فأكد الجزء الأول لأنه أشد وأشق ، فهما ليسا بمنزلة واحدة ، فأكد ما هو أدعى إلى التوكيد .

* * *

﴿ لَوْ كَانَتْ هَتُولاَءَ إِلَهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

الإشارة بـ (هؤلاء) إلى ما يعبد من دون الله ، وقد ذكرها ربنا عما قريب فكانت الإشارة بما يدل على القرب .

كما هو إشارة إلى ما يعبد قومه ﷺ من كفار قريش .

وهذا غاية في الاحتجاج على ضعف معبوديهم وهوانهم ، وعلى أنهم أنأى شيء عن أن يكونوا آلهة .

﴿ وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

أي كل من العابدين والمعبودين باقون فيها أبدًا .

وقدم (فيها) للقصر ، أي باقون فيها حصراً وليس في مكان آخر .

فهم (لها واردون) لا يردون غيرها .

وهم (فيها خالدون) وليس في مكان آخر .

* * *



﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾

الزفير: إخراج النفس من الرئتين ، وقد يكون ذلك أحياناً من الغم أو أن له علاقة به . جاء في (لسان العرب): «الزفر والزفير أن يملأ الرجل صدره غمّاً ثم هو يزفر به»^(١).

وفي (تفسير أبي السعود): «(زفير) أي أنين وتنفس شديد»^(٢).

وفي (البحر المحيط): «﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ وهو صوت نفس المغموم يخرج من القلب»^(٣).

لقد ذكر في هذه الآية الزفير ولم يذكر الشهيق ، وفي آية أخرى ذكر الزفير والشهيق ، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هود: ١٠٦].

وقد بينا ذلك في تفسيرنا لسورة هود حين عرضنا لتفسير الآية التي ذكرناها فلا نعيد القول فيه^(٤).

* * *

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

(الحسنى) مؤنث الأحسن وهي الصيغة العليا في التفضيل ، وهي «إما السعادة وإما البشرى بالثواب وإما التوفيق للطاعة»^(٥).

(١) لسان العرب (زفر).

(٢) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٢٨.

(٣) البحر المحيط ٦ / ٣٤٠.

(٤) على طريق التفسير البياني ٣ / ٣٢٠.

(٥) الكشف ٢ / ٣٣٨ وانظر تفسير أبي السعود ٣ / ٧٢٩.



﴿أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾

قال : (مبعدون) ولم يقل : (بعيدون عنها) إذ لا يبعد عنها إلا من أبعدته الله عنها ، ولا ينجو منها إلا من نجاه الله كما قال سبحانه : ﴿وَأِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿[مريم : ٧١ - ٧٢].

فقال : (ننجي) ولم يقل : (ينجو).

وكما قال : ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ (١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿[الليل : ١٤ - ١٨].

فقال : (يجنبها) ولم يقل : (يتجنبها).

وقدم (لهم) على الفاعل وهو (الحسنی) لأن الكلام عليهم وللزيادة في إكرامهم وتبشيرهم بما ذكر .
﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ :

«أي لا يسمعون صوتها سمعًا ضعيفًا كما هو المعهود عند كون المصوت بعيدًا . . . (والجملة) مسوقة للمبالغة في إنقاذهم منها» (١).

مما يدل على أنهم في غاية الإبعاد عنها بتوفيق الله وطاعته أعاذنا الله منها .

﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾

وهذا فوز آخر ، والفوز الأول إبعادهم عن النار وذلك فوز مبين كما قال تعالى : ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١٥) مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿[الأنعام : ١٥ - ١٦].



وقال: ﴿وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتُمْ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٩].

جاء في (تفسير أبي السعود): «﴿وَهُمْ فِي مَا أَشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾» بيان لفوزهم بالمطالب إثر بيان خلاصهم من المهالك والمعاطب ، أي دائمون في غاية التنعم . وتقديم الظرف للقصر والاهتمام به»^(١).

إن هناك نوعين من اشتهاء الأنفس :

اشتهاء ثابتاً وهو الخلود في النعيم .

واشتهاء متجدداً وهو ما يطلبونه ويتمنونه كما في قوله تعالى : ﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ فِيكَهْمَ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الطور: ٢٢] ، وقوله : ﴿وَفِكَهْمَ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾^(٢) وَلَحْمٍ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة: ٢٠ - ٢١] ، وقوله : ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ [فصلت: ٣١] أي ما تطلبون ، فلهم ما تشتهي أنفسهم من الأشياء الثابتة والمتجددة .

فعبر عن الاشتهاء الثابت بالفعل الماضي لأن هذا مما استقر في النفوس .

وعبر عن الاشتهاء المتجدد بالفعل المضارع الذي يدل على التجدد .

* * *

﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾^(٣)

إن الفزع الأكبر قيل هو «النفخة الأخيرة لقوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي

(١) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٢٩ .



الْضُّورِ فَفَزَعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴿[النمل: ٨٧]﴾^(١).

وقيل هو يوم القيامة بجملته .

جاء في (البحر المحيط): «الفرع الأكبر عام في كل هول يكون يوم القيامة ، فكان يوم القيامة بجملته هو الفرع الأكبر»^(٢).

وقيل هو «بيان لنجاتهم من الأفراع بالكلية بعد بيان نجاتهم من النار ؛ لأنهم إذا لم يحزنهم أكبر الأفراع لا يحزنهم ما عداه بالضرورة»^(٣).

﴿وَنُلَقِّهِمُ الْمَلَكَةَ﴾ بالسلام عليهم وتبشيرهم بالجنة وتهنئتهم .
﴿هَذَا يَوْمُكُمْ﴾ الإشارة بالقرب لأن اليوم حاضر .

«وإضافة (يوم) إلى ضمير المخاطبين لإفادة اختصاصه بهم وكون فائدتهم حاصلة فيه»^(٤).

ومن النظر في الآيات التي ذكرها في الكافرين والمؤمنين تتبين مقابلات عديدة منها :

١ - أنه قال في الكافرين إنهم حصب جهنم هم لهم واردون .

وقال في المؤمنين إنهم عنها مبعدون .

فأولئك حصب جهنم هم لها واردون .

وهؤلاء عنها مبعدون .

وكلّ منهما قدم فيه الظرف فقال في الكافرين : ﴿لَهَا وَرُدُّوْا﴾ .

وقال في المؤمنين : ﴿عَنْهَا مُبْعَدُوْنَ﴾ .

(١) الكشف ٢ / ٣٣٨ .

(٢) البحر المحيط ٦ / ٣٤٢ .

(٣) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٣٠ .

(٤) التحرير والتنوير ١٧ / ١٥٧ .



وهو تناظر جميل .

٢ - وقال في الكافرين: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾

وقال في المؤمنين: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾

وفرق عظيم بين عدم السماعين .

ثم إن المؤمنين لا يسمعون حسيستها وإنما يسمعون البشرى حين تتلقاهم الملائكة وتقول لهم: ﴿هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ .

٣ - وذكر أن للكافرين غمًا وزفيرًا ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ .

وأن المؤمنين فيما اشتتت أنفسهم خالدون .

فأولئك في الغم يتحسرون ويزفرون ،

وهؤلاء فيما اشتتت أنفسهم خالدون .

٤ - ثم إن أولئك في جهنم خالدون كما قال سبحانه: ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

وهؤلاء فيما اشتتت أنفسهم خالدون .

٥ - إن الكافرين يقولون: ﴿يَنْوِلُنَا﴾ ، فهم في حزن مما هم فيه يدعون بالهلاك .

وهؤلاء لا يحزنهم الفزع الأكبر .

وكلتا الحالتين في الموقف .

٦ - إن الكافرين كانوا في غفلة وكانوا ظالمين .

وهؤلاء سبقت لهم منه الحسنی سبحانه بطاعتهم له كما قال سبحانه:

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ ﴿١٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴿[يونس: ٦٣ - ٦٤] .



وقال: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الظُّلُمَاتِ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٧ - ١٨].
وغير ذلك.

* * *

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ
وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ ﴿١٩﴾

يحتمل أن يكون (يوم) متعلقاً بـ (يحزنهم) فيكون التقدير: لا يحزنهم
يوم نطوي السماء الفزع.

أو متعلقاً بالفزع ، فيكون التقدير: لا يحزنهم الفزع يوم نطوي
السماء ، على معنى: الفزع يوم نطوي السماء لا يحزنهم ، أو
بـ (تلقاهم) أي تتلقاهم الملائكة يوم نطوي السماء .

وكل ذلك حاصل في ذلك اليوم .

جاء في (الكشاف): «العامل في (يوم نطوي) لا يحزنهم ، أو الفزع ،
أو تتلقاهم» ^(١).

﴿السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾

يحتمل أن يكون معنى (السجل): الصحيفة ، وأن يكون الكاتب ،
فالسجل يطلق على الكتاب والكاتب ^(٢).

فعلى معنى الصحيفة يكون المعنى: نطوي السماء كما تطوى
الصحيفة التي يكتب بها.

(١) الكشاف ٢ / ٣٣٨.

(٢) انظر لسان العرب (سجل)، القاموس المحيط (سجل)، وانظر نظم الدرر
٤٨٧/١٢.



وعلى معنى الكاتب يكون المعنى : كما يطوي الكاتب الصحيفة .
والصحيفة إنما يطويها الكاتب .

لعله ذكر السجلّ ليشمل المعنيين : الكتاب والكاتب ، والله أعلم .
جاء في (تفسير أبي السعود) : «﴿ كَطَى السَّجِّلَ لِلْكِتَابِ ﴾» اللام في قوله تعالى : (للكتب) متعلقة بمحذوف هو حال من السجل أو صفة له . . . أي كطي السجل كائناً للكتب أو الكائن للكتب ، فإن الكتب عبارة عن الصحائف وما كتب فيها» ^(١) .

﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ﴾
أي نعيده كما بدأنا أول خلقه .

جاء في (البحر المحيط) : «و(أول خلق) مفعول (بدأنا) والمعنى : نعيد أول خلق إعادة مثل بدأتنا له ، أي كما أبرزناه من العدم إلى الوجود نعيده من العدم إلى الوجود» ^(٢) .

ويحتمل أن يكون المعنى : نعيده كما بدأناه أول خلقه .

فعلى التقدير الأول يكون (أول) مفعولاً به كما مر .

وعلى التقدير الثاني يكون (أول) ظرفاً ، و(ما) اسماً موصولاً ، والعائد محذوف . جاء في (الكشاف) : «ووجه آخر وهو أن ينتصب الكاف بفعل مضمر يفسره (نعيده) ، و(ما) موصولة ، أي نعيد مثل الذي بدأناه نعيده ، و(أول خلق) ظرف لبدأنا ، أي أول ما خلق ، أو حال من ضمير الموصول الساقط من اللفظ ، الثابت في المعنى» ^(٣) .

(١) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٣٠ .

(٢) البحر المحيط ٦ / ٣٤٣ .

(٣) الكشاف ٢ / ٣٣٩ .



﴿وَعَدَّا عَلَيْنَا﴾

أي حقًا علينا^(١)

قد تقول: لقد قال هنا: ﴿وَعَدَّا عَلَيْنَا﴾.

وقد يقول أحيانًا ﴿وَعَدَّا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ فيذكر كلمة (حق) إضافة إلى قوله: ﴿وَعَدَّا عَلَيْهِ﴾ ، فما السبب؟

فنقول: إنه يذكر الحق عندما يتعلق الأمر بالناس وحقوقهم وأموالهم ، وإذا كان المقام يقتضي التوكيد . قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَرِّبُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَقْرَءُونَ وَيُقَرَّبُونَ وَعَدَّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ الَّتِي بَايَعْتُمْ بِهِ ۚ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

لقد ذكر في الآية حقوق البائعين أنفسهم وأموالهم ، كما أن فيها من التوكيد ما لا يخفى كقوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾

فناسب ذكر الحق .

وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعِثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعَدَّا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٨﴾ لِبَيْنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِعَلَّمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ﴾ [النحل: ٣٨ - ٣٩].

فقال: (حقًا) لأن ذلك إنما يتعلق بأمور الناس أجمعين فيعطي كل ذي حق حقه .

(١) التفسير الكبير للرازي ٨ / ١٩٢ .



ثم ذكر أن هذا ما أقسموا عليه بالله جهد أيمانهم فأكدوا ذلك بالقسم وبقوله: ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ .

فرد عليهم بما هو مؤكد فقال: ﴿وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ .

ثم ذكر أنه ليسين الذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين ، وهذا إنما يكون في الآخرة في يوم الفصل في الحقوق ، فناسب ذكر الحق .

﴿إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾

لقد جاء بالفعل الماضي (كنا) ، وباسم الفاعل (فاعلين) ولم يقل: (سنفعل ذاك) .

وذلك لتنزيل المستقبل منزلة الماضي ، كقوله سبحانه: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ ، وقوله: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ .
وجاء باسم الفاعل للثبوت لأنه كأن الأمر قد حصل .

فأكد بأن ، وجاء بالفعل الماضي واسم الفاعل كل ذلك لتأكيد حصوله .

جاء في (روح المعاني): «الأفعال المستقبلية التي علم الله تعالى وقوعها كالماضية في التحقق ، ولذا عبر عن المستقبل بالماضي في مواضع كثيرة من الكتاب العزيز .

أو قادرين على أن نفعل ذلك» ^(١) .

قد تقول: لقد قال في هذه الآية: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ﴾ فذكر السماء بالافراد .

(١) روح المعاني ١٧ / ١٠٣ .

وذكر في موضع آخر طي السماوات بالجمع فقال: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

فما الفرق؟

فنقول: إن آية الزمر في الرد على المشركين الذين لم يقدرُوا الله حق قدره، فرد عليهم ربنا بأن الأرض جميعًا قبضته يوم القيامة، وأكد ذلك بالحال المؤكدة فقال: (جميعًا).

وذكر السماوات وقال إنها مطويات بيمينه بيانًا لقدرته التي لم يقدرها حق قدرها ولم يقدره حق قدره.

ثم نزه نفسه بقوله: ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وليس الأمر كذلك في الأنبياء.

فناسب كل تعبير موضعه الذي ورد فيه.

* * *

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (١٠٩)

* * *

الظاهر أن المقصود بالزبور كتاب داود عليه السلام، وأن المقصود بالذكر هنا التوراة.

وقد سماها القرآن ذكرًا كما سمي غيرها مما أنزله ربنا على رسله، فقد قال نوح لقومه: ﴿أَوْ عَجِثُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٣].



ونحو ذلك قال هود لقومه (الأعراف : ٦٩).

وقال في التوراة : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءَ وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأنبياء : ٤٨].

والقرآن ذكر وذو الذكر وهو الذكر. قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩].

وقال : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٤٤].

وقال : ﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴾ [الأنبياء : ٥٠].

وقال : ﴿ صَّ وَالْقُرْءَانِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ [ص : ١].

كما أن الزبور معناه الكتاب وجمعه زُبر. قال تعالى : ﴿ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ [فاطر : ٢٥].

وقال : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبْرِ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الشعراء : ١٩٦].

وقال : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴾ [القمر : ٥٢] أي مدوّن مكتوب في الصحف.

إلا أن الذي يظهر أن المقصود بالزبور والذكر في الآية ما ذكرناه من زبور داود والتوراة ، وإن كان قسم من المفسرين يرى أن المقصود بالزبور والذكر عموم ما أنزل الله من الكتب .

وذهب بعضهم إلى أن المقصود بالذكر هو اللوح المحفوظ والله أعلم .

جاء في (الكشاف) : «زبور داود عليه السلام ، والذكر : التوراة ، وقيل : اسم لجنس ما أنزل على الأنبياء من الكتب .



والذكر: أم الكتاب ، يعني اللوح»^(١).

وجاء في (البحر المحيط): «الزبور: الظاهر أنه زبور داود. وقاله الشعبي. ومعنى هذه الآية موجود في زبور داود وقرأناه فيه»^(٢).

وقرأنا في التوراة نحو ذلك المعنى من أن الأرض يرثها عباد الله الصالحون. فمما ورد فيها في أشعيا في الإصحاح الستين: «كل غنم قيذار تجتمع إليك. كباش نبايوت تخدمك. . . وتفتح أبوابك دائماً نهائراً وليلاً لا تغلق. وشعبك كلهم أبرار إلى الأبد يرثون الأرض».

وهذا النص واضح أنه في مكة وفي الكعبة تحديداً.

وقيذار ونبايوت من أولاد إسماعيل.

وقد ذكرنا شيئاً من ذلك في كتابنا (نبوة محمد من الشك إلى اليقين).

* * *

﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عٰكِدِيْنَ﴾

أي إن في هذا الذي ذكرناه كفاية لقوم اتصفوا بالعبادة على جهة الثبوت ، فإن هذا كاف لهم.

وقيل: إن المقصود هو ما ورد في القرآن على العموم وليس ما في هذه السورة فقط.

والبلاغ قد يأتي بمعنى الكفاية ، وقد يأتي بمعنى التبليغ^(٣) ، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلَّغُ الْمُبِيتُ﴾ [النور: ٥٤] ، وقوله: ﴿وَمَا

(١) الكشف ٢ / ٣٣٩ وانظر التفسير الكبير للرازي ٨ / ١٩٢ .

(٢) البحر المحيط ٦ / ٣٤٤ .

(٣) انظر (لسان العرب): بلغ .



عَلَيْنَا إِلَّا أَلْبَلَّغُ الْمُيْتُ ﴿[يس: ١٧].

وربما احتمل البلاغ في الآية المعنيين: الكفاية والتبليغ.
وقد أكد ذلك بـ (إن) وجاء بـ (في) الظرفية للدلالة على أن العابدين
يكفيهم في الاعتبار ما لا يكفي غيرهم.

جاء في (البحر المحيط): «(إن في هذا) أي المذكور في هذه السورة
من الأخبار والوعد والوعيد والمواعظ البالغة لبلاغاً كفاية يبلغ بها إلى
الخير ، وقيل: الإشارة إلى القرآن جملة»^(١).

وجاء في (تفسير أبي السعود): «(لقوم عابدين): أي لقوم همهم
العبادة دون العادة»^(٢).

* * *

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١٠٧)

أي هو رحمة للعالمين جميعاً. أي إن الغرض من رسالته ﷺ هو
الرحمة بالناس أجمعين ، فأمن من آمن وأعرض من أعرض .
ولما كانت رحمته سبحانه وسعت كل شيء ذكر العالمين على
العموم.

جاء في (البحر المحيط): «وكونه عليه السلام رحمة لكونه جاء بما
يسعدهم.

و(للعالمين) قيل: خاص بمن آمن به ، وقيل: عام . . . أي هو رحمة
في نفسه وهدى بين ، أخذ به من أخذ وأعرض عنه من أعرض»^(٣)

(١) البحر المحيط ٦ / ٣٤٤ .

(٢) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٣١ .

(٣) البحر المحيط ٦ / ٣٤٤ .

وجاء في (تفسير أبي السعود): «أي ما أرسلناك بما ذكر لعل من العلل إلا لرحمتنا الواسعة للعالمين قاطبة... فإن ما بعثت به سبب لسعادة الدارين ومنشأ لانتظام مصالحهم في النشأتين»^(١).

* * *

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾

يحتمل أن تكون (ما) في قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ﴾ كافة ، و(إنما) تفيد الحصر.

كما يحتمل أن تكون (ما) اسمًا موصولاً ، أي إن الذي يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد.

وعلى الاحتمال الأول يكون المعنى أنه لا يوحى إليّ إلا التوحيد. واعترض على هذا القول بأن الوحي لم يقتصر على التوحيد وإنما هو في أمور كثيرة من مطالب الشريعة.

وأجيب بأن التوحيد هو المقصود الأول من الرسالة.

وعلى الاحتمال الثاني يكون المعنى ظاهرًا وهو أن الذي يوحى إليه أنه لا إله إلا إله واحد وليست آلهة متعددة.

ولا يعني هذا الوجه أن الوحي مقصور على هذا ، وإنما هذا ما أوحى إليه ، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الجن: ١].

فهذا ما أوحى إليه وليس الوحي مقصورًا على هذا.

جاء في (الكشاف): «(إنما) لقصر الحكم على شيء ، أو لقصر



الشيء على حكم ، كقولك : (إنما زيد قائم) و(إنما يقوم زيد) وقد اجتمع المثالان في هذه الآية ؛ لأن ﴿ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ ﴾ مع فاعله بمنزلة : إنما يقوم زيد ، و﴿ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ ﴾ بمنزلة : إنما زيد قائم .

وفائدة اجتماعهما الدلالة على أن الوحي إلى رسول الله ﷺ مقصور على استئثار الله بالوحدانية . . .

ويجوز أن يكون المعنى : أن الذي يوحى إلي ، فتكون (ما) موصولة^(١) .

وجاء في (تفسير أبي السعود) : «أي ما يوحى إليّ إلا أنه لا إله لكم إلا إله واحد لأنه المقصود الأصلي من البعثة . وأما ما عداه فمن الأحكام المتفرعة عليه ، فإنما الأولى لقصر الحكم على الشيء كقولك : (إنما يقوم زيد) أي ما يقوم إلا زيد ، والثانية لقصر الشيء على الحكم كقولك : (إنما زيد قائم) أي ليس له إلا صفة القيام»^(٢) .

ورد أبو حيان على هذا الاحتمال بقوله : «ولو كانت (إنما) دالة على الحصر لزم أن يقال : إنه لم يوح إليه شيء إلا التوحيد ، وذلك لا يصح الحصر فيه ، إذ قد أوحى له أشياء غير التوحيد . . .

ويجوز في (ما) من (إنما) أن تكون موصولة»^(٣) .

وقد يقال : إن المقصود إنه في مسألة التوحيد ما أوحى إليّ إلا أنما إلهكم إله واحد .

فتخصيص الوحي بما يتعلق بالتوحيد نظير قوله تعالى : ﴿ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ

(١) الكشف ٢ / ٣٣٦ .

(٢) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٣٢ .

(٣) البحر المحيط ٦ / ٣٤٤ .

إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ [ص: ٧٠] أي فيما يتعلق بهذا الأمر وليس فيما أوحى إليه كله .

وعلى كل ففي التقدير الأول مندوحة وفي كل سعة .

قد تقول: لقد قال في سورة الكهف: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ١١٠] .

فقال: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ ولم يقل مثل ذلك في آية الأنبياء .

ثم إن تمام كل من الآيتين مختلف .

فقد قال في آية الكهف: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾

وقال في آية الأنبياء: ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴾

فما سبب الاختلاف؟

فنقول:

أما عدم ذكر أنه بشر مثلهم في آية الأنبياء فلأنه تقدم هذا المعنى في أول السورة وقد ذكر المشركون ذلك . قال تعالى: ﴿ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ ﴾

وقرر ربنا هذا المعنى بعد هذه الآية فقال: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾

فاكتفى بما مر ذكره .

بخلاف سورة الكهف فإنه لم يذكر فيها هذا المعنى فذكره في الآية ،
فناسب كل تعبير موضعه .



جاء في (ملاك التأويل) في بيان هذا الأمر: «أنه لما تقدم في أول سورة الأنبياء إثبات كون الرسل عليهم السلام من البشر فيما حكاه تعالى من قول الكفار بعضهم لبعض: ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ ، ثم قال تعالى: راداً لقولهم مثبتاً كون الرسل من البشر: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾ .

ثم تتابع في السورة ذكر الرسل من البشر في عدة مواضع إفصاحاً وإشارة ، آخرها قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ ، والخطاب لنبينا عليه السلام ، قال تعالى بعد ذلك: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ﴾ ، فلم يحتج هنا أن يذكر كونه - عليه السلام - من البشر إذ قد توالى ذكر ذلك جملة وتفصيلاً .

أما سورة الكهف فلم يتقدم فيها مثل هذا ، فكان مظنة الإعلام بكونه ﷺ من البشر إرغاماً لأعدائه ، ولما في ذلك من تلاففه تعالى بالخلق ورحمته إياهم . قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلِيسُوتُ﴾ [الأنعام: ٩] ، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ [الأنعام: ٨] .

فكون الرسل من البشر من أعظم إنعامه سبحانه على الخلق .

وخصت آية الكهف بذكر بشريته عليه السلام لما بيناه .

وورد كل ذلك على ما يناسب ، ولم يكن عكس الوارد لينااسب .

والله أعلم بما أراد» ^(١) .

وأما قوله تعالى في آية الكهف: ﴿فَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا



وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١٠٧﴾ ، فقد ذكر فيه أمرين: العمل الصالح ، وعدم الشرك .

أما قوله: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ فهو مناسب لما تقدم الآية من ذكر العمل الصالح ، فقد قال قبل الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ ﴿١٠٧﴾

وقال قبلها في خواتيم السورة: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ ﴿١٠٨﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ ﴿١٠٩﴾

فناسب ذكر العمل .

ثم إن هذا مناسب لما تقدم في أول السورة وهو قوله: ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ ﴿٢﴾ مَكْثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ ﴿٣﴾ .

فناسب ذلك السياق الذي وردت فيه الآية كما ناسب أول السورة . وليس في آية الأنبياء نحو ذلك .

وأما قوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ ﴿١٠٧﴾ فهو مناسب لقوله في أواخر السورة: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُوْنِ أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ ﴿١٠٨﴾ ، وهو تحذير لمن أشرك بعبادة ربه واتخذ عباده من دونه أولياء .

ومناسب لما ورد في أول السورة وهو قوله: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ ﴿١﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ ﴿٢﴾ .

ومناسب لما ورد في أول السورة في قصة أصحاب الكهف وإيمانهم بالله وحده وكفرهم بما أشرك قومهم . فقد قال تعالى فيهم: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ



قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوهُ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ .

فناسب ذلك ما ورد في سياق الآية وما ورد في أول السورة .

وليس في آية الأنبياء مثل هذا .

وأما قوله سبحانه في آية الأنبياء : ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ فهو مناسب لقوله في الآية قبلها : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ .

وقد أرسله ربه بالإسلام كما هو معلوم .

ومناسب لقوله سبحانه في أول السورة : ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذَكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

وهذا الكتاب هو القرآن وهو كتاب المسلمين كما هو معلوم .

فناسب قوله : ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ سياقه وما ورد في أول السورة ، فناسب كل تعبير موضعه الذي ورد فيه .

وقوله : ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ «استفهام الأمر بإخلاص التوحيد والانقياد إلى الله تعالى» ^(١) .

وجاء في (الكشاف) : «وفي قوله : ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ أن الوحي الوارد على هذا السنن موجب أن تخلصوا التوحيد لله وأن تخلصوا الأنداد» ^(٢) .

* * *

(١) البحر المحيط ٦ / ٣٣٤ .

(٢) الكشاف ٢ / ٣٣٩ .



﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَّا تُوعَدُونَ ﴾

﴿ ءَاذَنْتُكُمْ ﴾ أي أعلمتكم . ويتضمن الفعل معنى التحذير والإنذار .
وقوله : (على سواء) يعني أعلمتكم جميعاً لم أستن أحداً منكم ، بل أعلمتكم كلكم .

فقد حذرهم وأنذرهم كلهم مغبة توليهم .
وقوله : ﴿ وَإِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ يعني أنه لا يعلم متى سيقع ما حذرهم منه أهو قريب أم بعيد ، ولكنه واقع لا محالة . فقد نفى عن نفسه العلم بموعد وقوعه .

وقوله : ﴿ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ يدل على أنه وعدهم ما يسوؤهم من غلبة المسلمين عليهم وما يلحقهم من عذاب في الدنيا والآخرة .
وجاء بالفعل المضارع (توعدون) ولم يقل : (ما وعدتم) للدلالة على تكرار الوعيد والإنذار والاستمرار في ذلك .

جاء في (الكشاف) : «(آذن) منقول من (آذن) إذا علم ، ولكنه كثر استعماله في الجري مجرى الإنذار ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَأَذْنُوبُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ [البقرة : ٢٧٩] . . .

والمعنى : أني بعد توليكم وإعراضكم عن قبول ما عرض عليكم من وجوب توحيد الله . . . كرجل بينه وبين أعدائه هدنة فأحسن منهم بغدرة فنبد إليهم العهد وشهر النبذ وأشاعه وأذنهم جميعاً بذلك .

(على سواء) أي مستوين في الإعلام به ، لم يطوه عن أحد منهم وكاشف كلهم . . .

(ما توعدون) من غلبة المسلمين عليكم كائن لا محالة ، ولا بد من



أن يلحقكم بذلك الذلة والصغار وإن كنت لا أدري متى يكون ذلك ؛ لأن الله لم يعلمني علمه ولم يطلعني عليه» ^(١).

وجاء في (البحر المحيط): «(أذنتكم): أعلمتكم ، وتتضمن معنى التحذير والندارة ، (على سواء) لم أخص أحداً دون أحد» ^(٢).

و«(ما توعدون) من غلبة المسلمين عليكم وظهور الدين أو الحشر مع كونه آتياً لا محالة» ^(٣).

لقد نفى علمه بـ (إن) ولم ينفيه بـ (ما) ، فلم يقل: (وما أدري) ذلك أن (إن) أكد في النفي من (ما) فإن ذلك مختص علمه بالله.

قد تقول: ولكنه نفى الدراية عن نفسه بـ (ما) في موضع آخر فقال: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٩].

فنقول: إن ذلك بحسب الدراية ، فإن كانت الدراية أبعد في عدم العلم نفاها بـ (إن).

وآية الأنبياء أبعد في عدم الدراية من آية الأحقاف «فقد أطلع الله رسوله فيما بعد على ما سيفعله به وبهم في الدنيا والآخرة ، فقد وعده بالفتح والنصر والمغفرة وكسر شوكة الكفر في الدنيا ، وأطلعه على ما سيفعله به وبهم في الآخرة ، ولذلك قيل: الآية منسوخة» ^(٤).

في حين لم يطلع الله سبحانه رسوله ولا أحداً من خلقه على موعد يوم القيامة ، فإن هذا مما اختص الله به نفسه ، ولم يظهره لأحد غيره. فأكد

(١) الكشف ٢ / ٣٣٩.

(٢) البحر المحيط ٦ / ٣٤٤.

(٣) روح المعاني ١٧ / ١٠٧.

(٤) انظر الكشف ٣ / ١١٨.



عدم العلم بالساعة بـ (إِنْ) والآخر بـ (مَا)»^(١) .
فاتضح الفرق .

* * *

﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴾^(١١٦)

لقد خصص ذكر الجهر بالقول فقال: ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ لأن الجهر قد يكون في غير القول . فقد يكون الجهر بما يدرك بالبصر ، قال تعالى: ﴿ لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [البقرة: ٥٥] ، وقال: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً ﴾ [الأنعام: ٤٧] .

جاء في (المفردات في غريب القرآن): «(جهر) يقال لظهور الشيء بإفراد حاسة البصر أو حاسة السمع .

أما البصر فنحو (رأيتَه جهارًا) ، قال الله تعالى: ﴿ لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ . . .

وأما السمع فمنه قوله تعالى: ﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ ﴾ ، وقال عز وجل: . . . ﴿ وَأَسِرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ ﴾^(٢) .

وقد خصص الجهر بالقول في الآية لأن السياق في القول ، فقد قال قبل الآية: ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾^(١١٥) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ ﴾

فالسباق كما هو ظاهر في التبليغ .

(١) معاني النحو ٤ / ١٧٥ - ١٧٦ .

(٢) مفردات الراغب (جهر) .



لقد قال سبحانه: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾

فأسند الکتمان إليهم ولم يسند الجهر إليهم ، فلم يقل : (يعلم ما تجهرون من القول ويعلم ما تكتمون) وذلك لأن الجهر ليس خاصاً بهم ، فقد جهر الرسول بالقول وبلغهم وأذنهم على سواء فجهر بذلك .

وهم يجهرون بكفرهم فأطلقه .

وأما الکتمان فقد أسنده إليهم لأن الكلام عليهم ، فهم الذين يكتمون في صدورهم ما يكتمون وما يضمرون من الحقد ونحوه .

جاء في (الكشاف): «والله عالم لا يخفى عليه ما تجاهرون به من كلام الطعانيين في الإسلام ، وما تكتُمونه في صدوركم من الإحن والأحقاد للمسلمين ، وهو يجازيكم عليه»^(١) .

قد تقول: ولكن قد يطلق الجهر والخفاء أحياناً ، وقد يضيفهما إلى المخاطبين .

فقد قال تعالى في سورة الأعلى: ﴿إِنَّهُمْ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ فأطلق الجهر والخفاء .

وقال في موضع آخر: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام: ٣] .

فأضاف السر والجهر إليهم فما الفرق؟

فنقول: إن كل تعبير مناسب لسياقه الذي ورد فيه .

أما آية الأعلى فإن الكلام فيها عام غير مقيد بالإنسان . قال تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (٥)﴾ [الأعلى: ١ - ٥] .



فليس الكلام على الإنسان أصلاً وإنما الكلام على الله سبحانه وصفاته .

ثم إنه أطلق الأفعال أيضاً . فقد قال : (خلق) ولم يخصص الخلق بشيء معين . وقال : (فسوى) ، وقال : (والذي قدر) و(فهدى) . وكلها أفعال مطلقة غير مقيدة .

ثم قال : ﴿ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ۖ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ۖ ﴾ وليس ذلك في الكلام على الإنسان ، وإنما هو كله في صفات الله سبحانه وقدرته ، فأطلق الجهر والخفاء على العموم ولم يسنده أو يصفه إلى معين .

وأما آية الأنعام وهي قوله : ﴿ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾ فقد أضاف السر والجهر فيها إلى ضمير المخاطبين لأن الكلام على الإنسان .

فقد قال سبحانه قبل الآية : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ۚ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ۚ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۚ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ۚ ﴾

فالكلام كما هو واضح على الإنسان . وقد خاطبهم بذلك فناسبت الإضافة إليهم .

فكان كل تعبير مناسباً لسياقه الذي ورد فيه .

وهذا ظاهر .

* * *

﴿ وَإِنْ أَدْرَىٰ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَنْعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۚ ﴾

أي «وما أدري لعل تأخير هذا الموعد امتحان لكم لينظر كيف تعملون ، أو تمتع لكم إلى حين ليكون ذلك حجة عليكم وليقع الموعد



في وقت هو فيه حكمة»^(١).

* * *

﴿قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾^(١١)

أي دعا الرسول بذلك فقال: رب احكم بالحق.

و(رب) منادى مضاف إلى ياء المتكلم ، أي يا رب احكم على هؤلاء بالحق وعجل لهم العقوبة وشدد عليهم العذاب بما يستحقون ولا ترحمهم.

جاء في (الكشاف): «ومعنى (بالحق) لا تحابهم وشدد عليهم كما هو حقهم»^(٢).

وجاء في (روح المعاني): «والحق: العدل ، أي رب اقض بيننا وبين أهل مكة بالعدل المقتضي لتعجيل العذاب والتشديد عليهم ، فهو دعاء بالتعجيل والتشديد وإلا فكل قضائه تعالى عدل وحق»^(٣).

وجاء في (التفسير الكبير) للرازي: «﴿رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ﴾ فيه وجوه: أحدها: أي رب اقض بيني وبين قومي بالحق ، أي بالعذاب ، كأنه قال: اقض بيني وبين من كذبنى بالعذاب.

وقال قتادة: أمره الله تعالى أن يقتدي بالأنبياء في هذه الدعوة وكانوا يقولون: «﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾» [الأعراف: ٨٩] فلا جرم حكم الله تعالى عليهم بالقتل يوم بدر.

(١) الكشاف / ٢ / ٣٣٩.

(٢) الكشاف / ٢ / ٣٣٩.

(٣) روح المعاني ١٧ / ١٠٨ وانظر تفسير أبي السعود ٣ / ٧٣٢.



وثانيها: افصل بيني وبينهم بما يظهر الحق للجميع وهو أن تنصروني عليهم^(١).

﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ﴾

أضاف الرب إلى ضمير المؤمنين وجاء باسمه الرحمن ، أي نستعين بربنا الرحمن ليرحمنا ويعيننا على ما تصفون .
وقرأ الأكثرون (قل) بالأمر^(٢).

وأنزلت القراءتان مرة بالأمر ومرة بالفعل الماضي ليدل سبحانه على أنه أمر رسوله بالدعاء فدعا . والله أعلم .
﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾

يعني ما تذكرونه من الشرك والأباطيل ونحو ذلك مما يصفون الله به مما لا يليق به سبحانه .
وما يصفون به رسوله من صفات الاستخفاف والاستهزاء كوصفه بالجنون والكذب والسحر .

ويصفون به المؤمنين من صفات الاستهجان والاستهزاء بهم ووصفهم لهم بالضلال كما قال تعالى : ﴿زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَيَسْحَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البقرة: ٢١٢] .

وقالوا لهم : ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ٤٧] .

وقالوا : ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ [الملك: ٩] .

وكانوا يقولون إذا رأوا المؤمنين : ﴿أَهْتُولَاءَ مَنَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِّنْ بَيْنِنَا﴾

[الأنعام: ٥٣] .

(١) التفسير الكبير ٨ / ١٩٥ .

(٢) انظر النشر في القراءات العشر ٢ / ٣٦٥ .



ونحو ذلك من صفات الاستكبار والاستخفاف بهم .
وكانوا يطمعون أن يكون لهم النصر والغلبة وأن العاقبة لهم فخبب الله
آملهم .

جاء في (الكشاف): «كانوا يصفون الحال على خلاف ما جرت
عليه ، وكانوا يطمعون أن تكون لهم الشوكة والغلبة ، فكذب الله
ظنونهم ، وخبب آملهم ، ونصر رسوله ﷺ والمؤمنين ، وخذلهم»^(١) .
وجاء في (التفسير الكبير) للرازي: «أما قوله تعالى: ﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ
الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ ففيه وجهان :

أحدهما: أي من الشرك والكفر وما تعارضون به دعوتي من الأباطيل
والتكذيب . كأنه سبحانه قال: قل داعيًا لي: ﴿رَبِّ أَحْكَمْ بِالْحَقِّ﴾ وقل
متوعدًا للكفار: ﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾...

أي قل لأصحابك المؤمنين: وربنا الرحمن المستعان على ما يصف
الكفار من الأباطيل . أي من العون على دفع أباطيلهم .

وثانيها: كانوا يطمعون أن تكون لهم الشوكة والغلبة فكذب الله
ظنونهم وخبب آملهم ونصر رسوله ﷺ والمؤمنين وخذلهم»^(٢) .

وقرئ: (على ما يصفون) وذلك - والله أعلم - ليذكر حالتين ، حالة
مواجهتهم فيقول لهم: ﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾
وحال غيبتهم فيقول للمؤمنين: (وربنا الرحمن المستعان على ما
يصفون) .

فجمع في القراءتين حالتين المواجهة والغيبة .

(١) الكشاف ٢ / ٣٤٠ .

(٢) التفسير الكبير ٨ / ١٩٦ .



وقال: ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ بالفعل المضارع ولم يقل: (على ما وصفتم) بالفعل الماضي ؛ وذلك لأنهم يكررون الأوصاف ويذكرونها باستمرار.

إن هذه الآية فيها جانبان :

جانب يتعلق بالأشخاص .

وجانب يتعلق بالمعتقدات .

أما الجانب الأول فهو قوله: ﴿قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ﴾ فهو دعاء على الكافرين بأن يحكم عليهم بالعدل لا بالرحمة .

وأما الجانب الآخر فهو قوله: ﴿وَرَبَّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ فهو استعانة على معتقداتهم وما يصفونه على العموم .

وفي ختام السورة يحسن أن نشير إلى ارتباط خاتمة السورة بأولها كما أشرنا إلى ارتباط مفتتح السورة بخاتمة السورة التي قبلها ، أعني سورة (طه) في مفتتح السورة فنقول :

إنه من النظر في أول السورة وخاتمتها يتضح أن بينهما مناسبة ظاهرة وارتباطاً بيناً .

فقد ابتدأت السورة باقتراب الحساب للناس وهو قوله: ﴿أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ .

وختمت باقتراب الوعد الحق وأحداث الساعة وما بعدها إلى ورود النار أو دخول الجنة ، ابتداء من قوله سبحانه: ﴿وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وما بعد ذلك من الآيات .

وذكر الغفلة في أول السورة وذلك قوله: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ .

وقال في أواخرها: ﴿يَنۢبِئُنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ .



كأن ذلك تسلسل مشهد متصل^(١).

وهو شأن السور على العموم في التناسب بين المفتاح والخواتيم^(٢).
جاء في (نظم الدرر): «فقد انطبق آخر السورة على أولها بذكر الساعة
ردًا على قوله: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ وذكر غفلتهم وإعراضهم.
وذكر القرآن الذي هو البلاغ ، وذكر الرسالة بالرحمة لمن نسبوه إلى
السحر وغيره ، وتفصيل ما استعجلوا به من آيات الأولين وغير
ذلك»^(٣).

* * *

(١) انظر كتابنا (التناسب بين السور في المفتاح والخواتيم) ٣٣ - ٣٤.
(٢) انظر القسم الأول من كتابنا (التناسب بين السور في المفتاح والخواتيم).
(٣) نظم الدرر ١٢ / ٥١٥.

مِرَاجِعُ الْكِتَابِ



- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي - ط ٣ / ١٣٧٠ هـ - ١٩٥١ م .
- أسئلة بيانية في القرآن الكريم - الدكتور فاضل صالح السامرائي - دار ابن كثير - سوريا - الطبعة الثانية ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م .
- البحر المحيط لأبي حيان ، مطابع النصر الحديثة - المملكة العربية السعودية - الرياض .
- البرهان في علوم القرآن لبدر الدين الزركشي - تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم - ط ١ / ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م - دار إحياء الكتب العربية .
- البرهان في متشابه القرآن - لمحمود بن حمزة الكرمانى - دار الوفاء .
- ج . م . ع ، ط ٢ ، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م .
- بلاغة الكلمة في التعبير القرآني - الدكتور فاضل صالح السامرائي - دار ابن كثير - سوريا - الطبعة الأولى ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ .
- تاج العروس شرح القاموس لمحمد مرتضى الزبيدي - منشورات مكتبة الحياة - بيروت - تصوير على الطبعة الأولى بالمطبعة الخيرية بمصر سنة ١٣٠٦ هـ .
- التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور - دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس .



- التعبير القرآني - الدكتور فاضل صالح السامرائي - دار ابن كثير - سوريا - الطبعة الأولى ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م.
- تفسير أبي السعود لأبي السعود بن محمد العمادي - تحقيق عبد القادر أحمد عطا - مكتبة الرياض الحديثة - الرياض .
- تفسير القرآن العظيم لابن كثير - دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه .
- التفسير الكبير للرازي - دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان ط ٤ / ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م .
- التناسب بين السور في المفتاح والخواتيم - د. فاضل صالح السامرائي - دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع - ط ١ / ١٤٣٢ هـ .
- الجملة العربية تأليفها وأقسامها - د. فاضل صالح السامرائي - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - عمان - الأردن - ط ١ / ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م .
- حاشية الخضري على شرح ابن عقيل - مطبعة دار إحياء الكتب العربية .
- درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي - منشورات دار الآفاق الجديدة - بيروت - ط ١ / ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م .
- روح المعاني في تفسير القرآن الكريم لشهاب الدين السيد محمود الألوسي - إدارة الطباعة المنيرية - دار إحياء التراث العربي .
- شرح الأشموني على ألفية ابن مالك - دار إحياء الكتب العربية .
- شرح التصريح على التوضيح لخالد بن عبد الله الأزهري - دار إحياء الكتب العربية .



- شرح الرضي على الكافية - تحقيق يوسف حسن عمر .
- على طريق التفسير البياني - د. فاضل صالح السامرائي - نشرته جامعة الشارقة - الشارقة - الإمارات العربية المتحدة .
- فتح القدير للشوكاني - مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر سنة ١٣٤٩ هـ .
- الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري - تحقيق أبي عمرو عماد زكي الباروي - المكتبة التوفيقية - مصر .
- القاموس المحيط لمجد الدين الفيروزابادي - ط ٥ شركة فن الطباعة - مصر .
- الكشف عن حقائق التنزيل لجار الله الزمخشري - مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر سنة ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨ م .
- كشف المعاني في المتشابه من المثاني لبدر الدين بن جماعة - تحقيق د. عبد الجواد خلف - دار الوفاء ط ١ / ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م - مصر - المنصورة .
- لسان العرب لابن منظور - مصور على طبعة بولاق .
- المصباح المنير للفيومي - المكتبة العلمية - بيروت .
- معاني النحو - د. فاضل صالح السامرائي - مطابع دار الحكمة للطباعة والنشر - الموصل ط ١ / ١٩٩١ م .
- مغني اللبيب عن كتب الأعراب لابن هشام الأنصاري - تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد .
- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني - دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت - لبنان - ط ١ / ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م .



- ملاك التأويل لأبي جعفر أحمد بن الزبير الغرناطي - تحقيق الدكتور محمود كامل أحمد - دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

- من أسرار البيان القرآني - د. فاضل صالح السامرائي - دار الفكر - عمان - الأردن - ط ٢ / ٢٠١٠ م - ١٤٣١ م.

- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقاعي - دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة.

- النشر في القراءات العشر لابن الجزري - مطبعة مصطفى محمد بمصر.

* * *



فهرست سورة الأنبياء

الرقم	النص القرآني	الصفحة
١	﴿ أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾	٧
٢	﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾	١٣
٣	﴿ لَا هِيَ قُلُوبُهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ ﴾	١٧
٤	﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾	٢١
٥	﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَثُ أَحْلَمٍ بَلْ أَفْتَرَنَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْنِزْنَا بِتَايَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴾	٢٣
٦	﴿ مَا أَمَنَّا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾	٢٤
٧	﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَسْلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ	
	إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾	٢٧
٨	﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴾	٣٣
٩	﴿ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴾	٣٤
١٠	﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾	٣٥
١١	﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾	٣٦
١٢	﴿ فَلَمَّا أَحْسَسُوا بِأَسْنَانَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾	٤٠

- ١٣ ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُشْأَلُونَ﴾ ٤١ ..
- ١٤ ، ١٥ ﴿قَالُوا يَتَوَلَّأَ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيدِينَ﴾ ٤٢
- ١٦ ، ١٧ ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنِ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَا تَخَذْنَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَعَلِينَ﴾ ٤٣
- ١٨ ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ﴾ ٤٨
- ١٩ - ٢٠ ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ ٥٠
- ٢١ ﴿أَمِ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ﴾ ٥٥
- ٢٢ ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهِةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ٥٨
- ٢٣ ﴿لَا يَسْتَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُشْأَلُونَ﴾ ٦١
- ٢٤ ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلَهِةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ ٦٣
- ٢٥ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ ٦٤
- ٢٦ ، ٢٩ ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْـَٔفُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ ٦٩

- ۳۰ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ ۷۶
- ۳۱ ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ۷۸
- ۳۲ ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ ۸۱
- ۳۳ ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ .. ۸۳
- ۳۴ ، ۳۵ ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِلْبَشَرِ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴿۳۴﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبِّئُكُمْ بِالْأَشْرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ ۸۵
- ۳۶ ﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ يَذْكُرُ الْرَّحْمَنُ لَهُمْ كُفْرُهُمْ﴾ ۹۰
- ۳۷ ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَجٍ ۖ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ ۹۴
- ۳۸ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ۹۶
- ۳۹ ، ۴۰ ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿۳۹﴾ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ ۹۷
- ۴۱ ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزَأَ بِرُسُلٍ مِّنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ۱۰۲
- ۴۲ ﴿قُلْ مَنْ يَكْلَأُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ ۚ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ﴾ ۱۰۵
- ۴۳ ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ ۱۰۷



- ٤٤ ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ
أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ ... ١٠٩
- ٤٥ ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا
يُنذَرُونَ ﴾ ١١١
- ٤٦ ﴿ وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَوَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا
ظَالِمِينَ ﴾ ١١٣
- ٤٧ ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ
مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ ... ١١٥
- ٤٨ ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ ... ١١٧
- ٤٩ ﴿ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ ... ١٢٠
- ٥٠ ﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴾ ١٢٣
- قصة سيدنا إبراهيم (الآيات ٥١ - ٧٢) ١٢٧
- ٥١ ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ ١٣٧
- ٥٢ ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ ... ١٣٩
- ٥٣ ﴿ قَالُوا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴾ ١٤١
- ٥٤ ﴿ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ ١٤١
- ٥٥ ﴿ قَالُوا أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴾ ١٤٢
- ٥٦ ﴿ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ
مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ ١٤٢
- ٥٨ ، ٥٧ ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ
جُذُذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ ١٤٥

- ۵۹ ﴿ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ۱۴۸
- ۶۰ ، ۶۱ ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَى
- أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ ۱۴۹
- ۶۲ ﴿ قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ ۱۵۰
- ۶۳ ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾ .. ۱۵۱
- ۶۴ ﴿ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ۱۵۱
- ۶۵ ﴿ ثُمَّ نَكْسُوهُ عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴾ .. ۱۵۳
- ۶۶ ﴿ قَالَ أَتَقْبَدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا
- وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾ ﴿٦٦﴾ ۱۵۴
- ۶۷ ﴿ أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ۱۵۴
- ۶۸ ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ ۱۵۴
- ۶۹ ، ۷۰ ﴿ قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا
- فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَخْسَرِينَ ﴾ ۱۵۷
- ۷۱ ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ ۱۶۱
- ۷۲ ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴾ .. ۱۶۲
- ۷۳ ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ ۖ يَا مَرْيَمُ أَنْوَحِيْنَآ إِلَيْهِمْ فَعَلِ الْخَيْرَاتِ
- وَإِقَامِ الصَّلَاةَ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةَ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ ﴾ ۱۶۳
- ۷۴ ، ۷۵ ﴿ وَلُوطًا إِذْنَهُ حُكْمًا وَعَلَّمَا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ
- تَعْمَلُ الْخَبِيثَاتِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَسَقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي
- رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ۱۶۵

٧٦ ، ٧٧ ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ١٧٥

٧٨ ، ٨٠ ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ ١٧٨

٨١ ، ٨٢ ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴾ ١٨٤

٨٣ ، ٨٤ ﴿ وَيُتُوبُكَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَءَاتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ ﴾ ١٩١

٨٥ ، ٨٦ ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ١٩٦

٨٧ ، ٨٨ ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُشَجِّي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ١٩٧



- ٨٩ ، ٩٠ ﴿ وَرَكَرِيًّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴾ ٢٠٦
- ٩١ ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنْتَ فَرَجَهَا فَفَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ ٢١٤
- ٩٢ ، ٩٣ ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَهِنَا يَجْعُوتُ ﴾ ٢١٧
- ٩٤ ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيهِ وَإِنَّا لَهُ كَنُيُوتُ ﴾ ٢٢٠
- ٩٥ ﴿ وَحَرَّمْ عَلَى قَرِينِهِ أَهْلَكْنَاهَا إِنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ ٢٢٥
- ٩٦ ﴿ حَقَّ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾ ٢٢٩
- ٩٧ ﴿ وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقُولُونَ أَلَمْ نَكُنَّا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ .. ٢٣٠
- ٩٨ ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ ﴾ ٢٣٦
- ٩٩ ﴿ لَوْ كَانَتْ هَتُولَاءَ إِلَهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .. ٢٣٨
- ١٠٠ ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴾ ٢٣٩
- ١٠١ ، ١٠٢ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴾ ٢٣٩



- ١٠٣ ﴿ لَا يَخْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ ٢٤١
- ١٠٤ ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ ٢٤٤
- ١٠٥ ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ ٢٤٨
- ١٠٦ ﴿ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴾ ٢٥٠
- ١٠٧ ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ ٢٥١
- ١٠٨ ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ ٢٥٢
- ١٠٩ ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أُدْرِيَ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ ٢٥٨
- ١١٠ ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴾ ٢٦٠
- ١١١ ﴿ وَإِنْ أُدْرِيَ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَنْعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ ٢٦٣
- ١١٢ ﴿ قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ ٢٦٣
- مراجع الكتاب ٢٦٩
- فهرست سورة الأنبياء ٢٧٣

